

سيرة قومية

تأليف:

د. مصطفى عبد الغني

الناشر



أحمد بهاء الدين

سيرة قومية

الكتاب: أحمد بهاء الدين – سيرة قومية
الكاتب: د . مصطفى عبد الغنى

الناشر: هلا للنشر والتوزيع
ت: ٣٠٤١٤٢١ تليفاكس: ٣٤٤٩١٣٩

رقم الايداع: ١٠٢٦١/٩٦
الترقيم الدولي: ISBN 997-5784-00x

الجمع والتنفيذ الفنى:
المركز العربي للنشر والترجمة والدعاية ت: ٥٧٥١٨٨٤



المحتويات

مقدمة

ليست هذه سيرة ذاتية، وإنما هى سيرة قومية، تستمد مشروعيتها من وعى صاحبها.

وهى بهـذا الشكل لا تهـتم بحـيـاة الكاتب - وإن كـانت لا تغـفلهـا - وإنما تدرس كـتـاباته، وتتـفـهم رؤيتـه، وتحـدد مـواقـفـه ليظل لـهـا/ لنا القـدرة على التعامل مع رؤيتـه - أولاً - وتفـهم موقفـه - ثانياً - ثم نحكم لها، أو عليها، بعد ذلك، فى الإطار الذى اختارته.

وهى، بهذا الشكل، تعيدنا إلى صاحب السيرة، لنسأل:

لماذا أحمد بهاء الدين؟

(٢)

الإجابة على هذا السؤال تدفعنا إلى عاملين اثنين:

- ذاتى
- قومى

اما العامل الذاتى، فيوجز فى تكوين أحمد بهاء الدين، وهو تكوين يرتبط صـاحـبـه بمجـتـمعـه ارتباطاً عـضـوياً، وهو ارتبـاط ناتج عن تكوينـه الخـاص،

لكنه مؤكد له ومفسر فى آن واحد.

من ذلك،ما يذهب إليه أحمد بهاء الدين حين يعلق على رأى من يرى أن الحياة هى (العيش الرخى والبال الرضى..)، فيقول عنه:

«... كأن يقدم للناس نصائح للاحتفاظ بشبابهم!، فلم يبق إلا أن يشير إلى فوائد النوم المبكر وحمامات البخار!!.. ولست أدرى كيف ظل يحمل قلمه أكثر من ثلث قرن!، ورغم أنه ترك الخلق للخالق، فلم ينتقد ولم يعترض، ولا يدخل فى جدال أو يلج فى منافسة!!».

فأحمد بهاء الدين هنا، فى كتابه المبكر، الذى اختار له عنوان (مبادئ وأشخاص) يغضب ويستاء ممّن ليس له مبدأ فى الحياة، ويرضى ويرتاح لمن يعمل لوطنه انطلاقاً من ظروف الحياة حوله فى بلاد ما زالت تعانى من الشظف والجهل والظلام وتخلف المفاهيم.. وهو لذلك، يرفض النموذج المشار إليه، فى حين يقبل على نموذج آخر، فيشدد على مذهب طه حسين فى الحياة، أبعد من العيش الرخى والبال الرضى، وهو يسهب هنا فيقول:

«فهو يرى ظروف الحياة من حوله سيئة، بل ينبت من صميم هذه الظروف السيئة، ويجد نفسه فى صباه ضحية لها.. يجد نفسه ضحية ظروف مصر كلها من الجهل والفقر والمرض و.. فحياته كانت حرباً مباشرة ضد هذه الأشياء جميعاً، ومعركته كانت أعنف بكثير من معركة غيره».

ويضرب لنا أحمد بهاء الدين، فى غير مرة، نماذج لهذا المثقف الواعى الملتزم بقضايا وطنه، ويعدد أمثلة على هذا الوعى حين يفرق بين السينما الإيطالية الواعية والأمريكية الاستهلاكية؛ فالإيطاليون استخدموا السينما فى وضع مشكلات مجتمعهم تحت عدسة البحث، مشدداً – هنا – على الدور الإيجابى الذى لابد أن تلعبه السينما فى خدمة المجتمع وتغييره..

لقد عاش الواقع العربى وامتلك القدرة على التعامل معه..

عرف (تحديات) كثيرة واجهت بلاده فى النصف الثانى من هذا القرن، فامتلك (الاستجابة) العفوية فى التصدى لها..

وهو ما يبتعد بنا من الذات إلى العام.

(٣)

عاش أحمد بهاء الدين فى هذا الواقع العربى فى أسوأ فترة من فترات الأقطار العربية، وعاين تناقضاته وثنائياته المتكررة:

ازدهار أول وحدة عربية فى التاريخ المعاصر ٥٨ – ١٩٦١ وانكسارها

وصول بعض الأقطار العربية إلى قمة الوعى القومى وإلى منتصف الستينات، ثم هبوطها إلى قاع النكسة (الهزيمة) ١٩٦٧ .

ارتفاع أصوات بعض العرب حين كانت الفترة تؤرخ لزمن السياسة الهزلية فى مؤتمرات القمة منذ بدايات الستينات.

صعود نجم المقاومة الفلسطينية ثم بداية المصادمات والمجازر العربية

المتكررة لها منذ عام ١٩٦٩.

تبنى الأنظمة العربية لمنظمة التحرير الفلسطينية، و في الوقت نفسه رفض دعمها للمقاومة الفعلية كما حدث في عام ١٩٧٠.

صعود المد القومي منذ أكتوبر ١٩٧٣، خاصة.. ثم انحساره مع زيارة القدس واتفاقية فصل القوات في آخره.

تدمير إسرائيل للمفاعل الذرى العراقي ١٩٨١ والاعتداء على منظمة التحرير في تونس، ولم يؤخذ موقف عربي موحد.

غزو إسرائيل لبيروت العربية في عام ١٩٨٢، ولم نسمع إدانة عربية على مستوى الحدث المفزع.

حرب العراق مع إيران، وفي الوقت نفسه تشرذم الأقطار العربية

اعتداء أمريكي على الأراضي الليبية في عام ١٩٨٦ في حين لم يعل صوت عاصمة عربية يرفض الاعتداء ويشجبه.

تدشين سياسة المحاور: المجلس الخليجي ٨١، المجلس العربي ٨٩، المجلس المغاربي، في حين كانت روافد الواقع العربي تلتقي في تيار أزمة الخليج الثانية ٩٠ / ١٩٩١.

دعوة عبدالكريم قاسم لضم الكويت وتهديدها عام ١٩٦١، وإعادة نفس السيناريو عام ٩٠ / ٩١.

وكان المنفذ في الحالتين هو الغرب (سواء أكان الاسم هو إنجلترا أو أمريكا).

وهذا هو العمل الآخر – القومى –الذى أسهم فى تكوين أحمد بهاء الدين وتحريره من كثير من الخرافات الإقليمية..

(٤)

فى هذ الزمن العربى حاولنا أن نقترب من السيرة..

كانت المحاولة تبدأ من المحطات الأولى: النشأة والمميزات، الفصل الأول.

ثم تمهلنا طويلاً عند مشروعه التّنويرى على كل الأصعدة: العقل، الحرية، الاجتهاد.. إلى آخره.. فى منظومة واحدة تسعى إلى استكمال دائرة «القوانين» التاريخية لحركة المد العربى أو جزره، الفصلين الثانى والثالث.

كما أشرنا إلى موقف المثقف العربى من السلطة من حيث أن كثيراً من القضايا الفكرية ترتدى زى السياسة وتستخدم رموزها، الفصل الرابع.

وتمهلنا – أكثر – عند عديد من القضايا التى تمثل جوهر التجربة القومية، كالوحدة العربية وقضية فلسطين، والاستعمار الأمريكى، الفصل الخامس.

كان لابد أن نمضى إلى تراكم الأحداث فى حركتها الإيجابية أو السلبية فى الثمانينات، حيث عرف من القضية القومية، هجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين فى زمن انتهاء الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفييتى..

واشتعال القوميات.. وما إلى ذلك. شارك فى حركة القوى الداخلية والخارجية بقدر واحد، وهو ما جعل أحمد بهاء الدين يسقط فى حالة من عدم التصديق التى تماست مع درجة عالية من درجات الحيرة والمرض والكآبة. مما انتهى به إلى السقوط فى أسر المرض.

وهو موضوع الفصل الأخير.

وهو الفصل الذى كانت كل ارهاصات حرب الخليج قائمة فيه..

فحرب الخليج لم تبدأ - فى رأيى - من انكسار السبعينات، ولا- حتى - من هزيمة ٦٧، وإنما منذ وعينا الصراع مع العدو الغربى - اليهودى - وكان وعينا ناقصاً مشوهاً..

وهو ما يتوقف بنا عند بعض ملامح المنهج

(٥)

ومنهجى النقدى، فى إيجاز، يتحدد فى عدة نقاط:

- نهتم، أولاً، بالسيرة القومية وليس بالسيرة الذاتية فقط، إذ لا يبقى لدى كاتب مثل أحمد بهاء الدين مساحة، أية مساحة، بين الخاص والقومى.

- نهتم، ثانياً، بالبعد الزمنى وليس بالموضوعى وحده، إذ لا يبقى لدى كاتب مثل أحمد بهاء الدين، مساحة، أية مساحة، بين الزمنى والموضوعى.

- نهتم، ثالثاً، بأسلوب بحثى استفدت فيه بأساليب أو مناهج بحثية كثيرة، وطورته من داخل السيرة هنا لا من خارجها؛ إذ لا يمكن لباحث أن

يتمهل عند فلسفة أى منهج أو أسلوب دون أدواته.

وبعد، فهذه سيرة قومية آثرت من خلالها أن أعيد جزئيات الحدث وتفكيكه فى ضوء الوعى النقدى، ثم أعيد تركيبها عبر شخصية قومية، تعد من بين أهم رموزنا وأنبلها على الإطلاق..

فإلى مثل هذه الشخصية، القومية، الواعية.. أهدى هذه السطور..

وإلى كل عربى قومى حريص على وعيه العروبى فى هذا العصر الذى لم يعد يهتم بأية إقليمية محددة، وإنما بوحدة عربية تسعى لتثبيت وجودها فى هذا النظام العالمى الجديد...

المؤلف

الفصل الأول

النشأة والمؤثرات

أولاً

النشأة الأولى

(عرفت «محرمات» الاشتراكية، والوحدة العربية، والإصلاح الزراعى، والدعوة إلى الاستقلال الوطنى، وبناءالقطاع العام)

ولد أحمد بهاء الدين لاسرة تنتمى الى الطبقة الوسطى، خرج عائلها من احدى قرى أسيوط بجنوب مصر (الدوير) تحت تأثير الوظيفة، إذ كانت طبيعة عمله بوزارة الأوقاف تحتم عليه التنقل المستمر بين محافظات مصر، وانتقل إلى أكثر من مدينة حتى حط الرحال فى مدينة الإسكندرية حيث ولد أحمد الابن الثانى للأسرة، وكان هو الولد الوحيد لخمس شقيقات وأشقاء.

ويتحدد تاريخ ميلاده فى ١١ فبراير عام ١٩٢٧.

وقد أمضى الابن الوحيد المدلل سنواته الأولى بالإسكندرية، حيث بدأت ميوله تنم عن انشغال بما حوله بشكل مغاير لأقرانه، فتحكى شقيقته أنه كان دائم السؤال عن الأحداث السياسية التى كانت تغلى بها مصر فى الثلاثينيات، وكان لا يكف عن شراء ما يستطيعه من الصحف السيارة. وينكب عليها طويلاً، ثم يقوم برفع المقالات السياسية التى يشغف بها فيعلقها أو يقوم بتثبيتها فى جدار حجرته الخاصة، وكثيراً ما كانت تفاجئه وحيداً

وهو يتحدث عن قوتين سياسيتين تتصارعان رغم هدوئه الشديد.

وقد نمى هذا الإحساس السياسى لديه أن أباه كان ينتمى للحزب الجماهيرى (الوفد) فى حين أن أعمامه وعشيرته ينتمون إلى حزب الصفوة (الأحرار الدستوريين).

ولأن حماس الأب، المتعصب للوفد، كان يتعارض مع مصالح الأهل فى الريف، فقد كا ن يرى - دائماً - العراك بين الأب وأعمامه، فإذا سقطت وزارة للوفد كان حماس الأب يصل إلى حد أنه لا يذهب لعشيرته. بل ينصرف عنهم تماماً إلى مشربه المفضل، وكان يستمر هذا الحال لسنوات فى قطيعة مبعثها الانتماء الحزبى أو السياسى. (الأهرام ١٩/١٠/١٩٨٨).

وقد كان ذلك ينعكس على وجدان الصبى، سواء فى الانتماء السياسى منذ فترة مبكرة، وهو الانتماء الذى قد يجشمه - كما سنرى - عداء طبقاء كثيرة، كما ينعكس فى ارتباطه بحزب الوفد بوجه خاص، وهو الحزب الذى عرف منذ فترة مبكرة - بوجه خاص - باهتمامه الكبير بالقضايا العربية، وكان موقعه على رأس الحركة الوطنية المصرية وجهاده ضد الاستعمار يزيده قرباً من حركات التحرر فى البلاد العربية، إذ كان «بشعبيته سريع الاستجابة لمشاعر الجماهير العاطفة على قضية فلسطين. (طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، دار الشروق ط ٢، ص ٢٤١).

ومهما يكن، فإن نشأة أحمد بهاء الدين تعكس صورة للمثقف العربى الذى عرف المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية. ففى هذه الفترة

الفوارة كان قد عرف كلية الحقوق، وتخرج فيها عام ١٩٤٦، وحين كان ينتقل كموظف بين وزارة التربية والتعليم والنيابة الإدارية ومجلس الدولة كان يشهد هذه الفترة التى شهدت الطبع المتناقض للأوضاع بفعل تعامل العالم العربى مع النظام الرأسمالى العالمى.

إذا أنه فى حين كانت المنطقة العربية - وخاصة مصر - قد ارتبطت بسياسة الحلفاء بعد انتهاء الحرب وعانت من التطور الجنينى للاقتصاد و ارتباط عدد كبير من السياسيين والأحزاب المناوئة للاستعمار، فإن المنطقة العربية شهدت أعلى درجات التمرد على هذا الواقع، وبدأنا نسمع صيحات تأميم البنوك، والأخذ بنظام الإصلاح الزراعى، ومجانية التعليم. وما إلى ذلك مما وجد له مناخاً مواتياً فى ذلك الوقت.

فى هذه الفترة، تحددت اهتمامات أحمد بهاء الدين أكثر، فوجد نفسه غير ميال للعمل كموظف فى نمو إحساسه بالقضايا العامة، فاتجه بكليته إلى الصحافة، وسرعان ما وجد متنفساً فى مجلة (الفصول) التى كان يصدرها الكاتب المعروف «محمد زكى عبدالقادر»، وقد شغل فى هذا الفترة - فضلاً عن تعرفه بالكتّاب والقضايا المصرية والعربية - بإطلاعه الفائق، إذ كان يُشاهَد منكباً طيلة ساعات النهار فى دار الكتب المصرية، ليعيد قراءة كل الصحف التى صدرت منذ زهاء نصف قرن، كما شغل بالكتابة فى القضايا الكثيرة التى كانت تعانى البلاد منها.

وأثرت المدنية كثيراً فى أحمد بهاء الدين، مما انعكس على اهتماماته التنويرية فيما بعد.

إذ تعرف - فضلاً عن الصحف والمجلات والندوات - على وسائط ثقافية، كالسينما والمسرح، ومعارض الفن التشكيلي. ويبدو أن الحركة التشكيلية لعبت دوراً كبيراً في تكوينه لما يعود إلى علاقاته بحركة التروتسكيين في مصر في ذلك. وهي جماعة كانت تهتم بالسياسة لكي تولي اهتماماً فائقاً بالفن السيريالي الغربي وطلائعه.

أيضاً تأثر كثيراً بالتاريخ وقرأ عنه وفيه كثيراً، ليس على سبيل القص والمعرفة.. وإنما للدرس والفهم. فالتاريخ عنده «هو الفرق بين الإنسان الواعي، وغير الواعي».. (أيام لها تاريخ، المقدمة)، وبلغ شغفه للتاريخ أن سجل في باريس رسالة لنيل الدكتوراه..

غير أن شغفه بالفن والتاريخ لم يمنعه من الإغراق في العمل الصحفي.

إذ أدركت السيدة روزاليوسف في ذلك الوقت قيمة هذا الفتى المتحمس، وأيقنت أنه في (مفترق الطرق)، فأخذت بيده، وتركته يعمل في الصحافة، مشترطة عليه ألا يهتم كثيراً بالفن، ويترك دراسة التاريخ، ويخلص للصحافة، وهو ما انتهى إليه بالفعل. (مجلة الشباب ١/٦/١٩٨٨).

لقد امتدت فترة النشأة إلى ثورة ١٩٥٢، حتى مارس في كل هذه السنوات ألواناً كثيرة أثرت فيه كثيراً، فقد عرف (محرمات) كثيرة لم تكن ليسمح لأحد من الاقتراب منها في سنوات الأربعينات، يقول:

«أتذكر أنني طيلة الأربعينات كنت أجرب (محرمات)

الاشتراكية، والوحدة العربية، وقضايا الإصلاح الزراعى، والدعوة إلى سياسة الاستقلال لوطنى، بل كنت من أوائل من دعوا إلى سياسة بناء القطاع العام، وأذكر جيداً أن أول ما كتبت - بعد تخرجى من الجامعة - مقالة - دعوت فيها إلى تأميم محصول القطن وتأميم البنك المركزى. (اسمه الأهلى يومذاك) .. بل أننى فى هذه الفترة كنت أرقب حركة الاستعمار الجديد - الأمريكى - بحزن، وفى هذه الفترة اعتملت داخلى كل ارهاصات كتابى عن الاستعمار الأمريكى (النقطة الرابعة)، الذى كتبته بالفعل فى منتصف عام ١٩٥١». (محضر نقاش، ١٩٨٨/٣/٧) .

بيد أن ثمة مؤثراً آخر لا يمكن إغفاله، أسهم فى نشأة أحمد بهاء الدين منذ فترة مبكرة، وهو مؤثر ارتبط باتجاهه الراديكالى الذى تطور فيما بعد، وأصبح أهم سمات فكره، ونقصد به ارتباطه بيسار حزب الوفد فى (الطليعة الوفدية) التى كانت أحد الأنظمة التابعة لحزب الوفد الأم، وإن كانت أكثر منه راديكالية.

ولا يجب أن نشير هنا إلى تأثير (الطليعة الوفدية) لدى أحمد بهاء الدين على اعتبار أنه يترجم تكوينه الراديكالى المتمرد فى هذه الفترة وحسب، وإنما يمثل ذلك أيضاً مفتاحاً لانتمائه العربى، فقد قصد (بالطليعة الوفدية) أن تكون أداة اتصال مع «.. شعوب الدول العربية» (رابطة الشباب ٢٠ مارس١٩٤٧ .

وقد كانت صحيفة رابطة الشباب التابعة للوفد،، تتوسع فى ذكر أخبار البلاد العربية وحركات التحرر فيها، وتهاجم خطط الاستعمار بشأنها، وتكشف سعي الولايات المتحدة للسيطرة على البترول العربى وعلى اتخاذ المملكة العربية السعودية ركيزة لها.

فى هذه الفترة اقترب من محمد مندور، وتعرف على عبدالرحمن الشرقاوى، وصادق فتحى غانم، وتبادل الكتب مع نجيب محفوظ، إذ كان كل هؤلاء قريبين من «الطليعة الوفدية» أهم تشكيل عربى وطنى فى ذلك الوقت. ويلعب دوراً رائداً فى التحرر الوطنى والاجتماعى.

وهنا، نستطيع أن نرصد عدة مؤثرات عديدة، راحت تصب فى تكوينه الفكرى، فتمد المجرى العريض وتعمقه..

ثانياً

المـــــؤثرات

«الرؤية المتأثرة بالقانون هى الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام التطبيق، أو بين تهويمات الخيال ورؤى الواقع»

أ - المؤثر الفردى

ربما كان أهم مؤثر لدى أحمد بهاء الدين - غير اعتدال الوعى - أنه كان «فردى النزعة»، وهى سمة لا نخطئها لديه، وهو السبب الذى جعله - فيما نظن، رغم تمرده - أقرب إلى الإصلاحى الهادئ، أكثر منه إلى الثورى العنيف.

لقد اتسم التطور العام لديه بالميل إلى القانون - دراسة وتأثراً - بما يمنحه لصاحبه من هدوء وميل للتفكير على أرض واقعية، يقول بعد أن يسهب حول تأثير القانون فى طبيعته :

«إن الرؤية المتأثرة بالقانون هى الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام التطبيق، أو بين تهويمات الخيال ورؤى الحقيقة» (شرعية السلطة ص ٢٠) .

فالمعروف أن دراسة القانون تهب صاحبها هذا الفكر الهادئ المتميز، وهو بالنسبة لأحمد بهاء الدين ليس أكثر من أسلوب أفاده كثيراً، لكنه

ترجيحاً لفكرة الفردية، فإنه لم يستخدمه فى مهنة المحاماة، ليس لكونه لم يصل السن القانونية إبان تخرجه من كلية الحقوق، وإنما لأن طبيعته تأبى عليه الدخول إلى المحاكم والتعرض بصوت عال لهذه القضية أو تلك، ويصبح القانون هنا علاقات بين المتهم والقاضي..

وربما ارتبط ذلك بنزعة أخرى لديه، هى الاعتدال.

فرغم أن كتاباته أحياناً تشي بقدر كبير من الغضب، فإن سمة الاعتدال تظل أكثر ما تؤثر فى تكوينه، وليس من المصادفة أنه يذكر أنه دائم العود إلى كتابات (نهرو) أكثر من كتابات أى شخص آخر (أخبار ١٨/٦/١٩٩٣) . فى حين يصف فكر نهرو وابنته بالاعتدال والهدوء فى أكثر من موضع.

وقد يرتبط ذلك أن إعجابه بالقانوني المعروف عبدالرازق السنهورى فاق سواه، فهذا الرجل عنده اتسم بالرزانة والهدوء الشديدين مع تمكين كبير للقانون، ولم تقلل أحكامه العاتية على رئاسة مجلس الدولة ضد الملك من سمة الهدوء لديه، وكثيراً ما أشاد بالسنهورى فى هذا الصدد.

وعلى ذلك، فإن بهاء الدين يتحول رويداً رويداً، لطبيعته، إلى المفكر أكثر منه إلى (الانتلجنسى) أى «المثقف الثورى»، وهو ما نجد له تفسيرات كثيرة فى تكوينه ومواقفه (*).

(*) The intellectuals, A Constrovesial Portrait Corge, B. De HusAzar, P.32.

ب - جيل الرواد

ولأن أحمد بهاء الدين شهد الأربعينات وتأثر بها، فمن الطبيعى أن يكون تأثر جيل الأبناء بالآباء مؤكداً، ورغم أن الجيل السابق كان يختلف فى عديد من المواقف و التوجهات مع الجيل التالى، فإن بهاء الدين كان أكثر ما تأثر برموز هذا الجيل.

لقد تأثر بطه حسين، وعباس العقاد، وعلى عبدالرازق، ومحمد حسين هيكل، وعبدالرازق السنهورى، وتوفيق الحكيم.. مروراً بمحمد مندور، وفتحى رضوان، وزكى عبدالقادر.. وغيرهم..

لقد اختلف مع طه حسين وتوفيق الحكيم، ولم يتردد فى مهاجمتهما فى السبعينات إبان إثارة قضية عروبة مصر، لكنه ظل يتحدث عنهما باحترام شديد، واختلف مع العقاد - كما سنرى - وكان حاداً عنيفاً معه، بقدر حدة هذا الأخير وعنفه، لكن ذلك لم يمنعه فى مواضيع أخرى من إظهار تقديره له، غير أن السنهورى كان أكثر ما نال تقدير أحمد بهاء الدين، وكثيراً ما تحدث عنه بإجلال شديد، يقول عنه بعد الإشادة بكتبه وفضله:

«إن هذا الرجل قد (تشرب) روح القانون، حتى عقله لا يتحدث ويعمل فى الكبيرة والصغيرة إلا وقد نهل من هذا المنبع .. (و) .. أى حكاية يأتى ذكرها، لا تلبث إذا علق عليها أن تجدها وكأنها كانت كومة من الأشياء، وقد انتظمت فجأة ووضعت كل جزئية فى

مكانها بسحر ساحر. (شرعية ص٢٥).

ويدهي هنا أن السنهوري كان أقرب إليه بحكم تقارب الطبيعتين فكلاهما يقترب من فكرة الإصلاح، وكلاهما يحب التغيير الهادئ الرزين.

وتلح علينا دائماً في معرض الإشارة إلى تكوينه أنه كان شديد الاعتدال، هادئ التكوين، ومن هنا أيضاً، كان قد ائتلف مع زكي عبدالقادر وعمل معه فترة طويلة لتقارب المشارب والاتجاهات.

وفي هذا لا نستطيع المرور على جيل آخر من علماء الدين اختلف مع بعضهم، غير أن تأثيرهم فيه كان أكبر من أن ينكر، من أمثال أساتذته في كلية الحقوق في الأربعينات: الشيخ عبدالوهاب خلاف والشيخ على الخفيف، ثم الشيخ محمد أبو زهرة.. وهو ما سيبدو في الحقبة التالية.

ج - روح القانون

ولابد من تخصيص حيز للتمهل عند القانون لعمق التأثر به، ومن ذلك أنه حين احتفلت جامعة القاهرة بمرور مائة سنة على إنشائها، يتذكر أن الآثر الذي تتركه كلية الحقوق في نفس تلميذها لا ينمحي،..

«إنني إذا كنت قد تركت العمل بالقانون إلى مهنة الكتابة والصحافة بعد حوالي خمس سنوات فقط، إلا أنني اكتشفت فجأة، أنني ما زلت أشتغل بالقانون من ناحية.. (و).. لأنني دائماً أجد نفسي متلبساً بالتفكير في أي موضوع

بطريقة (قانونية) .. أو بطريقة متأثرة بالفكر القانونى إلى حد بعيد». (ص ١٩ ، ٢٠).

وهذا التأثر بروح القانون لدرجة العشق يعود إلى تكوينه الآخر المرتبط بوعى المثقف، فهو يرى أن قضية القانون هى (الحق والواجب). ويضيف:

«لا أذكر مهما حاولت التذكر أن أمرًا استبد بى منذ البداية، أكثر من تلك القضية: الحق والواجب، الظلم والعدل. وبالتالى الإدارة فى كل هذا وهى القانون». (٢١).

وهو بعد أن يفسر أنه لم يستطع أن يمارس القانون داخل المحاكم لتكوينه «الانطوائى)، يرى أنه حين قفز من زورق المحاماة إلى زورق الصحافة، والكتابة، إنما كان يوالي «البحث عن الحق والواجب والقانون بمعانيها الأوسع.(٢٢).

إنه يرى أن تأثير القانون عليه فاق أى تأثير آخر.

فقد تعلم طريقة خاصة في التفكير، ومن يجوب الفكر والأداب يجريه، وقد ربطه التفكير القانونى بأرض واقعية معينة إلى آخر ما يصف به هذا المؤثر الهام فى كيانه.

د – فكرة التنوير

ربما كانت فكرة التنوير لديه أكثر ما تميزه عن جيله، وهى وإن كانت

سمة من سمات الجيل السابق عليه، فإنها أصبحت أكثر أهمية في النصف الثاني من القرن العشرين لتعاظم المد السلفي، واختلاط المفاهيم.

كانت فكرة التنوير لديه تتمشى مع احتياجات المرحلة، فيهتم بالتقدم، ويشدد على العقل، ويناظر الحكماء الجدد من التيار السلفي بشجاعة، وقد كان مدركاً أن القرن الثامن عشر في أوروبا أكثر القرون تنويراً وإن كان يجب أن نعيش في قرننا العربي العشرين - كما سنفصل فيما بعد - ونحن نستعير العديد من الأفكار العصرية، ومن هنا تشرب كثيراً من أفكار المتنورين الغربيين: عقلانية لوك، قوانين روسو، حرية فولتير.. وما إلى ذلك.

لقد تكون أحمد بهاء الدين أقرب إلى هذه الصفوة العلمية المتنوِّرة التي نشأت في العالم عقب الحرب العالمية الثانية، والتي كانت ثائرة على كل التقاليد والجمود مهما تكن هذه الصفات، وهي صفوة تقترب إلى حد بعيد من مصطلح الفن الطليعي Avant - Garde بما تعنيه من نزعة حادة للتغيير (*).

ويبدو هذا منعكساً في أسلوب التعبير سواء في الأعداد الهائلة من الكتب التي لخصها وقدمها للقارئ بقدر كبير من التمرد، أو بعرضه لعديد من المسرحيات، بل والأفلام السينمائية بنفس المنهج، بل يبدو ذلك أكثر وضوحاً في تكوينه المشبع بالفن التشكيلي والرسم وحسه الفائق بفن الديكور

(*) Confronce International Socialogical association, Canda1982.

والأثاث، وانتقائه للأثاث القديم (محضر نقاش مع زوجته وزملائه لسنوات طويلة في عديد من المؤسسات الصحفية كالفنان حلمى التونى والكاتب مصطفى نبيل).

ومراجعة اهتمامات أحمد بهاء الدين ومؤثراته الأولى ،يرينا أنه كان دائم ارتياد المعارض الفنية.. فيذهب من آن لآخر لمناطق مجهولة متخصصة في (الأرابيسك) العربى القديم - حى العطارين بالإسكندرية. (مجلة نصف الدنيا ٢٥ فبراير ١٩٩٠)، يختار أغلفة المجلات التى يشرف عليها بنفسه، وبلمسة فنية بارعة، يكتب في العمران والموضة والإعلانات.. وما إلى ذلك من المؤثرات التنويرية الخالصة لديه..

وبدهى أن هذا كله في «الإبداع» الذى يتميز به «المفكر» حين يمارس الكتابة، وهو ما نتمهل عنده أكثر..

ثالثاً

الخصائص المميزة

«.. هل هم يفضلون تسليم البلد..؟..»
(أحمد بهاء الدين)

تمهيد:

الإبداع هنا، هو الخلق الفنى، وينصـرف بمجـاله إلى الأجناس الأدبيـة والفنية من شعر ورواية وقصة وتصوير وفن تشكيلى.. وما إلى ذلك.

والفكر، هو، التـفكيـر التـقـريرى Convergent Thining ، وينصــرف بمجاله إلى النشاط الفكرى الخالص من تفكير تجريبى، وعلوم طبيعية أو رياضية أو بحث علمى.. وما إلى ذلك.

ومن الطبيعى أن ينتمى كاتب مثل أحمد بهاء الدين إلى جانب الفكر، حيث يمتلك نشاطاً فكرياً، استدلالياً.

غيـر أن التأمل الدقيق لخصائص الفكر لديه، على مدى نصف قرن، يشير إلى أنه ينتمى إلى الجانب الفكرى بقدر ما ينتمى إلى الجانب الإبداعى رغم تحدد الشكل الذى يكتبه، إذ أن كتاباته لا تخلو من شرارة إبداعية تسهم فى تحديد أفكاره، وتحدد المجال النفسى لديه، وترسم – أكثر – خصائص تكوينه الفكرى.

هذا يعنى أنه يمتلك خصائص الإبداع الفكرى الذى يجمع بين الإثنتين: الحدس والاستدلال، ففى حين يجمح مع المتخيل، نراه يركن إلى العقل، بما يمكن أن نقول معه أنه يميل إلى معالجة موضوعه بقدر كبير من

العناصر التى يستطيع أن يصيغها فى (صيغة) واحدة.

وتمدنا نتائج البحث العلمى فى مجال السلوك النفسى بما يمكن أن يسهم فى الاقتراب من هذه (الصيغة) والتعرف عليها، ذلك أن الإبداع لا يقتصر على الخيال والحدس وحسب، وإنما - أيضاً - يصل إلى البحث العلمى المجرد، بل إن الإبداع عند المفكر أو الباحث العلمى «لا يقل أهمية ولا خطورة عن الإبداع فى مجال البحث العلمى تفوق خطورته كل ما يمكن أن نتصوره من أهمية.». وهو ما يقترب بنا أكثر من طبيعة هذا الإبداع.

(١)

وقبل أن نحاول تفسير هذا النشاط المميز من الإبداع، ثمة ملاحظة هامة لابد من الإشارة إليها، يقدمها لنا السلوك الإبداعى، وهى ترتبط بالنشاط البيولوجى، وهى تتلخص فى أن طبيعة التفكير الإنسانى فى المخ البشرى تشير فى مجملها «إلى وجود نوعين من هذا النشاط، أحدهما يختص به الجانب الأيمن من المخ، والآخر يختص به الجانب الأيسر.. ونشاط الجانب الأيمن من المخ هو الذى يطلق شرارة الإبداع لأنه هو الجانب الذى يعمل بطريقة شمولية معتمداً على الحدس والخيال والصور الحسية، على حين يعمل الجانب الأيسر بطريقة منطقية استدلالية تتابعية.» (مجلة دراسات نفسية، القاهرة، ١/١/٩١، دراسة د. مصرى وعبدالله هاشم، ص ٩٧).

وهذا يعنى فى دراسة السلوك الإبداعى أن التحليل العلمى يظل للجانب الأيمن من المخ فى نشاطه المحدد، وفى نسق مفتوح، فى حين أن للجانب

الأيسر نشاطه المحدد فى نسق مغلق.

وفى حين يشغل الأول بالخيال التهويمى ولا يلتزم بالواقع، ولا يتوقف عند بناء منطقى أو نسق رياضى، فإن الآخر - الأيسر - يشغل بالقضايا المنطقية والرياضية، أو التى تصف الواقع وصفاً دقيقاً دون إدخال أى متغيرات خيالية، وقد توصل علماء النفس الإبداعى إلى عديد من النتائج التى تؤكد ثبات هذا المفهوم.

وهو ما يصل بنا إلى الملاحظة المحورية هنا، وهى أن أحمد بهاء الدين وإن امتلك جانبى المتخيل والفكر فى جانبى المخ، فإن الجانب الأيسر - كما سنرى - يكون لديه أكثر نشاطاً و أبعد أثراً.

وسوف ينصب جهدنا فى هذا على سمة التفكير التى تميزه عن سواه، وعديداً من الخصائص المميزة له، وما يستحوذ عليه فى هذا الصدد من قدرات، على أن تكون المقاييس التى نعتمد عليها مستمدة مما يلى:

أ - أعماله ومقالاته المتوالية.

ب - حواراته وخواطره.

جـ - ملاحظات خاصة لقريبى منه.

د - مقابلات مع زوجته وزملائه.

وقد يكون من المهم قبل أن نصل إلى الخصائص المميزة لديه أن نشير إلى ما يسمى فى هذا الخصوص (بالأساس النفسى الفعال) بما يقترب بنا أكثر من هذه الخصائص.

(٢)

لا يمكن أن يكون إنتاج أحمد بهاء الدين منفصلاً عن الخصائص التي أسهمت في تكوينه. ومن هنا، فإن التعرف على طبيعة هذه الخصائص يحيلنا إلى ما يطلق عليه (بالأساس النفسي) كنقطة ارتكاز لابد من الاقتراب منها قبل كل شئ.

والأساس النفسي هي «الحالة النفسية التي تتكون لدى الإنسان على مدى حياته الطويلة وتكون مسئولة عن تشكيل كل تصرفاته ودفعها في طريق ذي مدى يتناسب مع فاعلية هذا الأساس، بل إن طبيعة العقل الإنساني نفسه، وما ينتج عن هذا العقل من آثار يجيئ مشبعاً بخصائص الأساس النفسي الفعال وحاملاً بصماته.. «مصري حنورة، سيكولوجية التذوق الفني، دار المعارف ٨٥، ص ٢٨).

وهو ما يقترب بنا من عالم أحمد بهاء الدين..

فالجانب الذهني يشير لديه إلى قدرات عقلية وذهنية عالية، مما يقترب فيها من خصائص النصف الأيسر من المخ ويعبر عنه بما يتميز به من استدلال وتجريد وتحليل نجدها في أعماله الأولى خاصة.

ففي كتابه: «النقطة الرابعة» - ١٩٥١ - نجده حريصاً على رسم «سيمترية» دقيق لهذا المشروع الأمريكي، وكأنه يصنع مشروعاً مطابقاً له ومغايراً معه في آن واحد بالشكل الذي يريدنا أن نفهمه به، ولا يلبث أن يوالي أفكاره المرتبة ليدلل على فساده، وقدر الأطماع الكثيرة التي تميز عصر هذا الاستعمار الجديد، وذلك تحت عنوان (البرنامج على حقيقته)،

ولا يلبث في نهاية الكتاب أن يستعيد ما فصله ويعيد بلورته مجملاً ما أراده منذ البداية في فصل محدد سماه (... بالأخير) ، منتهياً بسؤال يحمل إجابته لهؤلاء المسؤولين فينا والذين يدعون للاستعمار الأمريكي بين ظهرانينا (.. هل هم يفضلون تسليم البلد..؟) (النقطة الرابعة ص ٩٢)

أما الجانب الوجداني، بما يلعبه في نسق مفتوح يسهل به التعامل مع خصائص انفعالية، وميول خاصة به لا يمكن أن نفصلها عن الجانب السابق له، وإن كنا نستطيع الاقتراب منها في هذا السياق من التوتر الزاحف المستمر، وهو ما نجده – على سبيل المثال – في مقالته (خطاب إلى المرأة المجهولة) الذى يبدو فيه متأرجحاً بين الجانبين: الحدس والاستدلال، وإن بدا الجانب الوجداني مسيطراً عليه وهو يكتب لهذه (القارئة) التي لا تني تحرك البحيرة الجامدة في أعماقه، وقد لا يخلو من مغزى أن يبدأ رسالته بكلمة (يا آنستي) ويعيد نشرها بعد الصحيفة أو المجلة في كتابين نشرا له (مبادئ وأشخاص وأفكار معاصرة) ..

كذلك يبدو هذا الجانب بولعه الشديد بالجوانب الدافئة في المعارض التشكيلية التي كان يحرص على ارتيادها، ويسر لأحد زملائه الفنانين بأنه درس الفن لكنه يقف فيه عند المرحلة الانطباعية بوجه خاص (حلمي التوني، لقاء شخصي)، ولا يتردد أثناء إخراج المجلة التي يشرف عليها عن اختيار الألوان التي تشير إلى أثر هذا الجانب وأهميته لديه.

أما الجانب الجمالي، فهو يبدو في اختياراته الخاصة، فمن حوله كان يشير إلى استيلاء هواية ترتيب الصور وتنسيقها في الفضاء الجدراي، كما

كان يحسن اختيار اسكتشات الفنانين ويحتفظ بالكثير منها، كذلك، كان يحرص على الذهاب إلى المناطق القديمة التى تعرف بأشكال الأرابيسك العربى وتطريزاته البديعة (حلمى التونى، عبدالغنى أبو العينين، لقاءان).

وهذا الجانب الجمالى هو الذى يقرب بينه وبين مدرسة من الفنانين الذين ظهروا فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وعرفوا بأصحاب الفن الطليعى، حيث يعبر الفنان بألوانه المميزة عما كان يحس به من غربة فى المجتمع حينئذ.

أما الجانب الاجتماعى، فنلحظ الخبرة المميزة له فى المجال الاجتماعى، سواء بانتمائه إلى الطبقة الوسطى ممن كان يطلق على موظفيها (بالمستورين)، ثم انغماسه بشكل مستمر فى التيارات الاجتماعية التى ظهرت فى نهاية الأربعينيات، والمد الاشتراكى فى الخمسينيات، وكثيراً ما كان يردد أن أهم القضايا لديه كانت القضية الاجتماعية.

وقد أكد أحد تلاميذه أن العلائق الاجتماعية، كانت تستحوذ على مساحة شاسعة فى فكره، حتى أنه كان دائم التعرف على زملائه، دائم الربط بين أسرته وعديد من الزملاء أو الأصدقاء اجتماعيا.

وعلى ذلك، فإن جوانب الأساس النفسى تأتى على اعتبار أنها بطانة للعمل الإبداعى، تترك بصماتها على العمل نفسه، بحيث يجئ متماسكاً. - كما تؤكد خبرات علم النفس - بما يضفى على خصائص الكاتب سمات (بهائية) خاصة به.

(٣)

وإذن، سوف نلاحظ أن خصائص أسلوب أحمد بهاء الذين يغلب عليها جانبى المخ، الأيمن والأيسر، الحدس والاستدلال، أيضاً، تم نسج خيوط الأساس النفسى فى نسيج خاص به..

وقد تمكن من صياغة ذلك كله فى أسلوب واحد بما يمكن القول معه أنه نجح فى الوصول (بخطابه) إلى المتلقى..

وهوما نحاول تفصيله فى فكر أحمد بهاء الدين؟

تتعدد الخصائص المميزة له حتى ليبدو أنه من الصعب الجمع بينهما، ومع ذلك، سوف نحاول أن نحدد أهمها على النحو التالى:

المغامرة الفكرية

تميز أحمد بهاء الدين بأنه مفكر مغامر، أى لا يتردد فى طرح قضية غير مألوفة، وعلى قدر كبير من الجرأة على الآخرين دون تحسب للنتائج، وهو يفعل ذلك سواء فى مواجهة علماء الدين التقليديين أو الجمهور الواسع..

ومن ذلك، حملته العنيفة على الفاسى.

وشمس الدين الفاسى هو المواطن السعودى الجنسية والمغربى الأصل، الذى جاء إلى القاهرة على اعتبار أنه رئيس المجلس العالمى للصوفية، بينما لا تزيد مكانته عن

درويش جاهل لا يملك غير أكوام من المال.

لقد كتب يهاجم هذا الفاسي هجوماً عنيفاً، ويهاجم شرطة المطار المصرى التى سمحت له بالدخول والخروج من وإلى البلاد، ويهاجم وزير الأوقاف المصرى.. فالأحداث المرتبطة باسم الناس وأمواله وأنباؤه تملأ الصحف، وثمن آثارها ممتدة من لوس أنجلوس إلى فلوريدا إلى لندن إلى سيريلانكا والآن إلى القاهرة. «يومية مخطوطة لم تنشر»، وبعد ذلك كله يتقدم لينشر فى جريدة الأهرام فى (يومياته) ويكون أن ترفض الأهرام النشر، فيغضب، وتلطب منه الجريدة (يومية) أخرى، فيرفض أن يكتب إلا بعد أن ينشر ما كتب، ويلهج أنصار الشيخ، وبعض المستفيدين بلوم الكاتب والهجوم عليه، ويعتصم لفترة فى منزله حتى يتم تطييب خاطره.

أيضاً، فإنه كان أول من طلع على الناس فى منتصف الستينات بكتاب جديد يشير فيه إلى أن الصراع بين العرب وإسرائيل إنما هو صراع حضارى فى المقام الأول، وليس عسكرياً، كما كان شائعاً. ولأن هذا الكلام لا يتردد لأول مرة، فقد كان وقتها غريباً على الآذان العربية، وقد اعتبر البعض – كما يقول – إن هذا الكلام ينطوى على دعوة للمهادنة ولو لفترة من الوقت.. (و).. ذهل البعض لأنهم يكتشفون حقيقة جديدة رغم أنها محيطة بهم من كل جانب، ورفضها البعض (محاوراتى، ص ١٥٣)، ويذكر بهاء الدين هنا للتدليل على هذه المغامرة كان رفض أنور السادات بنفسه، رغم أن السادات عاد بعد ذلك بقرابة عشر سنوات ليردد مثل هذا الكلام فى زيارته للقدس.

ونحن لا نقارن بين الموقفين هنا، فلا علاقة بينهما، وإنما نشير إلى جسارة الكاتب فى طرح فكرة كان البعض يعتبرها موقفاً مضاداً للتوجه العربى فى ذلك الوقت، وقد كان عليه أن يعيد قول ذلك بعدها بسنتين على وجه التقريب، فعقب هزيمة ٦٧ بعدة أسابيع كان هو الصوت الذى ارتفع ليتحدث فى أعلام الدولة الرسمى - وقد كان مسئولاً عن مجلة «المصور» - عن (الفجوة الحضارية) بيننا وبين إسرائيل، بما يحمل ذلك من جرأة فكرية واستشراف لما سوف يأتى فيما بعد.

شجاعة التعبير

وهى اللمسة الثانية التى لا يمكن أن نخطئها فى أكثر من موقف. ومن ذلك، أنه لم يتردد فى السنوات الأولى من ثورة ١٩٥٢ من أن يتخذ موقفاً شديد الشجاعة غير متسق مع توجهات الدولة فى فترتها الأولى، بل إن شجاعته وصلت مداها عقب هزيمة ٦٧، وقد كان نقيباً للصحفيين المصريين، إذ أنه إبان مظاهرات الطلبة، والاضطرابات الشديدة، التى شهدتها البلاد إثر التحدث عن نكسة (لا هزيمة)، أصدر بياناً على مسئوليته الخاصة، وبحضور أعضاء مجلس النقابة، تحدث فيه عن مبادرات يكفى أن نشير منها إلى الآتى:

«أولاً: الإسراع فى الحساب من كل المسؤوليات الكبرى، وتقييم هذا الحساب حتى يشمل كافة القطاعات والمؤسسات فى البلاد.

ثانياً : إعادة التنظيم السياسى واستكماله.

ثالثاً : توسيع قاعدة الديموقراطية والمشاركة فى اتخاذ القرارات داخل التنظيم السياسى.

رابعاً : الإسراع بإصدار القوانين المنظمة للحريات العامة والتى تكفل الضمانات الضرورية.

خامساً : إجراء الانتخابات للجان النقابية ومجالس النقابة التى لم تنتخب بعد.

سادساً : ترتيب النتائج التى يجب أن تترتب على وجود عدو يحتل جزءاً من أرض البلاد ، واستمرار حالة الحشد فى مجالات الاستعداد النفسى والمادى والاقتصادى، على أن تتحمل العبء كل الفئات التى يجب أن تتحمله».

(بيان نقابة الصحفيين، محضر اجتماع ١٩٦٨/٢/٢٨. محضر اجتماع غير منشور، انظر الملاحق) .

وقد طالب هذا البيان بجملة أمور كانت تعتبر فى عرضها على القيادة السياسية فى مثل هذا الظروف تهوراً شديداً. منها المطالبة برفع الرقابة على الصحف، وتشير- بما لا يدع مجالاً لشك - إلى الجماهير على أنها قد خرجت فى مظاهرات من أجل إزالة الفساد والتغيير الملح..وقد كان لهذا البيان أثر سيء لدى جمال عبدالناصر شخصياً، إذ كانت الظروف تحتم - من وجهة نظره - الصمت قليلاً حتى يمكن الخلاص من بعض العناصر التى تسعى إلى الفوضى العامة.

وهذه شجاعة فى التعبير عن الرأى فى أكبر أزمات حياتنا السياسية المعاصرة لا يمتلكها الكثير.

ومن ذلك، أيضاً، أنه عقب صدور قانون الانفتاح عام ٧٤، ورغم أنه كان أحد أهم المقربين من الرئيس السادات، لاحظ سوء تطبيق هذا القانون. والآثار التى سوف يلحق بها بالبلاد، فلم يتردد، وقد كان مسئولاً عن جريدة الأهرام، عن أن يكتب فى الصحفة الأولى مهاجماً هذا القانون الذى صدر بقرار جمهورى وبمباركة السادات نفسه، كان عنوان المقالة: «الانفتاح.. ليس سداح مداح» (١٢ يوليو ١٩٧٤)، فأثارت ضجة كبرى ضد النظام ومن رئيس الوزراء نفسه د. حجازى، الذى لحق به غضب شديد (محاوراتى مع السادات، ص ١٩٧٩).

وهو ما استتبع – بالتالى – غضب الرئيس السادات، الذى كان يعرف كيف يخفى غضبه أكثر من الآخرين، غير أنه من المؤكد أن هذا المقال كان من أهم الأسباب التى عجلت بغضب السادات منه فمنعه من الكتابة، ورفض كل محاولات من حوله لمقابلة أحمد بهاء الدين فيما بعد.

نستطيع أن نشير، فى نفس السياق، إلى جرأته الفكرية ضد من تحدث عن ليلة القدر بطريقة ميثولوجية تبتعد عن العقل المجرد، فراح يصف صحفى ومسئول مثل أحمد زين (بالأخبار) بأنه (الصحفى الدجال) الذى ضبط متلبساً بالتزويز (أهرام ١٩٨٢/٣/٢)، بل لم يتردد فى أن يعارض الشيخ الشعراوى بما له من رصيد هائل لدى الجماهير وسيطرة طاغية بحكم تفسيره البيانى وطريقته الخلابة فى السيطرة على أفئدة البسطاء، إذ راح

يناصبه العداء لأنه - أي الشعراوى - استنكر إدخال الكهرباء فى الريف المصرى، لأنه يسئ إلى الفلاح ويقلل من إنتاجيته .. إلى آخره، كذلك راح يهاجمه بعنف مرة أخرى لأنه استنكر الاستفادة بأعضاء الجسد طبياً فى العمليات الجراحية (فى ٣١/٣/ - ١/٤/ ١٩٨٩). وهذه الشجاعة التى تصل إلى حد التهور أحياناً لمن تنقصه فى كثير من المواقف الأخرى.

وهما ما يقترب بنا من سمة وثيقة الصلة بها.

روح المقاتلة

فإلى جانب تهوره أو شجاعته (ولا فارق بينهما عنده)، كنا لا نخطئ صلابة الرأى، وروح المقاتلة إلى مدى بعيد.

وقد كان فى ذلك يوالى تحديه دون أن يفقد - مع مرور الزمن - الشجاعة التى تصل إلى حد القتال، ويرفض - فى المقابل - المهادنة فقط.

وربما كانت الأمثلة التى تشير إلى ذلك تقع فى دائرة رفض الخوف والخرافة، وإعلاء شأن العقل و«الاجتهاد» البشرى، أن أن موقفه «التنويرى» أكثر ما يتميز فى هذا الصدد.

وحسبنا أن نذكر - على سبيل المثال - موقفه من حرية المرأة واستقلالها.. ودفاعه الشديد عنها، ورفضه العنيف لأى رأى يرفض هذا الموقف، وربما كان أبلغ مثال على ذلك موقفه من عباس العقاد،

واصطدامه به فى عنف شديد، لقد وصف العقاد فى سبيل ذلك بأنه «رهيب.. مخيف» و«مكارثى»، بل وصفه وصفاً لا يجرؤ أحد على وصفه به حين قال عن أفكاره بأنها (هيستيريا) .. وما إلى ذلك من الألفاظ رغم معرفته عنه أنه لن يتردد فى الرد عليه بعنف.

يقول بهاء الدين:

«الذى يعنى مثلى هنا.. هو تلك الهيستريا التى استولت على العقاد، فأصبح يرى أن كل من يخالفه فى الرأى أو أن كل من يقذف محرابه بحصاه (شيوعى) .. وإن كل فكرة يرفضها، أو يعجز الإيمان بها .. شيوعية.

هذه الهيستريا تذكرنى أحياناً بوزير حربية أمريكا السابق. جيمس فورستال، الذى فقد عقله، ونقل إلى مستشفى المجاذيب، فكان كلما رأى مخلوقاً أسرع يختبئ تحت السرير وهو يصيح: (الجيش الأحمر) .. فالعقاد لا يكاد يتعرض له أحد بالمناقشة حتى يسرع بالاختباء حول ستار من السباب ويصيح: الشيوعيين!...» (مبادئ، ص ١٠٤).

وإلى مثل هذا يندفع أحمد بهاء الدين ليهاجم الشيخ محمد أبو زهرة، وقد كان يتمتع بنفوذ دينى كبير، كما كان من بين أساتذته في كلية الحقوق حين كان يدرس، ومع ذلك، فحينما تعرض لرأى الشيخ فيه وفى المرأة، راح يهاجمه بطريقة وصلت في العنف الشديد إلى أقصاها، إنه يكتب عنوان مقالته: «لا يا شيخ ؟؟» ثم يمعن فى العنف والسخرية من الشيخ مع

عناوينه الفرعية:

«التخطيط كفر.. لأنه تدخل فى إرادة الله / النشرة الجوية حرام.. لأنها تنجيم ورجم بالغيب / كل امرأة مستعدة لبيع نفسها لولا مراقبة الرجل».

ثم يصل فى تطاوله إلى درجة بعيدة، فهو يرى الشيخ من أولئك (الناس) الذين يريدون أن يحتكروا تفسير الحياة، الذين يحسبون أن الآيات القرآنية عجينة فى أيديهم، يكيفونها كيفما تشاء لهم عقولهم.. المتحجرة فى أغلب الأحيان..

ثم يصل فى ذلك إلى درجة أبعد من أن احترامه للشيخ لا يعود إلى علمه أو موقفه، و إنما إلى سنه فقط، وإنه من أولئك الذين عاشوا حياتهم أسرى بين جدران كتب معينة محدودة، ثم يهاجمه بعنف حينما يقول:

«ألا تلاحظون معى أن هؤلاء المشايخ لا يكاد يعنيهم شئ فى الوجود إلا المرأة؟

ألا تلاحظون أنهم أكثر الناس تفكيرًا فى المرأة؟

أليس هذا غريبًا حقًا؟

ألا يحتاج هذا إلى محلل نفسى.. أكثر ما يحتاج إلى جدل عقلى؟

الأغرب من هذا أن ما يعنى هؤلاء المشايخ من المرأة ليس الإنسانة،ولكن (العورة) ، المرأة فى عقلهم الباطنى مخلوقة حقيرة مستعدة أن تبيع عرضها لأول عابر سبيل، إذا غفل

الرجل لحظة واحدة عن حراستها!!..

المرأة فى مفهومهم لا تصلح إلا لشئ واحد، هو أن تسلم نفسها للرجال..

...(و) ....

الجنس..والجنس وحده يدوى فى تفكيرهم دائماً وباستمرار..

تفكير مكبوت محصور منحرف...، (أخبار اليوم ١٩/٨/٦١).

ويظل بهاء الدين ينازل الشيخ بشراسة فيتهمه معرضاً له فى فترة المد الاشتراكى بأنه:

«لا يطيق حكاية الطبقة الواحدة.. وإن بلادنا فى عيون الشيخ هى التى يجب أن تعود إلى الوراء، ولذلك فهو يفضح نفسه، كما أنه يمجد الفقر ويضرب أمثلة بهذا الشيخ الى يرى أن النشرة الجوية حرام. ويظل يوجه سلاح النقد والتشهير».

وينهى مقالته العنيفة بهذه الجملة:

«إن الذين يعملون على رقى بلادهم. وتحرير مواطنيهم، وتطوير مجتمعهم، أعرف بروح دينهم من محترفى التلاعب بالنصوص وتلبيسها معانى

مزورة تلائم عقدهم النفسية لا أكثر ولا أقل!» .

وهى الروح التى سرت دائماً فى مواقفه ومعاركه الفكرية ..

الاستعداد للتنبؤ

كان حسه المرهف فى استشراف المستقبل ما لا يمكن إنكاره .

فإلى جانب عديد من المواقف الواعية كالتمهل عند (التحدى الحضارى) أو سقوط الأيديولوجيات .. وما إلى ذلك، فإن كتاباته فى أول الستينيات على أزمة الكويت وغزو العراق لها يثير كثيراً من التنبه إلى الموقف الذى اتخذه أحمذ بهاء الدين، وهو موقف يحمل وعياً استراتيجياً لا يمكنه إغفاله .

إن التمهل عند أزمة الكويت عام ٦١ وتهديدات عبد الكريم قاسم حملت (نبوءة) ما سوف يحدث – فيما بعد – فى أزمة الخليج ٩١ بما يقترب من التطابق فى الأحداث والنتائج والدلالات .

ومراجعة كتاباته فى هذه افترة من بداية عام ٦١ ومنتصفها يروعنا حجم التفصيلات وقابليتها للتكرار فى أية فترة تالية .

لقد رأى بهاء الدين السيناريو الذى بدأه قاسم فى الستينات، ومثيله فى التسعينات، ووجد الشبه فى الملابسات والمقدمات، ومن ثم انتهى إلى التطابق فى النتائج . فى حين أنه توقف عن الكتابة تماماً قبل الغزو العراقى الأخير بعدة أشهر بحكم مرضه .

وقد كانت درجة التحليل العلمى تدفع بنا إلى اجتزاء مساحات شاسعة منها بهدف التأكيد على (التنبؤ) لما حدث فيما بعد وإن كان هدفه المعلن هو التوقف عن الأزمة الأولى بغير التطرق لغيرها.

ويغرينا هذا القدر من الوعى والاستشراف باجتزاء مقاطع كبيرة من كتاباته الأولى بدون تعليق لنقرأها، وكأننا نقرأ فى تفصيلات الأزمة الأولى الدور «الأمريكى» فى الثانية، مع وضع فى الاعتبار أن الأمريكيين حين جاءوا فى المرة الثانية كان فى ركابهم حلفاؤهم وخاصة (الانجليز)، نقرأ بهاء فى الأزمة الأولى، يقول:

«الأمر لا يخرج عن احتمالين..

الأمر الأول أن يكون غلطة سياسية كبرى ونوعاً من عدم الحذق فى تقدير أثر كل حركة. وهذا على أى حال لا يقلل من مسؤلية الكارثة.

والأمر الآخر هو أن يكون للبريطانيين دور إيجابى فى دفع قاسم إلى اختيار هذا الأسلوب بالذات (هل نذكر جلاسبى وصدام ؟).

وهى كلمة يجب ألا نطلقها بسهولة.

وأنا شخصياً لست ممن يحبون إذا احتاروا فى تفسير أى أمر أن يقولوا إن البريطانيين مسؤولون.. وانتهى الأمر.

ولكن احتمال قيام البريطانيين هنا بدور إيجابى فى دفع قاسم احتمال قائم بشدة، وإن المكاسب الضخمة التى

كسبها البريطانيون بهذه الأزمة فى سهولة لا حد لها، لهى إغـراء ضـخم بالبـحث عن إصبع البـريطانيين وراء هذه الأزمة.

ولكن.. كيف ؟؟

لا يذهب أن يكون البريطانيون قد ذهبوا إلى قاسم وقالوا له.. اصنع هذه الأزمة لكى نرسل قواتنا إلى الكويت..

ولكن هناك أساليب أخرى فى الوصول إلى نفس النتيجة.

فبالرغم من كل ما حدث فى العراق إلا أنه من المعروف والمؤكد أن أقوى جهاز بريطانى للمخابرات فى المنطقة كلها ما زال موجوداً فى العراق إلى الآن.. وأن بريطانيا ما زالت تتحكم فى شبكة ضخمة من العملاء هناك، وبواسطة هؤلاء العملاء المندسين فى أجهزة كبيرة، ربما تكون أقرب إلى اللواء قاسم مما يتصور،

تستطيع بريطانيا أن (تحدث) تأثيرات معينة وأن تحرك تيارات كثيرة، تستطيع أن تلقى الفكرة وأن تقدم ما يعززها من تقارير صحيحة أو زائفة.

ومن الممكن جداً أن تكون فكرة (غزو الكويت) قد ولدت فى بغداد بهذه الطريقة..

وأن تكون قد عززت تقارير أو تأكيدات مضللة من رد فعل البريطانيين إلى آخره».

ونستطيع أن نلاحظ فى ذلك الوقت – كما لاحظ بهاء الدين – أن كثيراً

من الصحف الأوروبية نفسها أكدت أن الاستعداد البريطانى لإرسال القوات إلى الكويت بدأ قبل إعلان قاسم بقليل.

وكما أنه يمكن أن يكون للبريطانيين دور فى ذلك. كذلك، من الممكن ومن الأسهل أن نتصور تدخلهم لدفع نغمة الدعاية العراقية إلى الحدود الحمقاء التى بلغتها.. أى لاتخاذ أسلوب حرب الأعصاب المثيرة، بدلاً من الأسلوب السياسى المتزن..

والغرض، هو فرصة سانحة لكى يبعثوا بقواتهم المسلحة إلى الكويت

(لقد ذكرت التقارير، بما فيها تقارير أجهزة المخابرات الأمريكية وأجهزة الكونجرس بمجلسه إبان أزمة الخليج ٩١ / ٩٢ هذا الدور لأمريكا)

ولا يتوقف الأمر عند بهاء الدين فى كيفية بدء الإنجليز خداع حاكم العراق فحسب، وإنما وصلت البدايات المدبرة إلى غاياتها، حين هبطت القوات الإنجليزية إلى الكويت أو (غزو الكويت)، فتحددت الأهداف الاستعمارية فى عصر ما بعد الاستعمار. فى عدة أهداف يجمل بعضها الكاتب فيما يلى:

بالنسبة للأهداف القريبة المباشرة نجد أن بريطانيا قد تحقق لها من الأهداف، ما يجب أن تقر به عيناً، وتسعد.

فهى قد حفرت فى نفوس الكويتيين - حكومة وشعباً - حفرة عميقة من الشك والارتياب فى جيرانهم. وأقنعتهم إقناعاً عملياً بأن استقلالهم - وثراؤهم - مهددان ومحوطان بالأطماع: وإنهم محتاجون إلى علاقات أخرى

. أقوى وأوثق مع بريطانيا بوصفها القوة التى تستطيع أن تهب لنجدتهم بسرعة وبدون تحفظات.

وهى قد ألقت نفس الشك والقلق والخوف المبهم فى نفوس كثير جداً من الفئات فى سائر الخليج العربى .. والخليج العربى فى قضايا كثيرة زاحفة، تتلمس طريقها إلى حلول جديدة بدلاً من وضعها الراهن تحت الاستعمار (السابق)».

وكما حدد بهاء الدين المقدمات، ووصل إلى النتائج النهائية (الأهداف)، فإنه انتهى إلى ضرورة أن تعود القوات الإنجليزية من حيث جاءت وتترك الكويت، ولكن بعد أن تكون قد حققت ما تريد، فأهدافها قد تحققت كلها، ولن يزيدها البقاء تحققاً.

إن التنبؤ بما سيحدث أو ما يسميه (الاحتمالات) كان يشى بقدرة الكاتب المذهلة على ما سوف يأت من أحداث، ورغم وجود العوامل المختلفة كتأثير الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت - على سبيل المثال - غير أن التحليل الأخير يشيد بالقدرة التى توصل بها إلى ما حدث وما (سوف) يحدث.

وهو ما يقترب منه أكثر فى مقالته التالية ..

إنه يتحدث عن المشيخات والسلطنات الجديدة فى الخليج، ويتحدث عن الخليج على أنه «أرض الصراع الجديد!!»، متقدماً خطوات أخرى حين يتحدث عن الدولة الأجنبية الأخرى التى لها مصالح كبيرة فى المنطقة، وهى تمهد فى فترة الستينات لتكون صديقة لعديد من أمراء هذه

المشيخات، وهذه الدولة هى التى يسميها «يونيتد ستيت» «الولايات المتحدة الأمريكية.

وبهاء الدين لا ينسى فى كل ذلك العرض التاريخى الذى يرى فى مرآته ما يحدث فى هذه الفترة منذ بداية الستينات، ثم ما سوف يحدث فى هذه الفترة من بداية التسعينات.

كذلك لا يغفل عن ذكر أطماع إيران فى هذه الفترة المبكرة فى الخليج، حيث يسكن عرب كثيرون سوف يواجهون كثيراً من الامتحانات القاسية ،وسوف يصادفون أنواعاً كثيرة من البلبلة الفكرية والمعنوية، كما يردد.(الأخبار-١٥/٧/١٩٦١).

على أن المهم فى ذلك كله أن ما يشهده ويشهد عليه بهاء الدين لا يرتبط بأحداث سياسية استراتيجية تخلو من العقيدة العربية، وإنما يرى أن كل ذلك سوف ينعكس على مصير الوحدة العربية. يقول ضمن حقيقتين يشدد على الثانية منها (الأولى خروج البريطانيين):

- إن القومية العربية فكرة لا تقبل منطق الضم..

والقرارات التاريخية البالية.. إنما تقيد نفسها بمنطق واحد هو إرادة الشعب !

وقد أضاف أحمد بهاء الدين إلى الخبرة السياسية الخبرة الجغرافية حين رحل إلى الكويت ليتولى مسئولية مجلة العربى، وقضى هناك قرابة خمس سنوات، عرف خلالها أكثر الواقع العربى من أخطر بؤراته اشتعالاً على الإطلاق (الخليج العربى)..

وقد أخفى عن بهاء الدين - حين اشتعلت أزمة العراق الثانية - قضية غزو العراق، وما أعقبه من تفاقمات خطيرة على مصير المنطقة العرية بناء على أمر أطبائه، يقول محمد حسنين هيكل شاهداً على مشهد بهاء إبان مرضه:

«في يوم من الأيام، ورغم الحصار، بدآ أنه لمح صورة من صور الأزمة على شاشة التليفزيون وسألنى بعدها وأنا جالس معه:

- هو فيه إيه.. فيه إيه؟

وكرر تساؤلاته بإلحاح.. وفى جملة واحدة لخصت له تفاصيل ما جرى، وما يجرى ابتداء من ضم الكويت، وحتى ضرب العراق، وظل صامتاً لثوان ظننتها ساعات، ثم إذا به منفعلا يقول:

- ليه ..ليه!

ثم فوجئت بدموعه.

(من مقدمة هيكل، يوميات هذا الزمان، أحمد بهاء الدين)، مركزالأهرام للترجمة، القاهرة، ١٩٩١).

كان حسه المرهف لما سيحدث هو الذى أجرى على لسانه السؤال:

إذا كنت قد تنبهت واستشرفت المستقبل، فلماذا يحدث ما يحدث الآن؟

وهى تساؤلات لم يجد فى ظروفه تلك لها إجابة واحدة.

ولذلك علاقة أكيدة بالسمة الأخيرة فى شخصيته.

مواصلة الاتجاه

كان النشاط العقلى المستمر فى قضية واحدة واستثمار تراكماتها يمضى عبر متصل أفقى ممتد يلخص هذه السمة: مواصلة الاتجاه..

كان ذلك النشاط العقلى يتسم بالتنوع والتباين، وليس بالتوصيف والإحصاء، ومن ثم، فإن إنتاج «الخطاب» كان يتسم فى النهاية بالوعى الشديد فى تفهم ما يدور حوله واستيعابه.

إن مواصلة الاتجاه سواء على المستوى العقلى الخالص والإبداعى الخاص يمكن أن نعثر عليه فى عديد من القضايا التى تبناها، ولعل من أهم هذه القضايا، قضية عمره، ونقصد بها قضية تبنيه – مبكراً – للقضية الفلسطينية، وسوف نجد صدى اهتمامه يتسرب إلى كل كتاباته.

ولعل أهم موقف فى ذلك تمثل فى دعوته بمجلة المصور عقب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة باقتراح مؤداه ضرورة إقامة دولة فلسطينية فى الأرض التى لم تحتل بعد لتجد الحكومة الفلسطينية أرضاً تستطيع التوقف عليها والانطلاق منها لاستكمال تحرير الأرض.

وقد كان أول من تنبه مبكراً إلى «الاستعمار الجديد – الأمريكى»، ولذلك كان أول من تنبه إلى الحفاظ على ما تبقى من أرض فلسطينية.

ومن هنا، كان أول من دعا فى ذلك الوقت تحت بنط عريض (مطلوب إقامة دولة فلسطينية).

وبناء على رغبته راح يستقبل ردوداً كثيرة من عرب وفلسطينيين من

بينهم غسان كنفانى وكلوفيس مقصود وشفيق الحوت وأنيس صابغ وغيرهم كثيرين..

وجدير بالذكر أنه قد جاءه من جمال عبدالناصر حينئذ رسول يسأله من هو وراء هذه الدعوة، وأنه يتخوف من أن تكون الدعوة غير مدروسة، بما يعنى أن يقلع عنها لئلا يتهم أن الحكومة المصرية هى التى تتبنى هذا الأمر.

غير أنه لم يتراجع، ورد بأن ذلك يتم على مسئوليته الخاصة.

بل زاد على ذلك ضرورة أن تعقد هذه الدولة الفلسطينية اتحاداً فيدرالياً مع الأردن..

وربما لا نجد لمفكر أو مثقف مصرى هذا الموقف المتصل لقرابة نصف قرن من الزمان فى تبنى القضية الفلسطينية والزود عن فدائييها والدفاع عن قيادتها السياسية وزيارة الأرض الفلسطينية سراً كما هو الحال مع بهاء الدين..

يتصل بهذا السياق- لضيق الحيز هنا - موقفه من الهجرة الإسرائيلية إلى فلسطين فى السنوات الأخيرة من الثمانينات، وهى قضية تعود فى بداياتها - بالنسبة لبهاء الدين -- إلى الخمسينات - حين لاحظ موقف أمريكا المشجع للعناصر الإسرائيلية وهجرتها الاستعمارية إلى الأرض العربية، وقد امتد هذا الموقف ليصل إلى الحقبة الأخيرة قبل مرضه، فرفض الهجرة، وراح يلوم الجميع: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى والعرب... إلى آخره. وظل يوالي الدعوة لرفض الهجرة ويكتب

بياناً مسمياً الهجرة (جريمة العصر) حتى سقط مريضاً لفكرته..

ويمكن أن نشير إلى كثير من القضايا التى برهن فيها على وجود عنصر (مواصلة الاتجاه)، غير أن قضية الهجرة اليهودية لفلسطين التى ترتبط بالقضية الفلسطينية ومأساتها فى العصر الحديث.. تظل أهم هذه القضايا.

الفصل الثانى

فكر التّنوير

أولاً

التنــوير العربى

«لماذا كان بهاء الدين تنويرياً عنيفاً فى الثمانينات ؟» لأن (موجة سوداء) من الأصولية المتخلفة كادت تدهم المنطقة..»

يعد أحمد بهاء الدين أحد أهم رموز الجيل الرابع التنويرى بعد أجيال ثلاثة سابقة، بدأها رفاعة الطهطاوى، ووصل فيها طه حسين إلى الجيل الثالث بينما مثل محمد عبده وتلامذته حبة العقد فى عقد التنوير، وما كدنا نصل إلى الجيل الرابع حتى التقينا فى النصف الثانى من القرن العشرين بزكى نجيب محمود وحسين مروة ولويس مرقص ومصطفى سويف ثم أحمد بهاء الدين..

وقد كانت أهم سمات أحمد بهاء الدين، خاصة، تعرفه على أصول الفكر الغربى بالقدر الذى تعرف به على أصول التطور العربى للتاريخ والمعرفة الإنسانية، مما قرب به من صياغة فكرية ميزت خلفيته الفكرية فى تعامله مع القيم التنويرية فى عصره.

وقبل أن نتمهل أكثر عند تطور فكره التنويرى وممارساته العملية عند بهاء الذين يجب أن نسارع إلى توضيح ملاحظة هامة فى هذا الصدد.

وهى ملاحظة ترتبط بحركة التنوير فى حد ذاتها.

فمن المؤكد أن حركة التنوير عندنا كانت تغاير – في سياقها التاريخي والموضوعي – حركة التنوير في الغرب، فلم تكن حركة التنوير العربية محاكاة لمثيلتها في الغرب، ولاسياقاً موازياً في تشكيله ومعانيه لهذه الحركة هناك رغم ما يبدو من تقارب قيم التنوير وعناصرها في كل حركة، وإنما كان التطور الذي شهده التاريخ العربي مؤثراً بخصوصيته على حركة النمو السياسي والاجتماعي والفكري، بما ينفي خاصية (النقل) عن الغرب أو التأثر المباشر به.

وبواعث هذا الإدراك كثيرة، منها.. أن العقلانية – أحد رموز التنوير – ترتبط هناك بقيم الواقع الذي كان مفروضاً منذ نهايات القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، فقد كانت سياسة لويس الرابع عشر قائمة على الملكية القائمة على الحق الإلهي التاريخي مما احتاج الواقع المضاد له إلى فلسفة سياسة مضادة.

فالمفروض أن قانون العقل يعرف أسلوباً صالحاً للحياة، وجوهر هذا القانون هو المصلحة الشخصية المستنيرة، ولكن المصلحة الشخصية المستنيرة يجب أن يؤدي إلى خير المجموع.

إذن فالحكومات موجودة لدعم الحرية والأمن والتمتع بالملكية وغيرها من الحريات الفردية، وعلى ذلك يجب أن يهدف الإصلاح إلى تحقيق قيام حكم تمثيل مسؤول إلى تحقيق قيام حكم تمثيلي مسؤول وإلى الحد من المساوئ والطغيان.

وعلى هذا، كان رد الفعل على الحكم المستبد، البحث عن فلسفة سياسة

مضادة لها سياق محدد، في حين أنها ارتبطت عندنا، وإن بدا القرن الثامن عشر صالحاً لنا، بسياق مغاير، كان أهم ما فيه البحث في مرآة الغرب عن قيم جديدة تخرجنا من عقود التخلف التي عشنا فيها، وفيما بعد من قبضة الغرب النموذج / المثال أو الغرب الاستعماري / الجديد أو القديم.

ولذلك فمن السهل العثور على الكتابات الفلسفية عندنا منذ قرابة قرنين من الزمان على أصداء فلسفة عصر التنوير الغربي والفرنسي بوجه خاص.

(لنذكر: مونتسيكو ١٦٨٩ – ١٧٥٥ بنظرية فصل السلطات وتمثيل الشعب، وفولتير ١٦٩٤ – ١٩٧٨ بموقفه من الكنيسة وقضيتي الحرية والمساواة والحكم الأفضل، وروسو ١٧١٢ – ١٧٧٨ بالحرية السياسية، وعقده الاجتماعي، وهولباخ ١٧٣٣ – ١٧٨٩ بتحليل نشوء المجتمع السياسي وأهمية القوانين.. وغيرهم).

هذه أسماء وعنوانات لعصر التنوير الغربي يصعب تجاهل ما خلفته من تأثير في الكتابات العربية في عصر النهضة العربية، لكنه التأثير المرتبط بالواقع العربي وخاصة الشخصية العربية ومشكلاتها الذاتية.

لقد كان المجتمع العربي يسعى إبان نهضته الحديثة للخروج من العصور المتخلفة وما يحاول أن يفرضه الغرب الاستعماري عليه، ومن هنا، التبس معنى التنوير هنا وهناك، وخضعت أفكار التنويريين لمثل هذا الالتباس خاصة أن الواقع لم يكن ليسمح بالخروج عن هذا الإطار.

كان التنوير في الغرب يعني مؤثرات وأصولاً معينة، في حين أن كان

عندنا يلتبس بأفكار مغايرة، لكنها لتعدو فى مرجعيتها أن تعود إلى الغرب بقدر ما تعود إلى التطور الذى عرفته الأقطار العربية حين واجهت الغزو الخارجى، والتخلف الداخلى، و(الأزمة) التى وجد عالمنا العربى نفسه فيها منذ نهايات القرن الثامن عشر حين جاءت طلائع الحملة الفرنسية لأول مرة، والتى عكست على الجانب الآخر لدى الغرب شعوراً بالتفوق على الشعوب المتخلفة أسهم بدوره فى تعميق الهوة بين العالمين (العربى/والغربى)، وقد أسهب أحمد بهاء كثيراً حول هذا الشعور وتفاقمه وإن وصل إلى أقصاه والتعبير عنه عقب الحرب العالمية الثانية..

كان المجتمع العربى يشهد – حينئذ – حالة من التحرر الوطنى، وفى الوقت نفسه يشهد حالة من نمو قوى حاكمة جديدة تسعى لتأكيد سيطرتها على الحكم بتدعيم من الاستعمار الجديد، يصنفها د. عابد الجابرى بدول العسكر. أو الحزب الوحيد، القبيلة، الطائفة، الأحزاب المصطنعة.. (الندوة العلمية لدار الهلال ١٣ – ١٦ سبتمبر).

أيضاً كان هذا المجتمع يشهد زخماً من الأفكار العامة والأساطير بمعناها الخرافى، والميثولوجيا التى تتمسح بالدين وتتحدث عنه، والشباب المسوق – باسم السلفية – إلى أفكار غامضة.

وفى هذا كله يتراجع دور العلم بمعناه الفكرى.

ولأن المثقف لا يستطيع الخروج على النص فى الغالب فإنه يتحول إلى موظف فى النظام، وينحلى النظام/ المجتمع – بالتبعية – عن أهم قيم عصر التنوير: العقل والعدل وحرية التعبير وإنشاء الجمعيات والأحزاب

والشركات والتعاونيات والحق فى المساواة وتكافؤ الفرص،، وما إلى ذلك رغم أن المجتمع نفسه يرفع شعار هذه المؤسسات.

ويزيد من قتامة الصورة عوامل متتالية: النكسات والهزائم العربية ضد القوى الإمبريالية مما يقرب - على العكس - من الإذعان للواقع، ويزيد ضراوة العدو الإسرائيلى على الحدود العربية من زيادة حجم التضييق، كذلك، فإن ضراوة الحقبة النفطية خاصة منذ أوائل السبعينات زادت من تأزم الواقع الاجتماعى مع قانون الانفتاح الاقتصادى وتسارع الربط فى عجلة الرأسمالية الغربية.

وسط هذا كله، كانت الحركة التنويرية العربية تسعى للتغيير، لكنها، مع الزمن، لم تستطع أن تواجه ضراوة الرياح العاتية..

* * *

فى هذاا لمناخ، الذى عرفته المنطقة العربية منذ قرابة نصف قرن - الفترة التى تمثل موضوع الدراسة ، كان على أحمد بهاء الدين - بين مثقفين تنويريين قليلين- أن يواجهوا الرياح العاصفة، ويحاولوا أن يمثلوا الموجة المغايرة لتيار العصر العربى الردىء.

راح بهاء الدين يستعين - بموقف تنويرى فى هذا المناخ، وقد كان أكثر ما يميزه: **الوعى بالتاريخ فى استقراء الحاضر، والنظرة الكلية للأمور، وإيثار الحوار وسيلة للاقتناع والتعبير والتنبه إلى خطورة (إيقاع الكلمات) والإصطلاحات.**

فمن ناحية، لم يستطيع أن يغفل **التاريخ** لاستلهامه والنظر فى مرآته إلى قضايا الحاضر.

فالتاريخ هو ماضينا، موجود فى نفوسنا شئنا أم لن نشأ.

ونحن لا نستطيع أن ننقطع عنه، ولو انقطعنا عنه لخسرنا شيئاً كبيراً. (الثورة الاشتراكية ص ٢٦).

وكان إيمانه بالتاريخ قد وصل إلى درجة الاستعانة بالنماذج التاريخية خاصة، بل اختاره عنواناً لأحد كتبه (أيام لها تاريخ)، وهذا كان يعنى أنه كان واعياً لاستخدام التاريخ فكرياً وسياسياً كى يدفع قرائه لإنعاش صورته فى أذهانهم وليصل منه إلى ما يريد فى حاضره.

ومن ناحية ثانية، لم ينظر إلى أية قضية بشكل جزئى أو رؤية مبتسرة، وإنما كانت **النظرة الشمولية** النفاذة أهم ما يحرص عليه، فحين راح يعالج السطحية الفكرية فى إحدى الموضوعات راح يشير إلى ضرورة النظر إلى المشاكل على أنها أجزاء متصلة، واصفاً السطحية أنها النظر للمشاكل (على أنها كلها جسد واحد له نبض واحد). ومن هنا راح يتحدث عن قضايا كبيرة على أنها عناصر لقضية واحدة، إذ يمكن أن نبدأ من موضوع الوحدة العربية فنجد أنفسنا بعد لحظات فى قلب مشكلة التنظيم الشعبى.

أما الحوار، فقد كان أكثر ما يحرص عليه – كما سنرى – فى أية قضية، هو الدعوة **للحوار الهادئ** بعيد عن الانفعالية، والتعامل مع القضايا الدينية أو الميثولوجية بتعصب يعمى عن التبصر السليم، ولن تدب الروح

فى المسلمين ثانية إلا بالحوار القائم على كسب قلوب الناس وعقولهم وليس على كسب خضوعهم.

ومعاركه الكثيرة– كما سنري– تشهد علي ذلك.

كذلك ارتبط الحوار تاكيده لأكثر من مرة على أهمية استخدام الالفاظ– والمصطلحات، إذ كان دائم تذكير محاوره بان «استخدام الكلمات سلاح خطر ان لم نستخدمه بدقه ونتفق على قواعده» (يوميات ٨٧/٦/١١)، راح يضرب على ذلك أمثلة كثيرة من الكلمات التى يمكن أن تستخدم استخداماً مغايراً لما يراد لها وهو ما كان أشار إليه منذ الخمسينات (مبادئ وأشخاص، مايو ٥٦، ص ١٠٣).

وهو ما يقترب بنا أكثر من موقفه بشكل عام من فكر التنوير العربى..

لقد تحدد موقف أحمد بهاء الدين من القضايا الفكرية الكبرى – أساساً – من موقفه مع الغرب.

كان موقفه من الغرب يتقدم موقف بعض جيل الرواد السابق عليه فى فترة مبكرة، فقد ذهب أبناء الجيل الثالث فى الثلاثينيات إلى قناعة مؤداها أننا يجب أن «نسير سيرة الأوروبيين أو نتتبع طريقهم (*)

(*) لابد وأن نشير هنا إلى صاحب هذه الأفكار. د. طه حسين فى كتابه المعروف (مستقبل الثقافة فى مصر) القاهرة ١٩٣٨، ويقول ص ٣٥. «التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها إلى التشريع.. إلخ وإن كان الأنصاف يحتم علينا ذكر أن طه حسين نفسه تراجع عن بعض هذه الأفكار فيمابعد..».

فاقترب من الغرب بقدر ما اقترب من القيم الإيجابية فى التراث العربى، فاتخذ موقفاً واعياً، وقد كان يمثل فى ذلك نقلة إيجابية لجيله من التنويريين ممن كانوا يفهمون الغرب كما عبر هو «يحبون فيه أشياء ويكرهون أشياء» (المنتدى، الأردن، ٣/٨٩) .

وهو ما صيغت به رؤيته من فكر التنوير، إذ كان دائم النظرة العصرية لأية قضية تعن له، فلا يتمسك بمفهوم مصطلح بحجة أنه جاء من التراث العربى، أو مفهوم محدد آخر بحكم مرجعيته الغربية. وإنما كان كثيراً ما يستخدم المصطلح التراثى انطلاقاً من الحاضر الذى يعيش فيه، وهو الحاضر الذى يستوجب منه التنبه إلى ما يجب أن نلتزمه للعيش فى العالم الجديد.

وعلى سبيل المثال، ففى حين نراه يركز على قيم العقل والديموقراطية والحرية والتقدم مما يستعيد معه معالم مناخ القرن الثامن عشر فى الغرب، نراه يتهل عند قيم عربية خالصة من مثل التمسك بالعقل المجرد مما يسهم به فى فهم الحاضر العربى، ويتحول واقع الديموقراطية إلى معنى الشورى، ويرتبط بها بفهم راديكالى جديد لا يخرج عن الصواب فيما تؤدى إليه، كذلك، يدعوا إلى التقدم فى التاريخ إلى إعادة النظر إلى التاريخ الإسلامى مما يمكننا من رؤية الحاضر فى مرآة القيم التراثية الواعية.

ولابد أن نشير هنا إلى أمر هام، هو أن فكرة التنوير عند بهاء الدين لا تتخذ شكلاً فكرياً فحسب، وإنما تمضى على كافة مستويات الحياة اليومية، وبوجه خاص التطورالسياسى، ففى معرض تأكيده على ضرورة خوض المعركة ضد الغوغائية والانهزامية يؤكد أن هذه المعركة «ليس فى

مجالاتها السياسية فقط كما يتبادر إلى الذهن.. ولكن على كافة المستويات العربية.. (شرعية السلطة ٨٧)

وكأنه يعيد المعركة ضد التخلف فى كافة الميادين من عادات وتقاليد وتحول اجتماعى وتطور إنمائى وسياسى أيضاً.

ويرتبط بذلك وصول درجة الوعى التنويرى فى الثمانينات..

فرغم أننا يمكن أن نرصد موجات التنوير طيلة سنين حياته، وفى كثير من المواقف، فإن هذا المد وصل إلى أقصاه فى حقبة الثمانينات، وهو له ما يبرره، ففى هذه الحقبة ارتفعت إلى أقصاها (موجة سوداء) كادت تدهم المنطقة العربية ومصر من السلفية والأصولية المتخلفة».

وهو ما يفسر لنا كيف نشط مفكر مثل أحمد بهاء الدين فى هذه الحقبة إلى درجة من درجات العنف والنيل من الخصوم لم يصل إليها من قبل، وقد كان يخصص فترة شهر رمضان كل عام تقريباً ليتوقف فيها عند عديد من القضايا التى ترتبط بالتراث الإسلامى، مستنداً فيها، حين يستحر القتال،إلى فقرات وصفحات كاملة لمفكرين إسلاميين آخرين متنورين من أمثال الشيخ محمد عبده أو محمد الغزالى أو بنت الشاطئ أو الشيخ شلتوت.. وغيرهم.

ورغم أن العديد من هذه الأفكار لا تخرج من مظلة التنوير وتحتمى – بوجه خاص– بثنائيته المفضلة «العقل والحرية» – فإنه لم يلتزم فيها بترتيب موضوعى، وهو ما سنلتزم به هنا، وإن كنا نضيف إلى الترتيب الزمنى المعالجة الموضوعية.

ثانياً

العقل والحرية

«لماذا تتبنى حكوماتنا
رأى كتب متخلفة الفكر،
ولا تتبنى كتباً تحض
على الدين الصحيح المستنير،
ومن أحكامه : حرية الفكر؟»
(أحمد بهاء الدين)

تتحدد قضية العقل عنده من تحليله لتاريخ الأفكار فى هذه المنطقة، فالصراع بين التقليد والتجديد هو جوهر التطو الفكرى، فحين طلبت منه اليونسكو تحليل هذا التطور راح يؤكد أنه مر بعدة أطوار، أولها الخاص بنشر العقيدة والتبشير بيدن جديد، وما لبث الطور الجديد أن جاء بفترة بناء الدولة التى بدأت بحكم الأمويين، ونقل الخلافة من مكة إلى دمشق، وبالتالى التوفيق بين الأفكار الدينية وجوهر الحياة العصرية الجديدة، وحين بدأت فترة المصالحة بين الفكر القديم والجديد بدأ طور النهضة الكبيرة إذ تحولت العاصمة إلى بغداد، وبدأت عملية التحام العرب بعديد من الأفكار والفلسفات الواردة من شتى الأمم المعاصرة.

فى هذا الطور الثالث بدأت عملية التنوير الثالثة بالتطور الذى شهده تاريخ الإسلام.

غير أن هذه التطور بدأ فى التقهقر حين ظهرت السلطة العسكرية،

وتراجعت قيم عصر النهضة، ودخلت المنطقة الإسلامية لقرون فى فترات التدهور، وظهرت الطقوس الدينية الجامدة، وسادت حالة التدهور مع استمرار الحكم العثمانى.

وهنا اختفى جوهر الوعي بالعقل والعمل له..

وهنا أيضاً عاد الصراع عنيفاً بين القديم والجديد فى القرن التاسع عشر، وظل هذا الصراع فاعلاً تحت السطح، لكنه ما لبث أن تصاعد بعنف مع مجئ الحركات الاستعمارية للمنطقة العربية، فراحت تجهض حركات التطور البطيئة، وتستبدل بها حركات ضاغطة من الخطر الداخلى والخارجى، فحدث فى العقل العربى ما يشبه الارتباك الشديد فى الواقع الجديد.

كان من الصعب أن يرى العقل العربى أمامه تطورات عنيفة.

وفى الوقت نفسه، كان من الصعب أن يسير معها ويتناسى صورة التطور القديم فى الشخصية والتاريخ العربيين..

كنا ندخل عصر النهضة الثانى تحت ضغط الخطر الغربى.

وحين نطالع كتابات رواد عصر النهضة العربى فى هذه الحقبة، نلاحظ أنهم يحاولون التغلب على الاضطراب العام بالوصول إلى عاملين اثنين يحملان نتائج التخلف الذى يعيش فيه الوطن العربى وهما:-

- فوضى الحكم.
- الحركة الاستعمارية.

وعلى ذلك، كان لابد أن نفهم دعوة جمال الدين الأفغانى للخروج من

عصر التخلف، وهى دعوة كان لا ينقصها الغضب والعنف الشديد.

لذلك كان لابد من فهم تصدى محمد عبده لعديد من التعاليم التى تنظم علاقة الإنسان بربه كالاجتهاد بشكل لا يعوزه التنور والتحرر.

وهو ما واجه جيل محمد عبده حين حاول أن يتصدى للتخلف العقلى وغياب الوعى بالمصطلح اللغوى، فبدأ الصراع بين القديم والجديد يتخذ شكلاً أكثر عنفاً.

كان أكثر ما يميز حركة محمد عبده هو محاربة التقليد - وهو فهم ضد العقل والتطور الحديث - وهو أسلوب لم يستنكف فيه أن يعلن أنه لا يتردد فى العود إلى العقيدة والمبادئ الجوهرية فى الدين الإسلامى، كى يتعامل بوعى مع الفكر الغربى الذى يوشك أن يستحوذ على أرض المسلمين وفكرهم، فبدون العقل الواعى لا يمكن التصدى لكل مظاهر التخلف الذى تعيش فيها الأمة.

وبهذا كان محمد عبده - بعد رفاعة الطهطاوى - من حاول الهبوط إلى أرض الوعى بطبيعة الحياة التى نعيش فيها، والتى تستلزم - أساساً - التمسك بالعقل، والوعى، وبحرية الفكر، ومواجهة التقليد.. وما إلى ذلك.

كان على الجيل الرابع من التنويريين فى مصر - و يمثلهم الآن أحمد بهاء الدين - أن ينتظر مضى قرابة قرن كامل ليعود فيحارب، من جديد، معارك الشيخ محمد عبده فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

* * *

لقد كان العقل لدى بهاء الدين قادراً على أن يهدى الناس إلى السبيل الذى يمكنهم من السيطرة على كل شئ حولهم، فهو قادر على تحدى الأفكار السلبية بعد قرابة قرن من الزمان حاول فيها رواد كبار أن يحاربوا مثل هذه المعارك.

وكأنه مقدر علينا أن نعود فى كل جيل لنحارب نفس معارك الأجيال السابقة.

كان عليه أن يتصدى لعديد من الأفكار السلبية والسلفية السائدة.

وكان عليه أن يواجه هذه الصور الميثولوجية المعششة فى عقول مثقفى عصره.

وكان عليه أن يعاود محاربته لهذه الرموز الرديئة داخل مؤسسات دينية وخارجها.

ومن هنا، تحدد العقل فى أداة التفكير المجردة، من كل ما من شأنه أن يحول بين الواقع وبين ما يراد بنا حين نغرق فى تفصيلاته ومتاهاته، وتحددت حرية العقل من كل من يحاول أن يحول بين خروجنا من (كهف) الذات، المولع بالعودة إلى الوراء باسم التراث، أو المكوث تحت نير السلطة باسم السلطة المحافظة على القيم؛ أياً كانت طبيعة السلطة.

إن إخضاع كل شئ للعقل هو ما حرص عليه: إخضاع الأفكار، والخزعبلات الدينية والقضايا الاجتماعية.. إلى غير ذلك، مرتبطاً بالقيم الثورية فى الفكر الإسلامى، مسرعاً الخطو إلى أفكار كانت وأمثاله فى القرن التنويرى منذ قرابة قرنين من الزمان فى الغرب.

والواقع أن العقل أو العقلانية كانت أكثر القضايا التى أولاها عنايته القصوى، فراح يتحدث عن التحديات التى يجب أن نقيم عليها حياتنا، كانت العقلانية إحداها (شرعية السلطة، ص ٩)، وهى عنده ليست المفهوم الجامد، وإنما هى العقلانية القائمة على العواطف النبيلة كحب الوطن أو حب العدل، فتصبح حياتنا قائمة كلها على (العقل والقلب معاً)، وحين اختار فى فترة رئاسته لمجلة «العربى» كلمات فقدت سمعتها ليكتب عنها افتتاحية فى نهاية السبعينات راح يحدد مصطلح العقلانية كأحد أهم المصطلحات التى تواجه التقدم العربى فى ذلك الوقت منتهياً من ذلك كله إلى أن القضية المطلوبة هى أن نعيد للعقل مكانته فى حياتنا العربية، ولا يمكن أن نعيد للعقل مكانته فى نفوسنا، إذا بقينا مهملين هذا التحديد فى استعمال الدلالة.

وفى مراجعة أفكاره فى قيم مثل الديموقراطية أو الا جتهاد أو حرية التفكير.. وما إلى ذلك تتحدد قيمة العقل على أنه العجلة التى تحرك عربة التقدم وتمدها بالوقود اللازم لإشعال النهضة واستمرارها.

وهو ما سنتمهل عنده عند الوصول إلى هذه القيم أو القضايا المحورية فى حياتنا العربية.

أ - الديموقراطية

الملاحظة الأساسية هنا أن أحمد بهاء الدين يستخدم مصطلح (الديموقراطية) على أنه يساوى مصطلح (الشورى)، ولا تناقض بينهما قط

على اعتبار أن التغيير الحديث الذى لا يختلف عن مبادئ الإسلام فى جوهره، إنما يجب أن يفهم على أنه صالح للأخذ به، فالقيم الحديثة لا يجيزها الإسلام بهذا المفهوم فحسب، وإنما يؤكد على ضرورة الالتزام بها، وقد كان يعتقد أن رأيه هذا هو رأى الأغلبية المثقفة الإسلامية. يقول:

«لا تناقض بين الإسلام والديموقراطية، فنظام الشورى فى الإسلام يصور نوعاً من الديموقراطية، يختلف عن الديموقراطية فى الدولة العصرية، كما أن الديموقراطية المطبقة فى عهد «بيريكلس» فى أثينا لا تتوافق مع ما يطلق عليه اليوم الاسم عينه. ويمكننا القول إن للإسلام روحاً ديموقراطية حقة، ولكن أولئك الذين يرفضون كل أشكال الديموقراطية الحديثة من المتشددين، كالاقتراع أو المجالس النيابية إلخ.. ويعتبرونها مناهضة للإسلام يتقوقعون فى تفسيرات ضيقة لديهم، وإذا كان القرآن، برأيهم الدستور الوحيد، تصبح مجرد المطالبة بدستور مكتوب – بالمعنى العصرى للكلمة – نقيضاً للإسلام، فالنظام الذين يحلمون به يقوم على سلطة حكم فرد: الخليفة يعاونه مستشارون قلائل، يقترب كثيراً من الحزب الواحد». (L ISLAMM QUESTION).

وهو فى ذلك لا يريد أن يدحض رؤية (الجماعات الإسلامية فى مصر، وهى رؤية نافية للديموقراطية الحديثة وحسب، وإنما، أيضاً، لدحض الفكرة التى كانت ينادى بها بعض هذه الجماعات من وجود حاكم أو أمير معصوم

على مستوى الدولة، وفي هذا راح يستعيد أجزاء ومشاهد كثيرة من التاريخ الذي ولع به ليؤكد على ما يذهب إليه، فقد ذكر قصة رفض حكومة الوفد في نهاية الثلاثينات (١٩٣٨) أن يؤدى ملك مصر مراسيم التتويج داخل الأزهر لئلا يستمد الحاكم شرعيته من الدين. (يوميات ٢٨/٦/١٩٩٢)

وقد ذهب في هذا إلى أن الإسلام لم يأمر - قط - بدولة دينية، وإنما بدولة تطبق تعاليم الدين، أو على حد قوله: ليس في الإسلام حاكم مطلق لا يتقيد بالشورى. ورفض النبي لتعيين خليفة له فيه هذه المعنى (ى ٢٩).

ولا يكون علينا أن نستنتج سر إثارة بهاء الدين لهذه القضية، فرغم أنها تردد من آن لآخر لدى بعض السلفيين من المتعصبين، فقد كان الباعث الرئيسي وراء تعرض بهاء الذين لها هو أن أحد دعاة الاسلام، هذه المرة من المنافقين، راح يعلن أن الحاكم ليس مضطراً للشورى، ويكون على بهاء الدين لنفي هذه القضية، أن يسهب طويلاً حول ما يرفع الشورى إلى مستوى الفريضة الدينية على وجه التقريب، ويعرض لبعض الفقهاء الذين يسعون إلى تطويع القرآن بما يتناسب ورغبات «السلطان» وهو ما يؤدى إلى إطفاء نور الفهم والاجتهاد الصحيح لدى الشباب (ى ٣٠).

وفي اليوم التالي يتصدى لمن يزعم - إمعاناً في النفاق - أن الديموقراطية مستوردة دخيلة على الإسلام.

وبهاء الدين لا يمل من ترديد أنه لا يهمنا الاسم اليوناني، إذ لا يوجد في الإسلام طريقة محددة للشورى والتمسح بيونانية اللفظة للهروب منها،

ومن هنا، فإن الشورى تظل كشرط واجب ملزم للحاكم، قائماً فمتى يموت النفاق؟.

وطرح قضية الشورى على هذا النحو يجر إلى قضية حرية الفكر أو الاجتهاد.

ب - الاجتهاد

يؤكد أن الآيات القرآنية تضع العقل الإنسانى فى أعلى مقام. فالعقل - كما يشير - هو ما يريد أن يضعه ببعض الدعاة فى مكانة متدنية، بل ويرفضون وجوده، ويعطلون دوره محاولين فى ذلك خلق تناقض غير موجود بين الإيمان وبين استخدام العقل، مستشهداً فى ذلك بعديد من الآيات.

وفى سبيل التمهل عند قضية الاجتهاد تمهل طويلاً أمام قضية سميت فى وقتها - فضيحة فتوى الترنسفال - وفيها، أفتى الشيخ محمد عبده أن الإسلام ليس فيه أى زى معين، وأن الزى إذا لم يخالف حكماً فى الإسلام يظل بمثابة عادات تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا تمس جوهر الإسلام الثابت، بل واستخدام الدعاة المحترفون، ونافخى الأبواق لإثارة العامة. (ى ٧/٧).

ويصور لنا بهاء الدين بهذه القصة النموذج الذى وصلت السلطة به لإقناع المسلمين بالجمود الفكرى والعمل له مما ينعكس فى عدم الاجتهاد باسم الدين.. والمطلوب هو عكس ذلك.

إن التمسك بهذا الفهم يسئ لأمور جوهرية فى الإسلام، إنما هو من قبيل تعطيل حرية الفكر، لكنه فى الوقت نفسه يخدم كل من يريد أن يكون (معصوماً)، وكل من يريد أن يتاجر بالدين ويستخدم شباباً يتخبطون فى «ظلام من انعدام حرية الفكر».

ولأهمية القضية راح يعرض لها فى كتاباته خارج «يومياته»، وفى أكثر من صحيفة، إذ أشار – لأكثر من مرة – أنه ليس من حق أحد أن يفرض تفسيره هو بالقوة، ويزعم أن هذا هو الإسلام، مستدركاً – كذلك – أنه ليس من حق جماعة سرية لا نعرف فكرها أو ترجمتها للقرآن الكريم، أن تتآمر بليل لتفرض تفسير محدد.

وهو بذلك يجمع بين الفرد المتعصب والجماعة السرية التى لابد وأن تصاب بضيق الأفق أو بتغليب مصلحة معينة، بل ويربط التطور الفكرى الناضج فى عصور الإسلام الذهبية بفتح باب الاجتهاد لصاحب العقل المتنور، يقول: «لن تدب الروح حقاً فى المسلمين من جديد، إلا بإزاحة الظلام، ولا بفتح طاقات النور، ولا بالحوار القائم على كسب قلوب وعقول الناس، وليس على كسب خضوعهم. (الجمهورية ١٩/١١/٨٦).

ويلاحظ أن بهاء الدين وإن لم يكن من أتباع الأستاذ العقاد أو أحد تلامذته، فإنه لا يتردد من الاستعانة به أو نقل من كتابه (التفكير فريضة الإسلام) ما يؤكد به على حرية الفكر.

ويلاحظ أن بهاء الدين لا يتخذ موقفاً من الفرد المتجمد أو الجماعة السياسية، وإنما يمد لومه إلى السلطة الرسمية نفسها، فهو لا يتردد فى

إحدى المرات من طرح سؤال هام، هو : لماذا تتبنى حكوماتنا رأى كتب متخلفة الفكر، ولا تتبنى كتباً تمض على الدين الصحيح المستنير ومن أحكامه، حرية الفكر؟..

ولا يلبث أن يضيف: «إن استخدام العقل يقوى الرعية إزاء السلطة، ولكنه يحميها من حماقات الجهالة». (ى ٧/٨) .

ويتميز أحمد بهاء الدين أنه لا يضيع فى تفصيلات كثيرة، وإنما يكون متنبهاً إلى القضية المحورية التى يحارب من أجلها.

فحين يشتد الجدل، يعود إلى قضيته، ليقول بوضوح:

«إن العصمة التى أسبغها الله على النبى لا تمتد إلى غيره. ونحن لسنا فى صدر الدعوة الإسلامية بخصوصياته. فلا نبى من البشر الآن، ولا حتى خلفاء راشدين، لهم حقوق تلك النخبة الأولى المصطفاة، والتى انتخبت كل واحد منهم مع ذلك انتخاباً بالأسلوب المناسب لتلك الظروف.. ولا يليق الاستشهاد بالرسول. فى القياس على أى حاكم دنيوى آخر.ثم أن أحداً لم يقل إن الحاكم ملزم برأى من تدخل آرائهم فى (عداد الشورى) ، ولا أحد قال بذك» .

ولا يلبث أن يعود إلى النظام السياسى المعاصر الذى لا يتعارض مع الفكرة الإسلامية القديمة حين يضيف:

«ولكن تعقد الحياة وتغييرها يجعل للحاكم سلطة

وللشورى سلطة. فالحاكم إذا كان وليد أغلبية مثلاً فهو يعبر عنها، وهى تؤيده. وبالتالى ليس مضطراً إلى قبول رأى ما نسميه المعارضة، وإن كان ملزماً بالاستماع لكل رأى له قيمته. ومن حقه مثلاً أن يحل ويعيد البرلمان الأحكام إلى الشعب، ولكنه لا يمكن له أن يحكم دون قاعدة ما». (ى ١٤ /٧).

بيد أ ن هذا كله يقوده إلى نقطة جوهرية أخرى هى «نظرية الحكم فى الإسلام».

ويكون على بهاء الدين أن يقفز إلى موضوعه بشكل مباشر، فيقول:

«إن القرآن لا يطبق نصوصه إلا أحكام بشر من البشر ويفسره بشر من البشر، وحين نبحث فى نظام الحكم نبحث فى أمور هؤلاء البشر، وليس فى معرض القرآن، وهى تفرقة غائبة عن بعض المدارس الإسلامية».

ويعرض القضية بمفردات بسيطة، فيسأل:

هل يقصد من يتحدث عن الشورى الآن أن اختيار وانتخاب الحاكم يكون كما كان أيام الخلفاء الراشدين مدى الحياة، وإذا التزم بالشورى فهو غيرملزم إلا بالشكل لها ؟

ولا تخرج إجابتـه من أن «روح الإسلام تتسع بل توجب، وقد صارت الأمور للبشر أن يكون الحاكم بالانتخاب أو بالاختيار النابع من الشعب، وأن تكون مدته مهما طالت محددة»، إلى غير ذلك من مفردات الحكم النيابى

بمفهومة الحديث، والذى لا يخالف المفهوم التراثى، اللهم إلا بتوجيه التنبه إلى العصر الذى نعيش فيه والذى يجب ألن نخرج منه.

كذلك لا يغفل بهاء الدين التركيز على ألا تكون هناك وساطة دينية لها حق الأحكام الأخيرة.

ويعلق على رجب إلبنا فيما يذهب إليه فى مطالبته للأزهر أن يتخذ القرار فى هذا الرأى أوذاك، فالأزهر - أو أى مؤسسة دينية رسمية - ليست جهة اتخاذ قرار وليست سلطة إصدار تشريع. وما إلى ذلك مما سيتمهل عنده فيما بعد.

كذلك لا يتردد فى رفض سلطة شيخ كبير مثل الشيخ الشعرواى، يملك من التأثير الشعبى ما يستطيع به أن يرجح هذا الرأى أو ذاك، فقد «أفتى» الشيخ حينئذ برفضه لدخول الكهرباء إلى الريف، فلا يتردد فى معارضة الشيخ - كما يعارض المؤسسة - مؤيداً أن يكون للشيخ (رأياً) لكن ليس من حقه أن يقوم بتسخير آيات القرآن الكريم لتدعيم أى رأى دنيوى، وهو فى هذا لا ينكر اجتهاد الشيخ، وإنما ينكر أى مؤثر دينى يمكن أن يلعب دوراً حاسماً فى توجيهات الجماهير أو الشباب ممن يؤمنوا بسلطة الشيخ واجتهاده. (ى ٣١/١/٨٢)

وهذا الوعى بحرية الفكر يخرج بالاجتهاد من جعبة علماء الدين، أو أية مؤسسة دينية تزعم وحدها الرأى الدينى الأخير، ويفتح أبوابه للكافة «بشرط» هو: إدراك أن للاجتهاد شروطاً وأصولاً، وعلى كل قادر أن يبرهن على إمكاناته فى العصر الذى نعيش فيه، وهو ما وصل به إلى حقيقة أوجزها

على هذا النحو: «إن الحكم القرآنى يظهر الحكم القرآنى ولا ينشئه» . (جريدة الشعب،١٩/٤/٨٢) .

وهو ما يقترب بنا أكثر إلى قضية مشابهة .

جـ - التراث

هذه القضية تنطلق أساساً من التراث الإسلامى (القديم) الذى يعتقد البعض أن كل ما فيه صالح لنا الآن، فى حين أن أصحابه أنفسهم لم يروا أن تراثهم كله كان نافعاً .

إن هذا التراث يثير - هنا - تأويلات، يثير بعضها الخاطر، ويولد البلبلة، إنه يلخص هذه القضية فيقول بالحرف الواحد:

«ليس كل كتاب أو اجتهاد مضى عليه ألف سنة يعتبر تراثا، وليس كل مجتهد قبل ألف سنة له من قدرة العقل والتفسير ما يميزه عن مجتهد القرن العشرين .

ففى مراحل النهضة الإسلامية ظهر الفلاسفة والمفسرون العظماء، وفى مراحل التخلف ظهر المتخلفون، الأمر الذى لا يعنينا بالضرورة ضرورة الاجتهاد الدائم، والتمييز بين الغث والثمين» . (ى ١٧ / ٧/ ٨٢) .

ويضرب أمثلة كثيرة على ذلك، فيكون ذلك - على العكس - مما يدفعه أكثر لخوض المعركة إلى آخرها، ففى اليوم التالى يضرب مثالاً

بليلة القدر، وبعد أن يعرض لبعض ما جاء عنها مما لا يقبله العقل، يقول بالحرف الواحد:

«إنما العقل يميل لقبول التفسير الذى يرى أن (الروح) هنا يراد بها (الراحة)، وقد استخدمت بهذا المعنى فى قوله تعالى: «ولا تيئسوا من روح الله»، لأن ليلة القدر ليلة رحمة ومغفرة، واستجابة كل دعاء خلص، وفهم العامة هذا فهم نظرى سليم دون تعقيد، ثم نجد جدلاً آخر..».

ويعرض لآخر، ليصل إلى ضرورة قراءة التراث قراءة (انتقائية) واستخدام العقل والاستفادة من أهل الفقه الذين يؤمنون باستخدام العقل.. إلى آخر ما يؤكد به استخداما لعقل (ى ١٨/٧/٨٢).

وقد تعرض بهاء الدين لكثير من الأمثلة التى راحت تتحول – على لسان بعض شباب الجامعات من المتعصبين – إلى حقائق دينية كتحريم سماع الأصوات، والآلات (ى ١٩/٧)، كذلك إلى عديد من صور المغالاة فى الملبس والمأكل وأسلوب التفكير (٢٠/٧/ ٢١/٧).

بيد أنه يجب أن نلاحظ هنا أن حرية الفكر كانت ترتبط عنده بحدود معينة، هى حدود لا يجب تخطيها، فالحرية المسئولة هى التى تطالب بحرية العقل وحرية التفكير، أما لو كانت الحرية– بجميع ألوانها – سوف تترك للغرائز والشهوات. وسائر ما فى الإنسان من طبائع بشرية.. فهى الفوضى والتخلف والخراب/ والنظم الاستبدادية بشتى أنواعها، ربما كانت تعمل على إطلاق حريات من هذا النوع، حتى تعوض بها التقليل من حرية

العقل المسموح بها (ى ١٨/٨٢,٨) .

وقد ارتبط العقل بالحرية عنده إلى حد كبير، فهذا الإنسان الذى منحه الله العقل وميزه بالحرية تمكن – بذلك – من بناء حضارته، بل أن كتاب الله ظل بمثابة المعجزة العقلية.

ويبدو أن حماس الكاتب فى الدفاع عن قيمة العقل إلى درجة الغلو أوقع به فى هنات ارتبطت بطريقة التعبير، مما جعل بعضاً من معاصريه يهتبلون الفرصة فيقاضونه.

إذ راح مدير تحرير جريدة الأخبار فى ذلك الوقت يعرض ببعض عبارات بهاء الدين مجتزئاً عبارات من مثل أنه قال فى معرض نقد بعض التفسيرات التراثية الخاطئة لليلة القدر «وكأن الله – غفر لنا – يقيم «أوكازيونا» العبادة فيه «بسعر التكلفة» أسهل وأرخص (ى١٧/٧) .

كذلك حين عرض به بهاء الدين فى إحدى المرات بعبارة من مثل « ..الصحفى الدجال» (ى٢/٨) وما إلى ذلك، مستعدياً نقابة الصحفيين ضده مما أضاف إلى الإسراف السن العلنى وتهمة القذف.

وقد تمخض النظر فى الدعوة المدنية (انعقدت فى ١٩٨٣/٤/٢٦) إلى حكم بإدانة أحمد بهاء الدين وتغريمه أتعاب المحاماة (انظر الملحق) .

* * *

د - حرية الفكر

ولم يلبث فى العام التالى مباشرة أن عاد ليطرح قضايا تنويرية أخرى أو «تفريعات» من القضايت السابقة، ملتزماً خطاً واحداً، هو أن الإسلام (دين العقل والحرية) مبرراً العود لذلك بأن العقل ما زال محل هجوم شديد ممن يرون تعطيله أو على وشك من شباب كثيرين مما يخلق بينهم روح الخوف والاستكانة أمام بشر مثلهم، بدلاً من روح الاجتهاد التى كان يأخذ بها العظماء من الخلفاء (ى ١٥/٦/ ٨٣).

ويلاحظ أنه طيلة اليوميات التى يركز فيها إلى جانب الفكر على قضايا من مثل فقهاء الفروع والمصالح المرسلة، يستعين - كدأبه - بنتاج مفكرين مشهورين، وممن يتمتع بعضهم بالحس السلفى إلى حد كبير من أمثال عباس العقاد، وبنت الشاطئ لإقناع محدثيه بما يريد، مؤكداً على الجدل ومن أدواته العقل، كما لا يجب أن يلغى مسلم عقله بما أورده القرآن، مشيراً خلال حديث العقاد أن لا تناقض بين أن يأمر الله الإنسان استخدام العقل وبين وجود ضوابط وروابط لاستخدام العقل: كتوقير السلف والاتجاه بالسؤال إلى أهل الذكر وطاعة الحاكم الصالح.

وهو يتمهل كل مرة عند قضية الاجتهاد فيقول: «إن للعقل فى تاريخ الفقه الإسلامى مساحات شاسعة خاض فيها باجتهاد واقتدار سواء فى فهم ما يوجد من معان كامنة فى جوهر النص وعدم الاكتفاء بظاهره الذى تساوى فى معرفته أى الظاهر إن إنسان أو فى مجال الأشياء الكثيرة جداً والمتجددة أبداً والتى أوجدت فى الفقه الإسلامى نفعاً كبيراً لنظرية المصالح

المرسلة، أى المصالح التى لم تعتمد بنص فى القرآن، ولهذه النظرية الإسلامية مجال فى أحاديث معينة (ى ١٦ - ١٨/ ٦).

وهنا يتصل بنا إلى قضية أخرى.

هـ - فقهاء الفروع

بعد أن يطرح قضية سماها الشيخ محمد الغزالى (فى آخر كتبه: هموم داعية) قضية (فقهاء الفروع).

وهى تعنى أولئك الذين يتركون القضايا الكبرى، التى تواجه المسلم اليوم، من حرية وشورى ونظم اجتماعية واقتصادية، إلى قضايا فرعية. خصوصاً فى العبادات التى نتعلمها ببساطتها فى البيوت وفى المدارس الابتدائية. فيغوصون فى تفاصيلها وفى أمور اقترنت بتقهقر الفكر الإسلامى وخروجه من ساحة العمل إلى ساحة خدمة الحاكم وتبرير مواقف السلطان. وجعلوا منها مذاهب كالذى يصلى: أيضع يديه مبسوطتين، أم يضعهما مضمومتين على قلبه. أم على صدره، وكله حلال ولا يفسد صلاة ولا يحتاج لمعارك فقهية، وهو مرض قديم.

وعلى هذا النحو، فإنه يورد أمثلة من التاريخ ليضرب أمثلة لأولئك الفقهاء الذين يعلنون حرباً غير شريفة، ويحولون الإسلام إلى مذاهب، فمن أكبر ما يشين هذا الفقه الهابط، أنه لا يدرى كثيراً ولا قليلاً عن دساتير الحاكم. وأساليب الشورى. وتداول المال، وتظالم الطبقات، ثم هو.. إلى آخر جهل هذه الفئة بقضايا المسلمين الحياتية، فالعقول الكلية لا تعرف إلا

القضايا التافهة وهنا يظل الأمر المهم أن نتنبه إلى الفارق بين اثنين:

- «فقه الدين» .
- «فقه الدنيا» ..

ويسهب بهاء الدين مستنداً إلى فكر الشيخ الغزالى، ضارباً أمثلة كثيرة فى أكثر من (يومية) ، نورد بعضها:

*** فى القارات الخمس تعطى الشعوب الحق فى أن تستبقى الحاكم الذى تحب، وتستبعد الحاكم الذى تكره، فما الذى جعل الأمة الإسلامية تشذ عن هذه القاعدة، فى أغلب أقطارها.**

*** وعجبت لمتحدثين فى الإسلام يسكتون عن هذه القضايا، ويستمرئون الثرثرة فى قضايا أخرى لا تمس الحاضر ولا المستقبل، وإنما تشغل الفراغ وتقتل الوقت فحسب.**

كل شئ يمر بأذهانهم إلا قضايا حرية الفكر والساسة وحقوق الأفراد والشعوب.

وبهاء الدين ينقل صيحات الشيخ المتنور، ويستمر فى ذلك، رغم الإطالة التى ظل يمارسها لأيام، منتهياً بالتحذير بهذا البيت الشعرى (وأما ممات لا قيامة بعده .. ممات لعمرى لم يقس بممات) (٢٣ - ٢٦/٦) .

وعلى ذلك، نلاحظ، أنه ناقش قضايا إسلامية فى غاية الحساسية، وفى ظل مرجعية إسلامية جامدة ينادى بها السلفيون، يستعين أحياناً بمشايخ عصره وعلمائه، ويستعين أحياناً أخرى بنبرته الهادئة فى ضرورة إجراء الحوار – وإن لم ينجح كثيراً فى الاحتفاظ بهدوئه – ولم يتردد فى مناقشة أعتى هذه المسائل ليفرق دائماً بين المرجعية الأولى والمرجعية التاريخية.

و – المصالح المرسلة

إن بهاء الدين يعود لخطاب العقل متمهلاً عند حرية الاجتهاد، فيرى أن الاجتهاد الإسلامى بذل جهداً كبيراً من اليوم الأول بعد وفاة الرسول – ص – وخاصة فى القرون الأربعة الأولى بوجه خاص، ثم يتمهل أكثر عند قضية هامة يراها من أهم النظريات التى توصل إليها الأئمة العظام المجتهدون، وهى نظرية «المصالح المرسلة» ..

ونظرية المصالح المرسلة – كما عرف لها – المصالح التى لم يقيدها نص صريح.

فالاجتهاد بدأ من وفاة الرسول، وبدا واضحاً أن هناك ظروفاً تلفت النظر إلى اجتهاد جديد، فمع انتشار الإسلام السريع فى بيئات شتى، وتعذر الرجوع إلى الخليفة أوأهل الحل والعقد فى مكة . وإذا كانت مصادر الشريعة هى القرآن والسنة والإجماع، فقد بقى القرآن والسنة، ولكن الإجماع صار صعباً أو مستحيلاً بتوزيع الصحابة ثم التابعين بين شتى الأقطار، وحتى فى عصر الرسول أرسل لأبى موسى الأشعرى ليحثه على

(.. قس الأمور عندئذ ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق).

وهذا يشير – كما يرجح بهاء الدين بالاعتماد على علماء معاصرين إلى اللجوء إلى القياس والفهم الواعي.. وما إلى ذلك ما يمكن أن يطلق عليه نظرية (المصالح المرسلة)، أى المصالح غير المقيدة بنص، لم تتبلور كنظرية إلا بعد قرون، غير أن الأئمة والصحابة والتابعين أخذوا قبل ذلك بعبارات تدور حول فكرة (المصلحة). فعرف الفقه الإسلامى (القياس)، وهو باب بأكمله فى الفقه، له شروط دقيقة، وكذلك: عبارات الاستحسان والاستصلاح وسد الذرائع وغيرها من صور الاجتهاد، والقاعدة أساساً هى أن القياس – مثلاً – مظهر، للحكم لا منشئ له، وهى قاعدة تحكم كل فروع الاجتهاد والاستنباط (ى ١ – ٤/٧/٨٣).

ولا يكف أحمد بهاء الدين – لعدة أيام – عن طرح النظرية وتبسيطها وتلخيصها عبر روايات قديمة وجديدة، قائلاً ضمن ما يقول إنها «نظرية» تتفوق على نظريات القوانين الحديثة فى أخذها – فما ليس فيه نص – بما يسمى «بالقانون الطبيعى». وهو باب يقوم على الاجتهاد. واستخدام العقل فى الغوص بحثاً عن المعانى الكامنة فى النصوص، وهى تعطى «العقل» الذى منحه الله للإنسان دون غيره.

ورغم أن الكاتب لا يتحول منالتنظير إلى التطبيق فى هذه الفترة، فإنه بشرح النظرية فى تطويل – يمهد، فيما يبدو، إلى قضايا كثيرة آتية – كما سنرى – لنرى فيها الفكر الراديكالى فى الاجتهاد.

وينهى بهاء الدين يوميات هذه الفترة بالتحويم حول قضية ضرورة فتح

باب الاجتهاد، ضارباً المثل بالشيخ محمد عبده مرة أخرى، وإباحته لفن الرسم، وإن استطرد بأن القضية لم تعد، منذ مئة سنة، قضية الرسم، إنما هو المعنى الذى أكرره وهو معنى الاجتهاد، وتفسير النصوص، وتحكيم العقل، والظروف المتغيرة، بغير تناقض مع الدين (٨٣/٧/٨).

ز - تطبيق الشريعة

ولا تمضى سنوات قليلة حتى يعود بهاء الدين إلى قضايا العقل والحرية، ويتمهل عند قضية بعينها، هى قضية تطبيق الشريعة الإسلامية..

وقد كان ذلك يتم استجابة لضغط عديد من الجماعات الإسلامية التى ترى أن ثمة تعارضاً حدث بين الخطاب المرجعى للإسلام والخطاب التاريخى له، والبحث عن طريق يجنبنا الخروج من المأزق الذى انتهينا إليه الآن، وهو نتاج للخطاب التاريخى للإسلام، لا يكون إلا إلى الإسلام المرجعى فى فترته الأولى، للعود إلى صفاء مبادئ الإسلام، وهو ما يعنى العودة إلى (الأصل) والتمثل بمجتمع الرسول والخلفاء الراشدين.

وقد تفجرت هذه القضية إبان اغتيال أحد وزراء الداخلية فيما يبدو من الجماعات الإسلامية.

وقد وجد بهاء الدين الفرصة لمهاجمة هذه الجماعات التى لجأت للعنف كسلاح للتغير، والجماعات الدينية التى تلجأ للمال لخداع الآخرين باسم الدين، مهاجماً من اتهم كل الجماعات السياسية عدا الجماعات الدينية.

وراح يضرب أمثلة كثيرة من التاريخ ليؤكد أن ما يحدث إنما حدث من قبل، وتصدى له عدد كبير من الكتاب وعلماء الدين متهمين إياه بأنه يركز على الجماعات الإسلامية.

المهم أن ذلك أفرز قضيتين رئيسيتين :

إحداهما تطبيق الشريعة الإسلامية.

والأخرى.. إعادة النظر فى كتابة التاريخ الإسلامى..

وفى معرض الرد على الكثيرين راح يرفض أن تطبق الشريعة الإسلامية كما يحلو للمسلمين، لا الإسلام، ولا يستطيع أى إنسان مهما يكن أن يطلق على آخر صفة (الكفر) أو يتهمه بالمطلقات بحجة أنه يملك بيده من الطقوس الدينية ما لا يملكه ذاك..

وكما هاجم الجماعات الإسلامية المتطرفة، كذلك، هاجم الكتاب من المتطرفين والمعتدلين سواء بسواء، كذلك، هاجم قاموس التيار الإسلامى الذى يطلق أحكامه بشكل يعوزه المنطق الإسلامى..

على أنه يصعب التوقف عند قضية تطبيق الشريعة دون التوقف أكثر عند قضية كتابة التاريخ الإسلامى لتداخل القضيتين فى كتابات هذه الأيام بما يحيلهما – فى السياق الأخير – إلى قضية واحدة.

ح – كتابة التاريخ الإسلامى

وكتابة التاريخ هنا تشير – من وجهة نظر التيار الإسلامى – إلى وجود

الشريعة الإسلامية فى الإسلام المرجعى كنقطة مركزية، وذلك يشير - من وجهة نظر بهاء الدين - إلى اتخاذ الماضى - تمشياً مع السلفيين - ليكون أساس شرعية التيار الإسلامى.

ولكن أى ماضى؟

إن التيار الإسلامى ينقسم على نفسه:

البعض يرى أن الذى يبدأ من دولة الإسلام فى عهد الرسول والخلفاء.

لكن الأغلبية ترى أنه الذى طبق طيلة التاريخ الإسلامى.

وهنا يحدد بهاء الدين ما يريد حين يقول: «إننا كلما أردنا أن نضرب مثلاً على عدل حكام المسلمين، وولاة الأمر فيهم، لا نكاد نبرح عهد الرسول وخلفائه الراشدين» (ى٦١/٥/٨٧).

وحين يرد فهمى هويدى رافضاً الكثير من أفكار أحمد بهاء الدين، يعاود بهاء الدين الرد مبدياً سعادته لتقدم لغة الحوار، داخلاً فى مساجلات عنيفة حول (مواقع الكلمات).

وقد استعر الخلاف أكثر حين طالب فهمى هويدى بإعادة قراءة التاريخ الإسلامى (لا كتابته) مفنداً رأى بهاء الدين حول أننا لا نبرح العهد الأول للنبوة حين نتحدث عن العدل الإسلامى قائلاً: «إنه من حيث المبدأ لا تحاكم القيمة بالتاريخ، إلا إذا استوفى التطبيق التاريخى شروطه التى تستوجبها القيمة (أهرام ٢٦ / ٥/٨٧).. هنا تمهل بهاء الدين كثيراً.

راح فى يومياته المرقمة تحت عنوان (دفاعاً عن الإسلام) لا يفرق بين

كتابة التاريخ، وقراءته: «فهما متلازمان.. فنحن نكتب ما نقرأة. ونقرأ ما نكتبه، وإعادة القراءة لا تتم إلا بإعادة الكتابة، وإعادة كتابة التاريخ الإسلامى تتم باستمرار.» (ى ٨٧/٦/١٤)، موضحاً رأيه مرة أخرى بعد أن عرض لعدد كبير من آراء المشايخ والمثقفين الذين ردوا عليه:

الخلاصة إذن.. إن القول بأن الشريعة لم تكن مطبقة تطبيقاً صحيحاً طيلة أربعة عشر قرناً.. قول غير صحيح، وإن ما نتحدث عنه هو تاريخ مسلمين لا يحسب على الإسلام. (ى ١٥).

ويصل من هذا إلى حقيقة هامة.

يندهش لأولئك الذين يرون أن الشريعة كانت مطبقة حتى جاء الغرب المستعمر، فقد جاء الغرب واستعمرنا لأننا - على حد قوله - كنا أمة متخلفة عنه بعدة قرون! (ى ١٧).

ولعدة مرات يوالى فى يومياته هذا الرأى، ويحاول البرهنة عليه بشكل مباشر أو من خلال الكتاب والمثقفين ومن السلفيين أنفسهم - كمحمد عمارة والقرضاوى - منتهياً إلى إدانة الحركات الإسلامية المتشددة والكتاب والدعاة الإسلاميين لما يحدث، بل إن عليهم - كما قال - مسئولية عدم القيام بحركة تصحيح للانحراف، كذلك مسئولون ليتصدوا إلى «حركة الاجتهاد وأعمال العقل وإزالة أكوام الخرافات. بل والانحرافات عن الدين. (ى ٢١).

وهو بذلك يخلص من لوم المثقفين أو الأصوليين ليتعرض - فيما بعد - وبشكل مباشر - للرموز الأكثر تأثيراً وشهرة..

ط - أ عضاء الجسد

وفى السنوات الأخيرة قبل مرضه وصمته تعرض لعديد من القضايا على قدر كبير من الجسارة.

(شغل - على سبيل المثال - موضوع النظام الاقتصادى الإسلامى، وما يتفرغ عنه من قضايا.. قضية المواريث، وقضية شهادات الاستثمار.

غير أن قضية التعرض لعلماء الدين فى قضايا تتصل بالجماهير بشكل مباشر احتلت عنده المقام الأول.

فقبل عام بالضبط من توقفه تماماً عن الكتابة - فبراير ١٩٨٩ - تعرض للشيخ محمد متولى الشعراوى بما لم يجرؤ عليه غيره.

فقبل سنوات كان الشيخ الشعراوى قد أصدر بياناً (جريدة اللواء الإسلامى ١٧ مارس ١٩٨٣)، وفيه تعرض للتيار الليبرالى المستنير فى مصر، فهاجم كل من توفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وزكى نجيب محمود، وسـ... أن تعقد ندوة إعلامية ليفحمهم - فيما يكتبونه. كما أعلن - فى (قضية تحمل الضلال والإضلال.

ولم يتردد أحمد بهاء الدين لأكثر من مرة بعد ذلك من التصدى للشيخ الشعراوى، وإن اتخذ موقفاً منفرداً عن هؤلاء المثقفين، وكان يتخذ موقفه فى جريدة الأهرام أكثر الصحف المصرية رسمية ومحافظة.

لقد أسهب بهاء الدين فى هذا.

واللافت للنظر هنا أنه بعد قرابة قرن من الزمان على رحيل الشيخ

محمد عبده ، – يقول – تراجع الفكر المستنير، فبعد أن كان محمد عبده يواجه عواصف من علماء الدين فى زمانه أو ممن ينتمون إلى هذا الدين، أصبح خلفاء علماء الدين هؤلاء هم الذين يواجهون رموز التيار المستمر من خارج التيار الإسلامى، كان محمد عبده يسعى لإمكان التوفيق بين الإسلام والغرب الحديث، فجاء ممن يحسبون على نفس التيار الأن، وبعد أن كان يحارب التقليدية .. ويركز على العقل (UNESCO, HID) ،جاء الآن من يدعو إلى الإسلام التاريخى المنحرف وليس الإسلام المرجعى/ الأول.

وسوف نضرب مثلاً واحداً هنا، فقد أفتى الشيخ الشعراوى بأن نقل أعضاء الجسم حرام، فالجسم ملك لله تعالى، ولا يملك الإنسان أن يتصرف فيه كمن يتصرف فيما لا يملك، بدليل أن الانتحار حرام وكفر، وأن نقل أعضاء من مشرف على الموت أو ميت إلى مريض هدفه هو «تأجيل لقاء الإنسان بربه»، متهماً من يفعل ذلك من الأطباء أنهم يمنعون الموت ساخراً من أولئك.

لقد كتب بهاء الدين غاضباً، متعجباً من انحدار الاجتهاد الإسلامى إلى أدنى درجة، مشفقاً من انتهاء دور العقل لدى العلماء، فذلك معناه إلغاء الطب والعلاج وإلغاء علوم الطب وإغلاق المستشفيات، مع أن الرسول – ص – «كان يمرض ويتداوى، وكان يزود أصحابه بالنصائح .. إلى آخر ما يدلل به العقل على فساد رأى الشيخ سائلاً «وهل يعالج الشيخ الشعراوى فى المستشفيات وعلى يد الأطباء حين يمرض أم لا؟ (ى ٤/٢/٨٩).

ولم يلبث فى اليوم التالى أن واصل هجومه على الشيخ مركزاً على

قضية هامة، هي أنه ليس الخطير في كلام الشيخ، ما قاله بشكل مباشر، وإنما فلسفة ذلك، يقول بهاء الدين:

«الفلسفة الكامنة وراء هذا المنطق وما يستقر في نفوس الناس من هذه النظرية الشاملة إلى الحياة، المترتبة على هذا القول..(و) .. إن هذه النظرية العدمية، الداعية إلى الانقراض هي المفزعة في الموضوع. حتى لو قابل المرء أسداً في الصحراء لا يستسلم إليه ليلتهمه دون أن يحاول أن يحاربه ، ويرده عن نفسه، هذه مذاهب وأفكار لها جذورها وهي غريبة على الإسلام، ومنافية لنص القرآن وروحه». (ى ٥).

ويكون ذلك كله مدخلاً - كما سنرى - ليتحدث عن بواعث التخلف والهزيمة التي دفعنا إليها، وقد دفعنا دفعاً، لبعدنا عن هذه (الدولة العصرية) التي يظللها العقل والحرية، ويلعب فيها الاجتهاد المستنير دوراً كبيراً..

غير أننا قبل أن نصل إلى السلبيات التي تحول بيننا وبين التنبه إلى تأرجح إقدامنا في العالم الحديث، بقيت قضية تحتل نقطة هامة في الفكر التنويري العربي عند بهاء الدين، وهي قضية المرأة..

فلنتمهل عندها، قبل أن نعاون الصعود إلى (الدولة العصرية) وتطورها.

ثالثاً

قضية المـــرأة

«لا يجب أن يمنح للرجل حرية أكثر من المرأة بحجة الجنس»

قضية المرأة تستحوذ على مساحات شاسعة فى فكره.

وهى مساحات ترتبط بالوعى التنويرى أساساً، والموقف القومى العربى.

ومن يراجع أدبيات الفكر العربى يلاحظ تراجع وعى عديد من أفراد المجتمع ومنهم المرأة نفسها فى هذه القضية عما وصل إليه هذا الفكر منذ قرن أو يزيد، وهو تراجع يدل على تردى العقل والاجتهاد، ومحاولة ربط قضية تحرر المرأة دائماً بقضية الأخلاق.

وكان أحمد بهاء الدين أول من تنبه إلى المرجعية التاريخية، إذ ارتبط موقف المرأة بهذه المرجعية دون العود إلى أبعد من ذلك، حين كان يجب الاقتداء بالنموذج الأول فى المرحلة النبوية، مما جعل الثانى - التاريخى - يحيد عن الاتجاه الأصولى الأول - مكوناً لنفسه سياق خاص مفض فى النتيجة إلى انحطاط «فى كل صور التطور الحضارى وفى مقدمته انحطاط فى قيمة المرأة ومكانتها فى المجتمع العربى.

وهو ما يفسر إعجاب بهاء الدين بالشيخ محمد عبده، وأهم تلامذته فى

هذا المجال وهو قاسم أمين، إذ راح يعمق التراث الإسلامى ويتفهم الحضارة الغربية مما وصل به إلى اقتناع مؤداه ضرورة تحرير المرأة العربية UNECO، وإثبات أن تحرر المرأة لا يربط بقضايا معرفية أخرى، اللهم بدرجة الفهم الحقيقى لواقع المجتمع العربى.

وهو ما تحدد معه فهم بهاء الدين من المرأة فى عدة محاور يمكن أن تمثل جميعها رؤيته كأحد رواد التنوير اليوم.

* * *

منذ البداية رفض تماماً الربط بين حرية المرأة وموضوع الأخلاق..

إذ رفض أولئك الذين ما زالوا يفكرون فى حرية المرأة فيرون أنها تقوم على أساس أن عدم الحرية معناه التمسك بالأخلاق، وأن «الحرية بمعناها عدم التمسك بالأخلاق. أى، على أساس أن الحرية والأخلاق نقيضان»، (آخر ساعة ٦/٦/٦٢)، بل يساوى بين الرجل والمرأة فى درجة الحرية دون ارتباط هذه القيمة بأى عامل آخر، ومن ثم استنتج أنه لا يجب أن يمنح للرجل حرية أكثر من المرأة بحجة الجنس (الجيل ٢٤/٤/٦١)، وذلك رأى متقدم فى فترة الستينات فى العالم العربى، حيث كانت العديد من الأنظمة العربية – كمصر وسوريا والعراق – تعرف بانتمائها إلى المجتمع التقدمى الاشتراكى فى مواجهة محور آخر من بقية الدول العربية التى كانت تعرف بأنها تنتهى إلى المجتمع الرجعى المتأخر.

معنى هذا أن الحديث عن حرية المرأة دون أن يسبقه حديث عن

مساواة المرأة بالرجل يصبح حديثاً فارغاً من أى مضمون عصرى، وفى هذا راح بهاء الدين يعارض هذه المساواة، وبعنف شديد، سواء من علماء الدين أو من بين المثقفين.

وهو فى سبيل ذلك لا يجد حرجاً فى أن يهاجم أحد علماء الدين الكبار فى عصره كالشيخ محمد أبو زهرة، فالمساواة بين الرجل والمرأة عند الشيخ أبو زهرة – بعد أن هاجم الشيخ فكره – غير مسموح بها قط، اللهم إلا إذا كان مفهوم المساواة يعنى أن «كلاً من الرجل والمرأة يخرج عن هواه وكيفما يشاء». (أهرام ١٩/٨/١٩٦١)، متصدياً للشيخ مؤكداً أنه من المفروض على كل منهما – أى الرجل والمرأة – أن يكون «مقيداً فى دخوله وخروجه وتفاصيل حياته برأى الآخر ومشورته واقتناعه»..

وبهاء الدين لا يستنكف عن الهجوم الجارح على الشيخ التقليدى وإلى درجة أن يظهره معارضاً للنظام السائد فى الستينات الذى كان يتحدث عن الطبقات، فيظهره متخذاً موقفاً منها، يقول :

«الشيخ لا يطيق حكاية الطبقة والمجتمع الذى ليس فيه طبقات! ويقول إن المساواة معناها أن تكون المرأة من غير عاصم يعصمها ولا راعى يرعاها ولا حاكم يحميها ولا بيتاً يؤويها»..

ويتهمه فى النهاية بأنه من محترفى التلاعب بالنصوص وتلبيسها المعانى المزورة.. إلى غير ذلك مما يصل إلى أقصاه من التجريح العنيف.

ورغم أنه يعترف أن عباس العقاد (جبار) فى عدائه ضد مخالفيه، فإنه لا يتردد فى التصدى له بعنف لا يقل من تصديه للشيخ أبو زهرة حين

لاحظ رفضه للمساواة بين الرجل والمرأة، فيتهم العقاد بأنه يتهم كل من يخالفه بالشيوعية ويعرضه لبطش (مكارثى) عنيف، ضارباً له أمثلة كثيرة عن تقدم المرأة ومساواتها حولنا فى الصين الشيوعية والهند البوذية والهند.. ولكن هذا الأمر الواقع كما يقول لا يعنى شيئاً، مستطرداً فى سخرية منه:

«فالعقاد لا يخطئ.. وعلى العالم بأسره أن يتوقف، وأن يستدير، وأن يعود إلى الوراء، وينسى ما كان من تساهله مع النساء، حتى لا يكذب العقاد..». (مبادئ وأشخاص، ص ١٠٤).

ويسترسل أحمد بهاء الدين ليعرض وجهة نظر العقاد بسخرية، فهذا الموقف المعادى للمرأة يعنى لديه أن المرأة تختلف تماماً عن الرجل، سواء فى وظائف الغدد أو فى تكوين الأعضاء، وفى شواغل الذوق والإحساس ممايصل به إلى عدم مساواة المرأة بالرجل سواء فى الوظيفة أو التخصص:

«إن شرط التفوق هنا لا معنى له على الإطلاق.. لأنه شرط موجود بين الرجال والنساء على السواء.. لكل عمل يفضل له عادة الأكثر تفوقاً رجلاً كان أو امرأة/ ووجود الأقدر لا يمنع وجود الأقل قدرة ما دام المجتمع فى حاجة إلى جهده أيضاً». (١١٠).

ومن دفاعه المطلق عن مساواة المرأة بالرجل، فإن بهاء الدين يعترف للمرأة صراحة بحق العلم.

وقد لاحظ أنه وإن سمح للمرأة العربية فى الستينات بحق العلم بعد جهاد طويل فإنه ينكر عليها الآن حق العمل، فقد كانت قضية خروج المرأة من المنزل تناقش على أنها قضية دينية وتتردد فيها ألفاظ من مثل الحرام، والحجاب، وولى الأمر.. وما إلى ذلك، فراح يسأل مندهشاً: «ما هو الفارق العملى بين السماح لها بالعلم. والسماح لها بالعمل؟ (الثورة الاشتراكية ص ٩٤) .. متمهلاً أكثر عند عمل المرأة خاصة..

ويزيد هذا الأمر أهمية فى بلاد مثل بلادنا تبحث عن حقها فى الحياة التى لا يمكن أن تقوم على أكتاف الرجل وحده، فما زالت بلادنا ترزح تحت نير التخلف الاقتصادى الساحق، ويتفاوت فيما بينها مستويات العيش إلى درجة يحول بينها وبين البحث عن صيغة (اقتصادية) تكون بديلاً عن الصيغة (الثقافية) أو (الإثنية) التى نبحث عنها كركيزة للوحدة بين أقطارنا العربية حيث لا يجب أن تتخلف التنمية عن العوامل الأخرى قط.

وكان أكبر مثال تمهل عنده بهاء الدين لتشخيص هذه الحالة المتردية عندنا فى علاقة المجتمع بالمرأة، هو مجئ (جميلة الجزائرية) فى زيارة إلى مصر عقب الإفراج عنها فى بداية الستينات، وقد بلغ اندهاشه مداه حين لاحظ أن من يحتفى بجميلة.. المناضلة العربية هم فقط هيئات نسائية، وجمعيات نسائية، لا يشارك فيه رجل واحد، فهذه المناضلة ليست بطلة نسائية فقط، وإنما هى (بطلة قضية قومية). (آخر ساعة٢٨/ ٦٢٠٤).

والقضية القومية ليست قطرية أو نوعية وإنما هى قضية سياسية

واجتماعية واقتصادية تتصل بالمستقبل العربى كله.

إن رمز جميلة هنا يرفض الانحصار فى الخندق النسائى، فالكفاح العربى ضد المستعمر الغربى ليس نسائياً، وإنما هو كفاح مجتمع عربى تشارك فيه المرأة بجانب الرجل سواء بسواء،

* * *

وقد تكون حياة بهاء الدين الخاصة مثالاً فريداً للوعى العربى مما يغرينا بالتمهل عندها قليلاً.

بدأ بهاء الدين حياته مفكراً واعياً، يرفض السقوط فى هذه الثنائية التي يسقط فيها المثقف العربى فى حيرته بين الفكر والفعل.

تزوج بطريقة راديكالية، حين التقى بفتاة تدرس بإحدى الكليات الجامعية، وقد تحددت العناصر الأولى فى هذا الزيجة فى تلك البدايات التى شغلت طويلاً بمناقشات عقلية واعية بين رجل وامرأة، وما لبثت أن خلفت الفترة العقلية إحساساً عاطفياً، اقتربت بهما إلى طلب الارتباط، ولأن أهل الفتاة كانوا ينتمون إلى دين غير دين الفتى – مسيحية – فقد رفضت الأسرة مثل هذا الزواج، الذى أعلن عن نفسه سراً حين أشهرا زواجهما بعيداً عن الأهل، وباقتناع ذاتى كامل.

وقد كان بهاء الدين واعياً لقيمة المرأة ودورها فى التنوير العربى إلى حد بعيد، مما يذكرنا بقصة زواج الشيخ على يوسف من صفية أحد البيوتات

الكبيرة، وهى قصة ذكرها لنا بهاء الدين بتفصيل موح فى كتابه (أيام لها تاريخ) مما يشير إلى العلاقة الوثيقة بين القصتين (*).

وقد كان هذا كله يشير إلى أمر هام، هو اهتمام بهاء الدين بالمرأة وهو اهتمام يرتبط باهتمامه بها على أنها تلعب دوراً كبيراً فى المجتمع العربى، وهذا الدور يتحدد فى الاقتصاد بوجه خاص، على اعتبار، أن العدل يلعب فى المجتمع العربى دوراً تنموياً رائداً، فى حين يظل التخلف الاقتصادى من أكبر العوامل التى تطرد الحب من المجتمع. (أفكار معاصرة ص ١٥٠).

بَيْدَ أن الاهتمام بدور المجتمع وتأكيد دور الرجل فى تنوير المرأة

(*) ثمة علاقة وثيقة بين أحمد بهاء الدين والشيخ على يوسف، وهذه العلاقة تتحدد فى شكل القضية التى تتقارب حوادثها بين كل منهما وإن اختلفت - بعد ذلك - بين فكريهما. كانت العلاقة الوثيقة بين الاثنين تشير إلى هذا التشابه. فكلاهما صعيدى من جنوب مصر، وكلاهما جاء إلى القاهرة، وكلاهما امتهن مهنة الصحافة على بعد النظر إليها بين العشرينات والخمسينات، وكلاهما اهتم بالقضايا العامة، وكلاهما - وهذا هو المهم - تقدم لخطبة فتاة، رفض أهل الأولى تزويجها لعلى اليوسف بتهمة العمل الوضيع والأصل المتدنى، فى حين رفض أهل الثانية تزويجها لبهاء الدين بتهمة اختلاف العقيدة - كانت مسيحية مصرية. وفى حين تنتهى قصة بهاء الدين بالزواج منها سراً، لا تنتهى قصة على اليوسف، إذ ترفع ضده القضايا من بيت الزوجة، ويثار الرأى العام، وتحدث ضجة كبيرة تنتهى بعد.... وإن لا تهمنا التفاصيل، فنحن نميل إلى رأى بهاء من أن على يوسف كان كاتباً رجعياً فى فكره والقصة فى كتاب بهاء «أيام لها تاريخ، دار الشروق ط ٩١/٢ ص ٤٩.

وتطويرها لا يحول دون التنبه دور المرأة نفسها، إذ لم يغفل دور المرأة فى كثير من الكتابات.

وقد راح يضرب أمثلة كثيرة لهذه المرأة العظيمة عنده. وهى العظمة التى تستمد من «الشعور بالمسئولية» والنهوض بها (أفكار ٣٣٣).

كما أن هذه المسئولية عنده لا يجب أن تكون مطلقة، وإنما لها درجات، والدرجة المثلى للمسئولية تقف عندها المرأة العظيمة، وراح يضرب أمثلة كثيرة لهذه المرأة العظيمة من أمثال سيمون دى بوفوار، كما أسهب طويلاً عن بياتريس إحدى قادة الفكر الاشتراكى الإنجليزى فى هذا القرن..

وفى مراجعة موقفه الأساسى من المرأة نستطيع أن نلاحظ أنه لم يحدد فقط حقوق المرأة، وملامح المرأة المسئولة فحسب، وإنما أيضاً، اتخذ موقفاً إيجابياً من هذه المرأة.

من هذه المواقف أنه دعا المرأة، ربما أكثر من غيره، لتأخذ المبادرة للتغيير، وتتخلص من السلبية التى تبدو بها المرأة فى المجتمع العربى، وخاصة حين دخل المجتمع العربى فى فترة السبعينات، حين كان لابد للمرأة أن تلعب دوراً إيجابياً فى تنوير المجتمع والدفاع عن قضاياها التى تتراجع، وقد وصل به الأمر إلى أنه لم يكتف بالكتابة عن حقوق المرأة، بل صاح بالمرأة الصامتة أن تكون إيجابية، وتتحرك فى الاتجاه الإيجابى.

وقد توجه فى إحدى المرات - كما سنرى - أثناء مناقشة قانون الأحوال الشخصية - بحديث عنيف عن نساء مجلس الشعب الصامتات ليتخذن موقفاً إيجابياً بدلاً من هذا الصمت عند العضوات، حين عرض

عليهن القانون الملغى للأحوال». (ى ٣٠/٧/٨٥).

وما لبث فى اليوم التالى أن بلور هذا الموقف فى اقتراح محدد قائلاً:

للنساء المطالبات بحقوقهن الشرعية، أن تتضافر كل الهيئات النسائية فى حركة لجمع توقيعات من النساء.. يمكن أن تصل إلى مليون توقيع. ولكن قد يكفى مائة ألف من مراكز تجميع النساء العاملات: وزارة التربية.. وزارة الصحة.. المصانع التى تكثر فيها نسبة العاملات، طالبات الجامعات. الأحزاب. وربات البيوت..، هذه الوثيقة حين تقدم إلى مجلس الشعب تصبح وثيقة تاريخية تثبت مطالبة المرأة المصرية بحقوقها الشرعية». (ى ٣١).

وعلى أية حال، فإن موقف بهاء الدين من قضية المرأة كان ينطلق أساساً من موقفه التنويرى الذى يقوم على الاجتهاد الإيجابى والذى يعتمد على العقل الذى يلتقى مع أحكام الشريعة - كما يؤكد كثيراً - وعلى اجتهادات الكثير من العلماء أو المجتهدين.

وسوف نعيد التعبير عن هذا الموقف حين نتمهل عند قضيتين محددتين من قضايا المرأة، أسهم فيها بهاء الدين إسهامه الأساسى، احداهما: قضية قوانين الأحوال الشخصية، والأخرى قضية الميراث.

* * *

قضية قوانين الأحوال

اتخذ موقف بهاء الدين من قانون الأحوال الشخصية شكلاً مؤيداً تأييداً مطلقاً، إلى الدرجة التى راح، بمفرده، يعارض الغاءه عقب حكم المحكمة الدستورية بإلغائه.

وهو القانون الذى سبق وصدر فى فترة أنور السادات وبإيعاز وتأييد من جيهان السادات.

ويبدو أن تأييده للقانون الملغى لم يرتبط أساساً بموقفه من السيدة جيهان رغم علاقاته الطيبة بها فترة تولى زوجها الرئيس، وإنما من قناعات شخصية يؤكدها موقفه التنويرى بشكل عام، إذ كان الوحيد ضد التيار الذى يتخذ هذا الموقف حين راحت التيارات الإسلامية تهاجم المشروع يؤيدها الأغلبية الساحقة من الرجال.

فى هذا الوقت راح بهاء يهاجم رجال الدين ورجال القضاء المعارضين للقانون القديم، وراح يحث المرأة إلى درجة التعريض بموقفها السلبى، وراح يهاجم الموقف الفكرى والجماهيرى العام الذى تأثر بالغوغائية على حد قوله..

«إن التنوير العقلى وفهم أمور الدين على وجهها الصحيح قد تراجع طويلاً أمام غوغائية هى سياسية أكثر منها دينية». (٨٥/٧/٤).

وفى هذا الإطار راح يتحدث عن حق المرأة فى الزواج وحقوقها إبان الطلاق، وبعد أن يتم، غير أن أهم القضايا التى عرض لها فى ذلك، كانت

قضية الاجتهاد للمرة ربما العشرين، متخذاً من مثل هذا القانون تكئة ليعيد الحديث عن ضرورة أن نأخذ من المذاهب والأقوال الفقهية والشعرية ما نراه مناسباً للحالة التي يوجد الإنسان فيها، ومحققة لمصلحة العامة في المجتمع الذي يعيش فيه حتى لو اختلفت معه المجتمعات والدول الأخرى.

وكان من المؤكد أن بهاء الدين وقف إلى جانب القانون الذي تؤيده النساء، والذي أُلغي لأسباب كثيرة ، لا يخفى الأسباب السياسية فيه .

وإن كان موقفه القائم على العقل والاجتهاد الشرعي يبعد عنه تهمة الانحياز السياسي أو الفكري لطرف دون طرف آخر.

قضية الميراث

وقد واصل سعيه إلى الاجتهاد في الفكر العربي مهتبلاً فرصة دعوة الجماهير إلى إلغاء ضريبة التركات، ليناقش قضية الميراث.

وقضية الميرات هنا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتشريع العربي، من منطلق أنها ترتبط بالفقه السني والفقه الشيعي ممايحول دون اتفاق أبناء العقيدة الواحدة.

لقد طرح القضية التراثية بهدف أن يقرب من المذاهب.

والقضية كانت تتحدد في الخلاف بين الفقهين –السني والشيعي –، فالمذاهب السنية الأربعة ترى أن وجود الإناث لا يحجب باقي التركة عن سائر الأقارب، الأعمام، وأبناء الأعمام.. إلخ، كما يحجب للذكر، في حين أن المذهب الشيعي يساوي بين الذكر والأنثى في هذه النقطة بوجه خاص،

أى أنها كالذكر فى أنها تحجب من يحجبهم الذكر، فهى تأخذ النصف بحق الميراث المباشر، وجزءاً آخر بحق «الردُّ»، أى أنه ليس لها أى أخوة ذكور.

ورغم أن موقف بهاء الدين من القضية يرتبط بعرضها للاجتهاد، كما يذكر لنا أكثر من مرة، فإنه ميله إلى الفقه الشيعى لا يمكن اخفاؤه .

يبدو هذا فى عرضه للقضية لأول مرة بشكل لا يجرؤ عليه البعض، لقد طرح القضية للاجتهاد الحر سائلاً «لماذا لا يفتينا فقهاؤنا.. بتغيير هذا الاجتهاد» . (ى ١٨/١٢/٨٨) ، وفى غضبة من الموجة العنيفة التى هبت ضده ممن يرفضون ما يعرض رافعين لافتة «لا اجتهاد مع النص»،، يقول: «فالاجتهاد وارد إذا كان النص القرآنى غير قطعى الدلالة، أو الحديث النبوى مشكوكاً فى صحته» . (ى ٢٠ / ١٢) ثم فى تصريحه الواضح من أن استحسان حكم يأخذ به الفقه الشيعى من حيث المبدأ.. ليس جريمة ولا كفراً ولا يجوز رفضه لهذا السبب وحده .

ثم يضيف إلى ذلك عدة أمثلة سابقة بالفعل فى اليوميات التالية ليؤكد بها .

وعلى ذلك فإن الاختلاف عنده ليس فى استنباط حكم من الأحكام التى تعتمد على نص غير قطعى الدلالة والاختلاف، إنما هو دليل الحيوية الفكرية الواعية المتسامحة التى تؤدى إلى.. «طلب الحق» .

وحين يعرض للمذاهب الفقهية المعترف بها ومنها العديد من مذاهب الشيعة، يصل بسرعة إلى ارتباط ذلك بالفكرة القومية والحث على الوحدة العربية . يقول:

«يروى أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة فى

كتابه عن جعفر الصادق، مؤسس الفقه الشيعى، أنه فى الخمسينات، ومع هبوب رياح الوحدة العربية. والوحدة الإسلامية، أنه تحدث مع المرحوم الدكتور عبد الرازق السنهورى باشا فى موضوع وجوب تدريس المذاهب الأخرى المعترف بها: الشيعة الأمامية، والشيعة الزيدية لأنها فقه ضخم وهو المأخوذ به فى بلاد عربية إسلامية أخرى، واتفقنا على ذلك». (١٢/٢١).

ولا يهمنا تدريس مذهب الشيعة الأمامية فى الأزهر بعد ذلك من عدمه، إذ أن هذا الوعى العروبى بالتقريب بين المذاهب، فى وجود اجتهاد عربى يدرك الأخطار التى تحيق بالأمة العربية، إنما يعكس وعى أحمد بهاء الدين بذلك كله ويعمل له.

لم يكن يفرق بهاء الدين هنا بين فقه سنى أو فقه شيعى، اللهم إلا فى ضوء الاجتهاد الإسلامى القطعى بما يقرب بين الأقطار العربية، وبين المذاهب التى تزرع القطرية والطائفية بين أبناء القطر العربى الواحد.

يظهر ذلك فى إفساحه لمساحات كبيرة لأنصار الفقه السنى ممن هاجموه فى أكثر من موضع فى (يومياته) أو فى نقله لعديد من الصفحات التى تشير إلى الشيعة ومعتقداتهم من الأربعينات حتى اليوم بما فيه اجتهاد أئمته، وفى إدراكه أن الخلافات التى تبعد بين الطوائف والمذاهب الإسلامية• إنما هى (خصومات دنيوية سياسية). مفتعلة وحسب.

وهو، قبل ذلك وبعده، ما يمنح المرأة العربية حقوقها المنتزعة منها قسراً بحكم مئات السنين التى عاش الوطن العربى فيها فى متاهة التخلف والبعد عن جوهر الدين الصحيح..

الفصل الثالث

الدولة العصرية

كان هدف محاولات تحديث المجتمع العربى فى أى قطر عربى، هو محاولة بناء قومية عربية تقوم على أسس علمية تمكنها من تحقيق أهدافها وترسيخ وجودها.

ومن ثم، فإن الدعوة إلى العلم و(الدولة العصرية) فى هذا العالم لم تكن لتنفصل عن الدعوة للمشروع التنويرى العام الذى يقرب عناصر الوحدة العربية ويعمل على تأكيدها.

ورغم أن التقدم الحضارى كان هاجساً مسيطراً على العقل العربى منذ أمد بعيد، فإن هزيمة ١٩٦٧ كانت أكثر ما جسدته.

فمن بين تفسيرات ثلاثة للهزيمة: البعد عن الله –التفسير الدينى، والبعد عن التغيير الجذرى – التفسير الراديكالى – كان التفسير الثالث: رفض الواقع المتخلف وتدنى الوعى العلمى للإنسان العربى أكثر هذه التفسيرات شيوعاً.

وهذا التفسير الأخير يطوى فى طياته عدداً كبيراً من المثقفين العرب، لعل أهمهم كان أحمد بهاء الدين.

وأهمية هذا التيار الأخير – العلمى – تعود إلى أنه ربط بين الهزيمة وعدد كبير من السلبيات التى تتعلق بالتخلف الحضارى، كما أنه تنبه – مبكراً إلى سقوط الأيديولوجيات لصالح العلم، كذلك، لأنه استوعب العاملين الأخير فى المجابهة بيننا وبين الغرب – اليهودى، ومن هنا، دعا إلى ضرورة بناء دولة عصرية، تعمل على رقى الفكر العربى المعاصر بما

يقربه من الثورة المعرفية الهائلة الآن.

وتأسيساً على ذلك نستطيع الاقتراب أكثر من بهاء الدين.

لقد تلمس الاتجاه العلمى لتفسير أزمة الواقع العربى، ومن ثم، الانطلاق من التشخيص إلى التحديد، وهو ما يفسر دعوته إلى هذا الدولة العصرية على مدى الحقبة الأخيرة قبل مرضه.

أولاً

الفجوة الحضارية

«إن المشكلة بيننا وبين إسرائيل
هى فجوة حضارية،
ولن يتغير الصراع
دون سد هذه الفجوة»

كان التفسير العلمي يعيد التخلف العربى والهزائم المتتالية إلى هذه (الفجوة الحضارية) بيننا وبين الغرب.

ورغم أن هذا التفسير اتضح وتبلور أكثر - كما أشرنا - عقب هزيمة ٦٧ لدى عدد كبير من المثقفين كرد فعل للهزيمة والبحث عن تفسير لها، فإن أحمد بهاء الدين كان أول من تنبه إليه فى منتصف الستينات وإن لم تخطئ إرهاصاته قبل ذلك بكثير.

لقد كان أول من عبر عن ذلك فى كتابه الذى صدر عام ١٩٦٥ بعنوان (إسرائيليات) وأثار نقاشاً طويلاً وقت صدوره، وطبعت منه طبعات متلاحقة، وكان بين من لامه على صدور مثل هذا الكتاب وقتها أنور السادات وعديداً من سياسي مصر ومثقفيها، وعدد كبير من السياسيين والمثقفين من شتى أنحاء العالم.

وقد كان أهم ما يحتويه الكتاب - فضلاً عن شرح الأحزاب المختلفة فى إسرائيل، والتيارات السياسية المتعددة وأصولها وجذورها.. إلخ - هو أن

إسرائيل العسكرية لا تهمنا، وأن ما يهمنا فى المقام الأول يجب أن يكون «إسرائيل بمعنى التحدى الحضارى لهذه الأمة العربية». (إسرائيليات، دار الهلال، القاهرة، ٦٥ ص ٨).

ويتعرض للعجز والهزيمة الإسرائيلية إزاء إسرائيل فيفسره فى أننا كنا متخلفين، فلا بأس من أن نعترف بهذه الحقيقة، (ص ٤٦)، ويضيف فى عبارة طويلة:

«لابد أن نعترف أيضاً أن الصدام الذى وقع على أرض فلسطين ١٩٤٨، وما قبلها وما بعدها، لم يقع بين كذا ألف جندى عربى، وبين ألف جندى إسرائيلى. كلا. إنما كان الصدام بين أوروبا بقوتها الحضارية والمادية.. بسلطتها السياسية وخبثها الدولى من جهة، وبين العرب بنظمهم المفككة، ونظمهم الإقطاعية، وفقرهم المادى من جهة أخرى.

كان المماليك فى أواخر القرن السابع عشر أحسن من حكام العرب وملوكهم سنة ١٩٤٨، فالمماليك على الأقل قاتلوا قبل أن يهربوا بجريمتهم ومجوهراتهم تاركين الشعب الذى سرقون وأجاعوه بمفرده. أما فى سنة ١٩٤٨ فقد كان بعد الساسة العرب يلتقون بجولدا مائير، وموشى ديان فى السر لكى يخططوا معهما المعركة التمثيلية التى سيموت فيها آلاف الجند..

.. كانت الصهيونية - باختصار شديد - تمثل الغرب بكل قوته ،ومعرفته بأدوات العصر الحديث السياسية والعلمية والحضارية .. بينما كان الشعب العربى مختنقاً من الاستعمار الغربى ، ومن الأذناب المحليين،.. (ص ٢٥٣) .

لقد كان بحق أول من قال فى هذه الفترة أننا لا نحارب إسرائيل التى على الخريطة، وإما نحارب أمريكا وأوروبا والحضارة الغربية التى ليست إسرائيل سوى خنجرها المغموس فى لحم المنطقة العربية، كما أنه سوف يمر وقت طويل يسبقها تقدم حضارى لابد منه فى العالم العربى حتى نكون على مستوى أية مواجهة حضارية

ومن هنا، راح يحلل عناصر هذه الفكرة كتابة. ثم يصل إلى النهاية، ليقول:

،إن الثورة الصناعية.. والثورة الثقافية.. وإقامة مجتمع سليم عصرى متحضر، هى المعركة الجدية التى تحسم معركة هذه الأقدار المتصارعة فى مداها الطويل، . (٢٥٧) .

وهو ما أثبتتها حروبنا القصيرة أو الطويلة بعد ذلك مع إسرائيل.

ولا يخلو من معنى ما نلاحظه أنه بعد هزيمة ٦٧ مباشرة لاحظنا أن أهم

التفسيرات للهزيمة جاءت من التفسير المعرفى الذى أعاد الهزيمة إلى التخلف الحضارى والتكنولوجى بوجه خاص (*) فقد كان بهاء الدين – فيما يبدو – خلف الاهتمام بهذا الجانب والاهتمام به.

ومراجعة كتابات أحمد بهاء الدين حتى توقف عن الكتابة تماماً فى بدايات التسعينات، ترينا أنه لم يتخل عن هذا الرأى قط، وقد ردده فى أكثر من ندوة (كندوة معرض الكتاب المصرى فى يناير ١٩٩٠، ومحاضرة بفندق ماريون الأردن، ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩ .. إلخ، إذ كان رأيه يرد على شكل كلمات لا تتغير حروفها قط..

كان يقول:

«إن المشكلة بيننا وبين إسرائيل هى فجوة حضارية، ولن يتغير الصراع دون سد هذه الفجوة».

كان بهاء الدين يرى أن التقدم الحضارى المتوازى مع إسرائيل أو المتقارب معها هو السبيل الوحيد الذى سيضطر إسرائيل إلى العيش معنا،

(*) فى دراسة هامة بمجلة المستقبل العربى ١٩٨٦/٦/٦ للدكتور نخلة وهبة ص ١٨ بعنوان (نموذج من التفكير السلبى عند العرب أثناء الأزمات: اتجاهات بعض المفكرين العرب فى تحليل أسباب هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧) يلاحظ الدارس أن تفسير الهزيمة (المعرفية) تصل إلى ٢٦ بالمائة من المجموع العام، وهى أكثر أنواع التفسيرات تكراراً، خاصة وأنه يدخل فيها كل ما له علاقة بغياب أو حضور المعرفة وبالأنظمة أو الأدوات.. إلخ. وقد كان من بين المثقفين العرب ممن تأثروا بهذا التفسير: قسطنطين رزيق، وأنسى الحاج، ومنصور شليطا، وحسن صعب، وهشام شرابى..وغيرهم.

وبدون ذلك، فإنها سوف تردد ألفاظها المتغطرسة كسياسة اليد الطويلة أو التفوق العسكرى أو حتى التلويح بالقوة النووية.

وقد يكون من المهم هنا أن نوضح، أكثر، تعبير (الفجوة الحضارية) عنده، إذ أن ذلك لم ينصرف إلى القوى المسلحة النووية التكنولوجية أو المرتبطة «بالإله»، أو حتى الأدوات المعرفية المعاصرة، وإنما كان لا يفوته فى كل مرة التركيز على القيم الفكرية، ففى حين يتحدث عن التخلف الحضارى بمعنى التخلف التكنولوجى، لا يلبث أن يعود ليذكر سامعيه أن التخلف الحضارى يعنى، أيضاً، الصفات الخاصة بالحياة العقلية والفنية والأخلاقية.

وكثيراً ما كان يثير فى الوقت نفسه قضية العقل وحرية الرأى والتقاليد والفولكلور، فبدون هذه الثقافات والإنسانيات العربية لا يمكن إثراء حرية البحث العلمى والتقدم الحضارى.

ثم أمر آخر لم يتردد عن الإشارة إليه بدون حساسية وهو المفكر القومى.

إن مصر، هى أكبر الدول العربية التى يمكن أن تملك إمكانات ووسائل حضارية كثيرة فاعلة، فإذا أمكن لها أن تصل إلى الحد الأقصى من التنظيم والتعليم والخبرات الحضارية، يمكن القول كيف يصبح واقع بقية الأقطار العربية الأخرى، إذا استطاعت مصر أن تمضى فى طريق المعرفة إلى أقصاها، تستطيع أن تجر وراءها العالم العربى كله. (مايو ٢٥/١/١٩٨٢).

وما يجب ملاحظته ويحتاج تفسير، هو أن حملة بهاء الدين على الطريق

الحضاري، وإن بدأت قبل غيرها في البدايات الأولى من الخمسينات، فإن زخمها الكثيف وصل إلى أقصاه في الثمانينات.

ولهذه الملاحظة تفسير يرتبط بالفترة نفسها.

فقد لوحظ أن عقد الثمانينات هو العقد الذي شهد تصاعد المد السلفي إلى أقصاه، وهو العقد الذي بدأت تختفي منه، أو كادت، الدعوات إلى حرية الرأي و(الاجتهاد) واستخدام العقل وتلمس العلم.. وما إلى ذلك من سمات العالم المتحضر الذي نعيش فيه والذي تقترب القوى الاستعمارية منا في محاولة استخدام خبرات العلم والإعلام في المرحلة الجديدة.

وعلى ذلك، فقد قدر على أحمد بهاء الدين أن يعاود في ثمانينات القرن العشرين، ما سبق أن دعا إليه الشيخ محمد عبده قبل قرن من الزمان.

كان أحمد بهاء الدين يدرك تماماً أنه يدعو إلى المعرفة في عالم ذو أيديولوجية سياسية متعارضة، ووسط تيارات أيديولوجية أخرى - تسعى - مع مرارة الهزيمة التي لحقتنا لأكثر من مرة من إسرائيل - إلى التخندق في الماضي دون أي إطلالة على الحاضر، وقد انتشرت هذه الجماعات في الأقطار العربية، وليس مصر فقط، وقد كان أكثر إدراكاً لطبيعة هذه الجماعات، إذ أن الصراع الفكري الدائر في الثمانينات لم يجاوز التعصب، ومن ثم رأوا أن الجهاد هو التصدي لفضيلة التنوير العربي، إذ اعتقدوا خطأ أن التنويريين العرب هؤلاء (وقد أسموهم علمانيين أو دنيويين) هم

متحالفون مع الغرب، مما كان يلقى على عاتقه مسئولية أكبر (UNESCO).

ومن هنا، زاد تصدى بهاء الدين لمفهوم خاطئ من القيم تحمله هذه الجماعات السياسية السلفية، فضلاً عن التنبيه، في الوقت نفسه، إلى ضرورة التصدى لنوع آخر من القيم الغربية التى جاءت – خلال العدو الإسرائيلى – لتبقى..

وبذلك فإن الحديث عن الفجوة الحضارية لم يرتبط بالتحدى الغربى اليهودى فقط، وإنما من التحدى الداخلى، من ذواتنا نحن..

لم يعد الجهاد ضد الخارج فقط.. وإنما ـ أصبح – ضد الداخل، حيث الجهاد الأكبر..

ثانياً

الأيديولوجيا والتكنولوجيا

إن (دمقرطة) المجتمع الدولى
بالكيفية التى تريد بها
هذه الأيديولوجية أو تلك
تحكمه القدرات التكنولوجية العسكرية
التى تستخدم لصالح المنتصر دائماً.

كان أول من تنبه أيضاً إلى طبيعة الصراع بين الأيديولوجيا، فقد أشار منذ فترة مبكرة – منتصف الستينات – إلى أن الأيديولوجيات – رأسمالية أو اشتراكية – ستنزل عن عرشها، فسوف يستمر الصراع بينهما إلى أن ينتهى لصالح التكنولوجيا فى صورتها المعرفية.

وقد كان متأثراً فى ذلك بأفكار يوجين بلاك EUGENE, R. BLACK فى كتابه الذى عرف منذ بداية الستينات (ثورة التطلعات الكبرى) : THE REVOLUTION OF GREAT EXPECTIONS.

وقد راح بهاء الدين منذ عام ١٩٦٤، يبشر بذلك، مردداً ما ذهب إليه بلاك من أن الصراع النظرى بين العسكريين قد استهلك أغراضه، وأن المواطن الجديد بحكم التطور الرهيب فى وسائل المعرفة والاتصال، تجاوز طموح المطالب المتواضعة إلى طموح أكبر فى أن يناله شئ، من هذا التقدم التى يحتاجه. فالثورة الحقيقية هى (ثورة التطلعات الكبرى) –وهو تعبير بلاك – منتهياً من ذلك إلى أنه لن يكون للمعنى النظرى لهذه

الأيديولوجيات أية قيمة، اللهم إلا في حدود ما تحققه بشكل عملي وبشكل ملموس للإنسان.

وقد أكدز مراراً على أن النظام الذى لن يراعى حاجة الإنسان للرخاء والاستمتاع بتكنولوجيا العصر سوف يطويه التاريخ ويتعداه.

وظاهر هنا أن الهدف الرئيسى لأحمد بهاء الدين هو تغليب القيمة المحورية لديه -التعليم- على أية فكرة أخرى مهما كان بريقها، أو وعودها التى تمناها - فيما بعد - الناس.

ولأن طبيعة الدعوة كان يغلب عليها التجريد، فقد ثار عليه البعض، فوجد هجوماً عنيفاً لديه من بعض رموز اليسار، من أن التقدم التكنولوجى الخالص لا يجب أن يكون هدفنا الأخير، إذ يجب ضرورة الربط بين العلم، وما يجب أن يلعبه العلم فى قضية تحرير الشعوب العربية، فعاد بهاءالدين بمقالته (مطلوب دولة عصرية) يشير إلى أن العصرية هنا ليس العلم المجرد والفكرة النظرية، وإنما الإنسان وعاداته وتقاليده.. وما إلى ذلك بالهبوط إلى أرض المواطن العربى.

بيد أن مهاجميه لم يكتفوا بذلك، بل راح بعضهم - سعد كامل، (أخبار ١١ أغسطس ١٩٦٧) يشير إلى أن سباق التقدم فى العصر هو سباق تكنولوجى معاصر، ينطوى على عنصرين متلازمين، عنصر (فنى) و(تكنولوجى محض)، قابل للتصدير إلى كافة أنحاء العالم، بما فى ذلك المجتمعات المتخلفة.. وعنصر بشرى واجتماعى لا يتم بمجرد النقل من الخارج، بل هو فى المقام الأول نتاج التطور الاجتماعى الداخلى، لكل بلد

على حده، وهو أمر يحتاج إلى وقت طويل.

وقد تحددت القضية أكثر في المقارنة بين مواجهة التحدى الاستعمارى المتمثل في تفوقه التكنولوجي، والقوة العربية القائمة على أيديولوجية خاصة.

وهنا، تم الخلط بين المفهوم التكنولوجي الخالص الذى دعا إليه والأيديولوجية التي ظن خصومه أنها مستوردة من الخارج.

إذ أن بهاء الدين لم يقصد أن الأيديلويوجية الغربية - يمكن - في صراعنا معه - أن تعيننا عليه، حتى ولو ارتدت ثياباً وطنية، وقد كان في ذلك يطرح قضية التقنية بشكل مغاير، فالقضية عنده ليست تكنولوجية محضة في حين أن الأيديولوجية الخالصة بنا تكون غائبة، ولم يكن تعبير (الوعي السياسي) الذى تكرر لديه كثيراً إلا تعبيراً عن الوعي الذاتي بعيداً عن أى أيديولوجية لا تنبع من متطلباتنا أو تكويننا الفكرى.

ورغم أن بهاء الدين شغل بذلك فترة، بيد أنه عاد ليوضح الأمر بوضوح أكثر حين قال:

«لم أقصد أن تكون التكنولوجيا هنا تغنى عن الأيديولوجيا، في حين أن المقصود هو قول العكس تماماً: إن الأيديولوجيا أو المبدأ السياسى مهماً كان المبدأ الذى يحركنا، لا يغنى مطلقاً عن العلم والتكنولوجيا، بوصفها أدوات لا غنى عنها للتقدم الحضارى». (المصور ٣٠/١٠/١٩٧٠).

وعلى ذلك فقد برهن على احتفائه بالعلم وإن لم يغادر هذه الأيديولوجية التى تتمشى فى تحقيق أهدافنا، فجاء تشديده على التقدم الحضارى أو (الدولة العصرية) بالمعنى الشامل لها مما فهم منه تجريد يخرج عن قصده.

ومهما يكن، فقد كان بهاء الدين واعياً دائماً إلى ثورات المعسكر الشرقى وتفكك الاتحاد السوفيتى، ودخول الحرب اباردة إلى مناطق أخرى، فضلاً عن انتشار الثورات الوطنية فى العالم كله، والتى أخذت تطورها ودرجة اكتمالها بعد مرضه بعدة أشهر، فما كان يتوقف عن الكتابة فى فبراير ٩٠، وبعد عدة أشهر، حتى بدأ الغزو العراقى للكويت، ودخل العالم مرحلة جديدة، برزت فيها أمريكا وحلفاؤها لتسيطر على مقدرات العالم.

فقد بدا أن العالم يدخل مرحلة ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، واتحاد الألمانيتين، وتحالف الدول الغربية واليابان مع الولايات المتحدة، لتأكيد قوتها المعرفية المسلحة خاصة فى الشرق الأوسط.

وقد كان ذلك من أثره أن ينعكس على المثقفين المصريين ممن اقترنت رؤيتهم من طبيعة هذا الصراع الفكرى القديم بين المعسكرين، وأن اتخذت ساحة الخلاف بينهم مفردات التكنولوجيا أمام الديموقراطية (*).

(*) أثارت قضية التكنولوجيا والأيديولوجيا عدد من الصحف والمجلات العربية، لأهميتها، وشارك فيها عدد كبير من المثقفين من أهمهم د. سعد الدين إبراهيم، والمفكر محمد سيد أحمد، واستمرت بين شهرى مارس وأبريل ١٩٩٢، وإن خلفت أصداء لها بعد ذلك. وقد راح سعى الدين إبراهيم فيها يركز على أقر القيمة الفكرية- كالديموقراطية -

غيـر أنه من المحـقق أن الأيديولوجيـات كـانت قط سـقطت منذ وقت طويل، فى حين لم يسقط الصـراع بين الإنسـان والإنسان، وهو يأخـذ شكلاً مغايراً للشكل المعروف فى الاشتراكية أو الرأسمالية.

وقد تأثر أحمد بـهاء الدين تأثراً كـبيراً - فيمـا يبدو - بالتقدم المعـرفى والتكنولوجى المتقدم فى الستينات دون أن يتابع أثر ذلك - فيما بعد - فى حين كان قد أشار إلى سقوط الأيديولوجيا فى كتاباته فى منتصف الستينات أو قبل ذلك بقليل.

إن كتـاباته جـاءت كـرد فعل لكتـابات بلاك - الأمـريكى - فى وقتـها، ولم يتابعها لا فى الشكل العام أو التطور الموضوعى.

إن العـودة إلى ترديد هذه الأفكار لديه فى أكـثر من قطر عـربى (على

= - فى التـطور الحضـارى، فمن المؤكد أن الـرأسمـالية عنده ليست ضرورية، ولا هى حـافزاً أو ضمـاناً كـشرط للتقـدم، فقد كـانت ألمانيا النازية واليابان قبل الحرب العـالمية الثانية هما دولتين رأسماليتين متقدمتين اقتصادياً. ولكن فى غياب الديموقراطية انتكسا، وانهدم هذا التقدم الاقتصادى فى الحرى الثانية (أهرام ١٩٦٢/٤/٢)، فكان على مـحمد سيـد أحمـد أن يضـيف إلى ذلك قضـية مـثل العـدل، مبينا أن الصراع بين الأيديولوجـيا انتهى، غير أن القضية هى استخدام الدول الكبرى - المتقدمـة - أدواتها فى القضاء على العدل والحرية للشعوب الفقيرة التى لا تملك شيئاً من نتاج الثورة الصناعية الثالثة، مما ينتهى معه البترول عندنا، فضلاً عن سيطرة الدول الكبرى على المناطق الاستراتيجية فى بلادنا.

لم يكن مـوقف بهـاء المؤيد لعبـد الناصـر فى الفـترة الأولى - حـتى هزيمة ٦٧ - غـير تعبير عن قناعته وتكوينه الذاتى، .HusAzar, P.32

سبيل المثال انظر: الدستور، الأردن فى ٢١/١٢/٨٩) ترينا أن التكرار اقتصر على الفكرة الأولى دون أن يفصل استخدام التكنولوجيا ضد الدول الأقل قدرة فى امتلاكها، أو يتنبه إلى ذلك، ودلالة ذلك بالنسبة إلى الوطن العربى والإسلامى، فإن ثمة فارقاً كبيراً بين التكنولوجيا بمعناها المطلق وبين «التوظيف الرأسمالى للتكنولوجيا» كما عرفها الغرب ووظفها لصالحه ضدنا فى الصراع بين الغرب والشرق من أجل الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية.

وكان خير دليل على ذلك الطريقة التى انتصر بها الجانب الأمريكى - وحلفاؤه الغربيون - ضد الأقطار العربية، فمع الخلاف حول طبيعة الصراع العربى بمنطق لا يسلم به أحد، فإن الحرب التى دبرت لها أمريكا واستخدمات فيها كل الأسلحة الذكية، وكل انجازات التقدم التكنولوجى بما فيه الإنجاز العلمى المحرم كان أبلغ دليل على استخدام الإمكانات التكنولوجية العصرية ضد إرادة الدول النامية، أو الأقل مقدرة وعلماً من سواها.

وحرب الخليج ٩٠/٩١ ليست غير مثالاً بعيداً عن التعرض لطبيعة الصراع العربى فيها.

لقد كان المجمل الرئيسى لخطورة امتلاك أية أيديولوجية لأدوات تكنولوجية متطورة فى غيبة القيم الإنسانية هو خطورة الأيديولوجية التى تستخدم هذه الإمكانات،

ويوضح محمد سيد أحمد ذلك حين يقول - بعد حرب الخليج ٩٠/٩١-

إن ما يصلنا من معلومات تحمل فى طياتها رؤية الدول المتقدمة التى تعكس مصالحها السياسية والاقتصادية.

فالمعلومات المنقولة عبر وسائل الإعلام المعاصرة التى تحتكرها الدول المتقدمة لا تتسم بالموضوعية، وإنما بالذاتية والمصلحية. (نشرة: المجتمع المدنى.. ابن خلدون، القاهرة، يونيو ١٩٩٢).

وعلى ذلك، فإن (دمقرطة) المجتمع الدولى بالكيفية التى تريد بها هذه الأيديولوجية أو تلك تحكمه القدرات التكنولوجية العسكرية التى تستخدم لصالح المنتصر دائماً.

ثالثاً

الدولة العصرية

إن« الدولة العصرية»
هى البديل للعيش فى سلام
فى عالم اليوم..
وإن العمل لتكريس هذه الدولة
قمين بتهديد الواقع
الذى سيفرز الوحدة العربية

لم يظهر اتجاه أحمد بهاء الدين إلى (الدولة العصرية) والدعوة لها عقب هزيمة ١٩٦٧ فقط، وإنما امتد إلى الوراء ربما إلى نكبة ١٩٤٨، ووراء كتابه (النقطة الرابعة) الذى صدر بعد ذلك بسنوات.

فالمجتمع المصرى المتخلف الذى كان يواجه الاستعمار الأمريكى الجديد كان يحتاج إلى إنتاجية عالية تزيد من التنمية التى تقوم على المجتمع المعرفى، وطيلة الخمسينات وسنوات كثيرة من الستينات كان يدعو إلى المنهج العلمى والأخذ بالمعرفة.

بيد أن هزيمة ٦٧ - بوجه خاص - زادت من ترسيخ قناعاته الأولى، مضيفاً إليها تعميق الحس القومى، بإن حلم الوحدة العربية لن يتحقق إلا بالبناء العلمى و(الدولة العصرية)..

وقد تعددت ركائز هذه الدولة عبر سنوات، وعبر عدة عناصر يمكن

رصدها قبل هزيمة ٦٧ وبعدها.

ويمكن ترتيب هذه العناصر على النحو التالى:

- العلم

كان يدرك جيداً أن تحقيق دولة الوحدة العربية لن يتم بالتمنى أو العواطف، وإنما باستخدام أدوات العلم وتطبيقاته.

وقد أسهمت تجربة الوحدة مع سوريا ٥٨ - ١٩٦١، وفشلها، وأيضاً محادثات الوحدة الثلاثية بعد ذلك بين مصر وسوريا وتعثرها، والعراق فى تطوير فكره وإنضاجه، ففى حين كان يجتمع جمال عبدالناصر وقادة كل من سوريا والعراق لتحقيق الوحدة راح بهاء الدين يكتب «المطلوب منا، ونحن مزودون بكل حرارة الجماهير، أن نفكر بكل هدوء المعمل. (أزمة اتفاقية الوحدة الثلاثية، ص ٣٦).

وفى موضع آخر يعمق هذا المفهوم فيقول: «إن الحل السياسى وحده لا يكفى، إذا لم يكن مقروناً بالتأمل الكافى والإعداد العلمى المستفيض للحل الاقتصادى والاجتماعى والنفس». (السابق ص ٢٦).

فالعلم عند بهاء الدين هو شرط واجب للتنمية التى ستؤدى - فيما بعد - إلى تهيئة الظروف لإقامة وحدة سياسية أو اقتصادية، والتصدى لأعدائها.

راح يفصل ذلك أكثر حين قال إننا بالعلم نستطيع تهيئة كل الظروف للوحدة، فنسعى لبناء الدولة الاشتراكية والديموقراطية والعصرية، وأن

نضع سياسة تعليمية وتربوية» (المصور ٤/٤/٦٩)

الأكثر من ذلك أنه رأى أن العلم وتلمس المنهج التجريبى فى فهم الأمور يكون أكثر من غيره تفسيراً للخلافات بين الأقطار العربية، كما أنه يسهم فى ملاحظة الواقع، ودراسة الاحتمالات، ثم البحث عن طريقة مدروسة للسيطرة عليها وتوجيهها، ثم (التصرف) بناء على ذلك للخروج من أية أزمة بين الأشقاء.

وقد تصدى على هذا النحو للزعم بأن ما يحدث لنا من فرقة وتشرذم إنما يعود إلى نظرية «المؤامرة»

لقد رسخ فى إفهام الكثيرين أن المخابرات الأمريكية تدير المؤامرات، والسياسة الرجعية تسعى إلى عزل لبنان أو ضرب العناصر العربية المخلصة فى اليمن الشمالى، كما ضرب مثلاً محدداً لهذا الأسلوب الخاطئ الذى نفهم به الأمور، حين لاحظ أنه لا يعقد مؤتمر عربى ويكون قد سبقه الفهم العلمى لرسالته، أو يوفر له أسباب النجاح قبل إقامته، وإنما يمضى كل شئ فى السرعة التى يعد بها المؤتمر، وتستمر السرعة وعدم التريث ليصدر عن المؤتمر أموراً غير مدروسة بالقدر الكافى.

كذلك كان بهاء الدين واعياً لأثر الإعلام والتحديث.

فبالنسبة للإعلام أشاد أكثر من مرة إلى أن الصحافة والإعلام يمكن أن يلعبا دوراً كبيراً فى تأكيد تحقيق الهدف القومى، وقد ردد ذلك لأكثر من مرة فى مؤتمر الصحفيين العرب الثانى الذى عقد فى ١٠ فبراير ١٩٦٨ على اعتبار أن الإعلام يلعب دوراً إيجابياً فى السعى لدخولنا كأمة واحدة

فى عالم اليوم.

وأما التجديث فإنه لم يتردد فى ذكر تطبيقات العلم وتكنولوجياته، على أنها أهم الوسائل الناجحة في تقدمنا، وقد خصص مقالات و(يوميات) كثيرة تحت هذا العنوان (الثورة الالكترونية) (ى ١٠/٨/٨٢).

راح يدعو إلى مشروع حضارى جديد لا يجب أن تغيب عنه هذه الثورة، فأى مشروع حضارى فاعل لابد له من سيقان تحمله وتجرى به إلى الأمام، وهذا المشروع يحتاج إلى التكنولوجيا فقط بمعناها المعروف، «التطبيق العلمى للمعرفة..» وإنما الأخطر من ذلك: ثورة العقل الاليكترونى التى صارت محور الصراع الدولى، فأوروبا الغربية تصارع الآن لكى تلحق باليابان وأمريكا، وإذا لم تفعل فهى ترى بحق أنها ستصبح عالماً ثالثاً متخلفاً بالنسبة لها.

كان وقت طويل قد مضى على قناعته أن الأيديولوجيا انتهى عصرها، وأصبحنا الآن فى عصر مجتمع معرفى يعيش مجتمع يعرف بمجتمع ما بعد الصناعة، لأنه مبنى على أحداث ألوان المعرفة التى برعت فيها اليابان بدون قوة عسكرية، وتسعى للسيطرة به على العالم كله بما فيه الدول الكبرى التى تحمل فى مخازنها أحدث الأسلحة.

ويلاحظ هنا أنه لم يتوقف طيلة الثمانينات عن رفع شعار مثل (كمبيوتر لكل مدرسة ثانوية) مؤكداً على أن الكومبيوتر وأجهزة المعلومات والعلوم الأخرى كالهندسة الوراثية، كمفاتيح، تختصر الوقت، وأن المجتمع المبنى على الإنتاجية من مواد خام، وأس مال.. وما إلى ذلك يوشك أن يمضى

الآن ليحل محله مجتمع آخر أكثر تقدماً، يقوم على المعرفة والإعلام.. وبذلك، فإذا أضفنا إلى العناصر التقليدية رأس المال الطاقة والمعرفة نكون قد دخلنا إلى العصر الحديث.

ومن المؤكد أنه كان واعياً إلى أن العلاقة بيننا وبين الغرب وإن اتخذت من الجانب الآخر، البحث عن البترول والمناطق الاستراتيجية، فإن وسيلته إلى ذلك تظل القوى المعلوماتية والإعلامية المتقدمة، فاستطاع بذلك أن يصل إلى أهم مفاتيح الصراع كما حدثت - فيما بعد - إبان أزمة الخليج حيث استخدمت أمريكا وحلفائها أحدث ما فى الترسانة العسكرية بهدف واحد، هو ضرورة تدمير كل الإمكانات للقدرات العسكرية العراقية، وهو ما تنبهت إليه أغلب الصحف الغربية نفسها (على سبيل المثال جريدة هيرالد تريبيون فى ١٤ ديسمبر ١٩٩٠، مقالة وليم سافارى).

وهو ما يصل بنا إلى عنصر آخر يتمثل فى أنظمة التسلح.

- أنظمة التسلح

من غير الممكن أن تتأهب أية دولة للدفاع عن نفسها فى حين تكون تابعة للغرب فى التقنية العسكرية، إذ أن هذه التبعية مما يسلب الدولة استقلالها وأمنها القومى، ومن أهم كتاباته بعد هزيمة ٦٧ ما كتبه تحت عنوان (تقرير من جبل الحديد).. وجاء فيه:

«إن المفكرين والعلماء الأمريكيين الذين اجتمعوا سرًا فى قرية «جبل الحديد» اتفقوا على تعريف المجتمع العصرى

بأنه المجتمع المستعد للحرب: إشارة ألى أن نوع الكفاءات، ونوع الصناعات، ونوع التنظيم، ونوع العلاقات التى تبنى المجتمع العصرى، هى نفسها التى تحدد كفاوة المجتمع للحرب، . (المصور ٨/٦/٦٨) .

لقد انطلق من حقيقة رددها هؤلاء المجتمعون وآمنوا عليها، هى أن (القدرة التنظيمية) والقيادات الكفء لها، أم لا يمكن أن يتوفر فى الجيش منفصلاً عن الحياة المدنية ، وكفاءة إدارة القتال وقياداته، جزء من الكفاءة العامة فى إدارة المصانع – مثلاً – وقيادته.

كما راح يعترض على رأى من يرى أن المجتمع يكون عصرياً أو متحضراً، إذا استطاع أن يحصل على منتجات العالم الحديث من منتجات وطائرات وما إليها.. وهذا وهم كبير..، وإن الحصول على منتجات العصر الحديث حتى الجوهرى منها شئ.. والقدرة على إنتاجه، واستخدامه أو السيطرة عليه والتلاؤم معه شئ آخر. ((المصور ٣٠/ ١٠/ ١٩٧٠) وهو يقطع بأهمية القوى التنظيمية المحلية.

غير أنه اقترب أكثر من (الدولة العصرية) حين راح يحدد لها عناصر إضافية ثابتة، أولها التنظيم، وثانيها: القيم ، وثالثها: التضحية..

وهو ما نتمهل عنده أكثر

- التنظيم

أما وقد بدا أهمية العلم واستخدام التنظيم المسلح، والسيطرة عليه، فإن اكتمال دائرة العيش العصرى لا يتم إلا بوجود التنظيم لكل ما لدى الدولة، بشكل علمى، إذ أن التنظيم يحدد كذلك - وقد كنا عقب هزيمة ٦٧ - عصرية الدولة المحاربة، كيف؟ يجيب:

«إن الدولة المحاربة فى حد ذاتها هى الدولة التى تستطيع أن تصل فى ساعة الصدام إلى أقصى درجات التنظيم، بحيث تستطيع أن تضع أكبر قدر من طاقتها بأقل درجة من الارتباك فى كفة القتال.. والطاقة على القتال هى امتداد طبيعى للطاقة الطبيعية لكل شعب، خصوصاً فى الحرب الحديثة». (أبعاد المواجهة العربية الإسرائيلية، بيروت ٧٢، ص ٢٦٣).

هذا يعنى تماماً أن الأمم التى توجد بها نسبة عالية من الأمية وزيادة النسل وتضخم البيروقراطية، وما إلى ذلك لا تستطيع أن تقوم بتنظيم حياتها بشكل يمكنها من التصدى لأى قوة خارجية، فالكفاح الداخلى ... «جزء مكمل - ومساعد - لكفاحها من أجل النصر». (المصور ٣٠/١٠/٧٠).

ومن هنا، فالخروج من هذه الهوة يستلزم أن يكون لدينا عدد كبير من العلماء والعقول الألكترونية والكمبيوتر.. وما إلى ذلك، حينئذ نستطيع أن نستفيد بذلك كله بشرط عامل التنظيم أو بخطة «تصويب»، إذ تصبح هذه العملية من أهم عناصر الدولة العصرية، وهو ما يصل لتعريف سياقى

للدولة العصرية فيرى أنها «التى تأخذ بالعلم فى تنظيم علاقاتها، وفى تنظيم إنتاجها، بحيث ينعكس ذلك كله فى علاقاتها مع الآخرين».

وعلى ذلك فهو يعيد جزءاً كبيراً من تخلف الدول العربية بافتقاد التنظيم، وهو ما يفسر تكرار مرادفات العصرية والتقدم فى عنواناته، وعلى سبيل المثال (مطلوب دولة عصرية)، و(الدولة العصرية .. والتقدم الحضارى) . و(إعادة النظر فى التكوين الحكومى) .. وما إلى ذلك.

– **القيم**

وكما نرى فإن بهاء الدين يشير إلى تكوين الدول العصرية بما لا يخرج عن التكنولوجيا الخالصة، مضيفاً إلى ذلك العامل الأخلاقى، فهو يحذرنا أننا لا نستطيع شراء المعدات الحديثة من آلات ومصانع .. وما إلى ذلك دون أن تتحول هذه الأدوات إلى قيم وعادات ترتبط بالتراث ولا تنفصل عنه.

وهنا يصل إلى مفهوم أو عنصر آخر للدولة العصرية، فإذا كان قد أشار – قبلاً – إلى العلم وأدواته وتنظيمه .. وما إلى ذلك، فإنه يضيف هنا شيئاً آخر:

«العصرية هى الإنسان .. فى العادات والتقاليد والأخلاقيات فى العلاقات الاجتماعية وفى تنظيم العمل وفى دفع ضريبة التنظيم العصرى» . (أبعاد ص ٢٦٣) .

وهو يسهب طويلاً حول هذا العنصر بالذات حيث يدور العمل المشترك

فى شئ أقرب إلى الديموقراطية بين الجميع، وأصلا بين القيم الاجتماعية المعروفة والقيم السياسية من أجل بناء هذه الدولة.

بيد أن ذلك كله ليس سهلاً، وإنما يحتاج جهداً كبيراً.

- **التضحية**

وهذا الجهد لابد أن يكون مشتركاً ويأخذ شكلاً واعياً مما ينفض عن أصحابه القيم السلبية، وهى مهمة قد تبدو صعبة لأنها تحتاج فيها إلى قدر كبير من التضحية يفصلها على النحوالتالى:

> **«التضحية بقبول منطق المجتمع العصرى، والدولة العصرية، قد يكون أصعب من التضحية بالنفس.. لأنها تضحية مستمرة بطيئة، يومية، يدفعها المرء من تغير أفكاره وعاداته، ومن وضعه الشخصى، ومن امتيازاته.. إلى آخره..». (أبعاد ٢٦٤).**

ومن البدهى هنا أن هذا التنظيم وتلك التضحية لا يطلبان بشكل مجرد، وإنما يطلبان من أجل بناء الوطن القومى العربى، فهو لا ينسى أن يشير إلى التشرذم وخطورته، والترهل وأضراره، والجهل وما يؤدى إليه من البعد عن هذه الدولةا لعصرية، وفى هذا الصدد لا نستطيع مقاومة إغراء فقرة طويلة يشدد عليها، وتجئ على هذا النحو:

«إن بقاء أوضاع تقوم على الطائفية أو خلافات مع أقليات قومية كما فى بعض البلاد العربية – مثلاً – ليس ممايناسب الدولة العصرية والمفاهيم العصرية. أن ما نراه من تبعثر وتشرذم جماعات سياسية إذا قرأت برامجها وأفكارها لم تجد بينها خلافا،إنما الخلاف الشخصى يزكيه الطموح الشخصى أو عدم الرغبة فى التفاهم والتنازل، ليس وضعاً عصرياً يناسب حياة سياسية عصرية: عليها أن تتخطى العقد والرواسب القبلية لتتفرغ لماهوأهم.

إن ما يسود فى الحياة العربية من تقديم الشخصية على الموضوعية، ومن الدور الكبير الذى تلعبه المعرفة والعلاقة الشخصية والألفة الفردية فى وضع الناس فى هذا المكان أو ذاك، قبل الصفات الاجتماعية والموضوعية ومدى الالتزام بالقضية، ليس جواً يناسب دولة عصرية». (أبعاد، ص ٢٦٤).

وإذن، فإن التضحية تعنى السعى إلى التغيير بدأب للقيام بدور إيجابى فى بناء (دولة عصرية) عربية، وهى دولة لا تستمد أهميتها من شكلها العام، وإنما من الدور الذى يجب أن تقوم به.

وهو مايصل بنا إلى استنتاجات أخيرة:

١ – التنوير العربى يتأثر – دون شك – بحركة التنوير الغربى فى القرن ١٨، غير أنه من المؤكد أن حركة التنوير العربية تخضع لقوانين المجتمع التى تستنبت فيها وتتبع لها.

٢ – ثمة علاقة أكيدة بين تحدى الصهيونية – الغربية واستجابة الوعى العربى.

وهو تحد يبدأ من قيم العقل ويصل إلى قيم العلم و«الدولة العصرية» ماراً بقضايا عديدة كالاجتهاد، والحرية، والشورى، وحرية المرأة، وتحرير الإنسان العربى من وهم القطرية والمحاور العربية فى الثمانينات.

٣ – الوعى العربى اتخذ عند بهاء الدين شكلاً جديداً من أشكال تفهم طبيعة المرحلة، فراح يفرق بين فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن الدنيا ليستطيع بناء (صيغة) عربية وعلمية تنبع من التنوير وتصب فيه.

وبهذايفك الاشتباك مع القوى السلفية الظلامية.

٤ – كان بهاء الدين أول من تنبه إلى أن الصراع بين الوطن العربى وإسرائيل ليس عسكرياً، كما يبدو، وإنما هو صراع حضارى يستوجب سد (الفجوة) الحضارية، ليمكن حل هذا الصراع بين الأنداد..

وهو ما تجسد أكثر بعد ٦٧.

٥ – كان بهاء أول من تنبه إلى أن الصراع بين الأيديولوجيات سوف ينتهى لصالح التكنولوجيا، فالعلم – وليس الفكرة المجردة – هو الذى سيمكن الإنسان من الحياة كما يريد،

إن هبوط الأيديولوجية من عرشها رهين بصعود العلم والإيمان به.

٦ – كان من بين القلائل، وربما أولهم، من أدرك أن (الدولة العصرية) هى البديل للعيش فى سلام فى عالم اليوم، سواء إذا انطلق الأمر من الدرب أو السلام، إن العمل لتكريس عناصر هذه الدولة قمين بتمهيد الواقع الذى سيفرز الوحدة العربية التى ننتظرها.

الفصل الرابع

المثقف العربى والسياسة

أولاً

المثقف وعبد الناصر

«وغضب عبدالناصر
من بهاءالدين،
لكنه ردد أكثر من مرة:
لا تقبضوا عليه!

- لا تقبضوا عليه (*)..

قال عبد الناصر لمن جاء يطلب القبض على أحمد بهاء الدين..

وكان بهاء الدين نقيباً للصحفيين فى هذا الوقت بعد هزيمة ١٩٦٧ بعدة

(*) لم يكن موقف أحمد بهاء المؤيد لعبد الناصر فى الفترة الأولى -قبل هزيمة ٦٧- غير تعبير عن قناعاته وتكوينه الذاتى، وهى سمات لم يكن لينتمى صاحبها -كما يزعم البعض-- إلى مدرسة «العصا من الوسط»- ناصر النشاشيبى، حضرات السادة ...، القدس ١٩٩٥ ص ٧٢- وإنما هى مدرسة ترى فى تأييد الثورة واجبا، انطلاقا من الاقتناع بالواقع. ومن هنا، فإن بهاء الدين حرص على أن يكون هادئاً بتكوينه مؤيداً، فى فترة عبد الناصر، دونما جلبة، فقد كانت قرارت الثورة طيلة الخمسينات والستينات هو ما يسعى إليه المثقف القومى، فى رأيه.
وهذا الموقف يفسر كيف دافع المثقف عن قرارات عبد الناصر وخطواته دونما اختلاف كبير، إذ تحدد موقفه من منطلق أنه لم «تكن له بواعث شخصية بقدر ما كان يرى فيه دفاعا عن إيجابيات الثورة ورموزها، وهو يرى فى الإساءة إليه إساءة للعرب وتاريخهم»، وهى ملاحظة أشار إليها أكثر من باحث، فبهاء الدين دافع عن عبد الناصر حيا وميتا، =

أشهر، وكان قد أقدم على الاجتماع بمجلس نقابة الصحفيين على إثر مظاهرات فئات عديدة في مصر عام ١٩٦٨، ثم أصدر بياناً أثار فيه مراكز السلطة..

وقد وصل تأثير البيان إلى درجة أغضبت عبد الناصر كثيراً، ومع ذلك، فإنه رفض أن يستجيب لسامي شرف ليقبض على أحمد بهاء الدين..

لكن، قبل أن نتوقف عند هذا البيان لابد أن نشير إلى هذا الواقع الحزين في تاريخنا العربي عقب هزيمة ٦٧ مباشرة..

(٢)

كانت هزيمة ٦٧ قد صكت أسماع الجميع.. فلم يمض وقت كبير حتى بدأت الجماهير تعبر عن غضبها على رموز هذا العهد التي كانت وراء الهزيمة..

وراح الأدباء في «مؤتمرهم» - عام ١٩٧٨ - يعبرون عن غضبهم الشديد..

- ودافع عنه إبان حكم السادات خلال (١) مواجهة الحملة الشخصية ضد عبد الناصر (٢) الدفاع عن سياسة الثورة المستقلة و(٣) في عصر الانفتاح.. إلخ. وهو دفاع يختلف عنه حين بدأ هجومه -كم سنرى- على النظام عقب هزيمة ١٩٦٧، وليس على عبد الناصر تحديدا، وهو ما دفعنا للتوقف أكثر عند الفترة التي أعقبت رحيل عبد الناصر انطلاقا من أن تحديد المثقف لموقفه بدأ قبل ذلك.

وراح العمال يخرجون فى مظاهرات عنيفة غضباً على التسيب والفساد.

وتوالى سيل من الغضب والمظاهرات والبيانات فى هذا الفترة من أواخر فبراير ٢١ – ٢٨ عام ١٩٦٨ دون أن تنجح الدولة فى استيعاب أية فئة أو السيطرة على الفوران الذى بدأ ينتقل إلى كل شوارع القاهرة وميادينها..

ورغم اجتماع مجلس الشعب (وكان يرأسه حينئذ أنور السادات..) ولقاء العديد من المسئولين بالمتظاهرين، فإن الدولة لم تستطع السيطرة على هذه الأمواج، وهو ما كان يشكل خطورة على النظام، خاصة، وأن بعض رموز هذا النظام، حاولت التآمر على النظام نفسه، فوجد عبد الناصر نفسه أمام مشكلات كثيرة تهدد بإحداث فوضى كاملة.

فى هذا المناخ، فوجئ عبدالناصر ببيان نقابة الصحفيين، بما فيه من لهجة غاضبة، وإلقاء بالمسئولية على عديد من رموز هذا العهد..

ورغم أن كل الاجتماعات – بما فيها اجتماع مجلس نقابة الصحفيين – كانت تحتج على النظام وهى تعلن – فى الوقت نفسه – السير قدماً فى طريق تحقيق المطالب التى رفع رأيتها جمال عبد الناصر، فإن النظام كله كان يهتز أمام زلزال الغضب الجماهيرى فى ذلك الوقت.

وهو أكثر ما أقلق جمال عبدالناصر.

(٣)

ومراجعة فقرات هذا البيان / المذكرة يمكن أن نحس بهذا القلق الذى اعترى جمال عبدالناصر.

لقد احتوى البيان على ثمانى فقرات تتحدث بشجاعة فائقة عن ضرورة الإسراع فى حساب المسئولين فى كافة القطاعات (الفقرة الأولى)، فى حين يدعو إلى ضرورة إعادة التنظيم السياسى (فالإرادة الشعبية تريد التغيير (الفقرة الثانية)، كما أن البيان لا يتردد فى هذا الوقت العصيب عن إدانة الانحراف غير المسئول مع الوضع فى الاعتبار أن هذه المظاهرات لا تخرج عن الصفة الأساسية للثورة أو عن شعارات جمال عبد الناصر، وهو يحرص فى بقية الفقرات على التأكيد على وحدة الدولة الداخلية..

غير أن أهم مطالب البيان تتحدد وتتركز فى عدة نقاط يتطلب الأمر الإسراع فى تنفيذها.

وهذه المبادرات - كما هو فى البيان المرفق - تتحدد فى مرة حول الإسراع فى محاسبة المسئولين عن النكسة (أولاً)، كما تركز فى ثلاث مرات منها على إعادة النظر فى قضية الديموقراطية والحث عليها صراحة (ثانياً وثالثاً ورابعاً)، كما تشدد على إصدار قوانين للحريات ورفع الرقابة على الصحف فى الوقت نفسه (خامساً)..

وتأتى كل هذه المطالب، فى هذا الاضطراب، لتؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، على هذا الوعى النقابى والصحفى الذى يمثل قمته الآن أحمد بهاء الدين..

ويأتى هذا كله بشكل حاد وصريح وبدون إنكار للبديهيات..

كانت الفترة لا تحتمل غير التوجيه والكشف..

غير أن ذلك كله كان قد آلم عبدالناصر، فقد كانت مراكز القوى - التى يمثل قمتها حينئذ عبدالحكيم عامر وشلته - توشك أن تتخذ إجراءات ضد عبدالناصر نفسه، وفى الوقت نفسه، فإن هذا البيان كان يحول دون حرية حركة عبدالناصر فى الاتجاه المضاد لهذه القوى..

أو على الأقل، هو ما أحس به عبدالناصر وعبر عنه فيما بعد..

(٤)

فى هذا الوقت تبارت أكثر من جبهة للوشاية بأحمد بهاء الدين، خاصة وقد أحس الجميع مدى حرج عبدالناصر، وموقفه السلبى..

لكن عبدالناصر رفض أن يقبض على نقيب الصحفيين أو أى من أعضاء مجلس نقابته.

وقد مثل هذا الموقف عجباً كبيراً بالنسبة لى، لم أخلص منه إلا بعد أن قابلت أحمد بهاء، وسألته، فراح يفسر لى الموقف، وهنا سأنقل من محضر نقاش كنت قد أجريته معه فى ١٨ مايو ١٩٨٧، نقرأ:

«عبدالناصر كان قد غضب جداً، وتصادف أن التقى بسامى الدروبى بعد أن مرت الأزمة، وكان سامى الدروبى أكثر قرباً لعبدالناصر من أى سياسى آخر، وأقرب الأصدقاء

إلى قلب أحمد بهاء الدين فى الوقت نفسه:

قال عبدالناصر إلى الدرويى مشيرًا لبهاء:

- كنت غير متوقع من صاحبك كدا!!

- عمل إيه يا ريس؟

- أجاب عبدالناصر بسرعة..

- البيان اللى طلع به، كان طعنة خنجر فى ليلة مظلمة..

وحين اندهش الدرويى مما حدث، فقد كان لا يعرف ملابسات هذه الفترة، انبرى عبدالناصر لتوضيح ذلك كله، ثم قال له:

- علمنا كل النقابات ألا يعملون اضطرابات، أو يخرجون بمذكرات، أو أى شئ يؤثر على أدائنا ضد المظاهرات، ومع ذلك، راح هو فأصدر بيانًا.

قال الدرويى:

- ذكرت يا ريس هذا البيان، لكنى أذكر أيضًا، إنه لم يكن أكثر من بيان ٣٠ مارس الذى أخرج للجماهير هذه افترة، يكاد يكون المضمون واحدًا..

قال عبدالناصر:

- بهاء لم يكن يعرف ظروف الفترة.

ويقول هنا أحمد بهاء الدين، وكأنه يستعيد حقيقة غائبة عنه:

- طالع إن الدولة كانت تنظر إلى الحديث بمنطق آخر، وأكثر ما يؤلمنى الآن، أن عبدالناصر قال للدرويى قبل أن يفارقه أن يذهب إلىّ، ويقول لى:

- لماذا فعلت ذلك فى مثل هذه الليلة؟

ومع ذلك، فأنا أذكر جيدًا قول عبد الناصر لمن طالب بالقبض علىّ فى ذلك الوقت، وفى مرات أخرى مشابهة:

- لا تقبضوا عليه..

محضر اجتماع مجلس نقابة الصحفيين

الجلسة ١٨

المنعقدة في الساعة ١٢,١٥ ظهر الأربعاء ١٩٦٨/٢/٢٨

عقد مجلس نقابة الصحفيين جلسة الساعة ١٢,١٥ ظهر الأربعاء ١٩٦٨/٢/٢٨ لمناقشة الأحداث الأخيرة برئاسة الأستاذ أحمد بهاء الدين نقيب الصحفيين، وحضور الأساتذة كامل زهيرى، وفتحى غانم، وعلى حمدى الجمال، ومحمود سامى، وسعيد سنبل، ووجدى أبو المجد، ومنصور القبى، ومحمود المراغى، وسامى داود، وصلاح الدين حافظ - واعتذر الأستاذ طلعت شعت.

وقد جرت مناقشة واسعة حول الأحداث الأخيرة وإعداد مذكرة أو بيان عن الوضع السياسى الراهن ودور الصحافة فى هذه المرحلة والعبء الملقى عليها.. ودور المجلس وموقفه من حرية الصحافة والرقابة خاصة أن المجلس سبق له أن ناقش موضوع الرقابة على الصحف مع المسئولين وطلب فى مناقشة رسمية رفعها الأمين العام المساعد للاتحاد الاشتراكى فى ١٩٦٧/٩/٢٧ بضرورة رفع الرقابة على

الصحف، إلا فيما يتعلق بالأخبار العسكرية.

هذا وقد اتفق المجلس على إصدار المذكرة التالية ورفعها للمسئولين وهذا هو نصها:

مذكرة

من مجلس نقابة الصحفيين

اجتمع مجلس نقابة الصحفيين لكي يناقش الموقف السياسي الراهن في البلاد، على ضوء العنصر الجديد الذي أضيف إلى الموقف، بالمظاهرات التي قام بها طلاب الجامعات وعمال بعض المصانع..

وقد رأى مجلس نقابة الصحفيين، بعد استعراض كافة الظروف والملابسات، وكل ما تجمع لديه من معلومات وآراء، أن من واجبه نحو الوطن ونحو الثورة، أن يسجل وجهة نظره معبراً عن وجهة نظر مجموع العاملين في حقل الصاحفة، ومشاركاً بذلك في المناقشة الواسعة التي يجب أن تقوم، بل التي هي قائمة بالفعل، بين مختلف فئات الشعب وفي هذه الظروف العصيبة.

إن مجلس نقابة الصحفيين يعتقد أن المظاهرات التي قام بها طلبة الجامعات والعمال، كانت تعبيراً عن إرادة شعبية عامة تطالب بالتغيير على ضوء الحقائق التي كشفت عنها النكسة

والدروس التى لابد أن تستخلص منها.

وإذا كان قد شاب هذه المظاهرات فى بعض اللحظات، فإنه من المهم ..

«أولاً» أن ندين هذا الانحراف التخريبى غير المسئول..

«وثانياً» أن نؤكد مرة أخرى أن الصفة الأساسية للجماهير التى خرجت فى هذه المظاهرت كانت تؤيد الأهداف الأساسية للثورة وتطالب بالتغيير والتطهير بما يدفع هذه الأهداف إلى الأمام، وينحى عن طريقها المعوقات، ويضمن مشاركة الشعب فى مسئولية تحقيق هذه الأهداف.

ولم تكن المطالب والشعارات التى نادى بها التيار الإسلامى من الطلبة والعمال مطالب جديدة ولا شعارات طارئة، فهى فى الواقع مستمدة من نفس الشعارات التى نادى بها القائد الرئيس جمال عبدالناصر فى أحاديثه إلى الشعب بعد النكسة، من تصميم على الطهارة الثورية والنقاء الثورى، ومراجعة أساليب عملنا والحساب على كل مسئولية وإلغاء الامتيازات، وإنهاء مراكز القوة الشخصية، ووضع حد لسياسة أنصاف الحلول، وإفساح المجال باستمرار أمام التيارات الجديدة والممارسة الديموقراطية وتقنين الثورة وسيادة القانون.

وبهذا المعنى، فإن الصفة الأساسية لهذه المظاهرات، كانت تأييد قائد الثورة فى هذه الشعارات، والوقوف إلى جانبه إزاءها، ولا تغير من ذلك حوادث فردية أو محاولات معزولة

من الذين يريدون أن يتخذوا من الأخطاء والانحرافات التى كشفت عنها النكسة، لا سلاحاً للقضاء على المبادئ ذاتها والمكاسب التى حققتها للشعب هذه المبادئ.

وإن مجلس نقابة الصحفيين، على ضوء الشعارات التى رفعها القائد الرئيس جمال عبدالناصر بعد النكسة والمطالب الشعبية التى عبر عنها الرأى العام فى شتى المجالات والأحداث الأخيرة يعتقد أن ثمة مبادرات باتت تتطلب الإسراع فى تنفيذها ووضعها موضع التطبيق إلى..

وفى مقدمتها:

أولاً: الإسراع فى الحساب من كل المسئوليات الكبرى، وتقييم هذا الحساب حتى يشمل كافة القطاعات والمؤسسات فى البلاد.

ثانياً: إعادة تنظيم التنظيم السياسى واستكماله.

ثالثاً: توسيع قاعدة الديموقراطية والمشاركة فى اتخاذ القرارات داخل التنظيم السياسى.

رابعاً: الإسراع بإصدار القوانين المنظمة للحريات العامة والتى تكفل الضمانات الضرورية.

خامساً: إجراء الانتخابات للجان النقابية ومجالس الإدارة التى لم تنتخب بعد.

سادساً: ترتيب النتائج التى يجب أن تترتب على وجود عدو

يحتل جزءاً من أرض البلاد واستمرار حالة الحشد فى مجالات الاستعداد النفسى والمادى والاقتصادى على أن تتحمل العبء كل الفئات التى يجب أن تتحمله.

وإذا كان للصحافة دور ومسئولية يجب أن تنهض بها فى هذه الظروف، فإن مجلس نقابة الصحفيين يعود فيقف إلى جانب الرأى الذى سبق أن سجله فى مذكرة سابقة منذ بضعة شهور من ضرورة رفع الرقابة على الصحف، فيما عدا ما يتعلق بالأمور العسكرية، وليس ذلك من باب عدم التقدير لدقة المرحلة التى نمر بها وضرورة مراعات مصلحة البلاد العليا قبل كل شئ، ولكنه إحساساً من المجلس بأن الصحافة التى يملكها الاتحاد الاشتراكى ويديرها أعضاء عاملون به، قادرة على أن تتصدى لهذا المسئولية وعلى أن تكون فى مستوى ما تتطلبه الأحداث.

وأخير فإن المجلس يسجل اقتناعه المطلق بأن وحدة الجبهة الداخلية فى هذه الظروف، مطلب لا يجب التفريط فيه أو تعريضه للخطر بأى شكل من الأشكال. لأن وحدة هذه الجبهة الداخلية هى التى سوف تحرز النصر مع قواتها المسلحة التى تتخذ مواقعها الآن حيث تمارس دورها الأصيل فى الدفاع عن الوطن.

كما يسجل اقتناعه بأن أهم ما يقوى هذه الجبهة الداخلية، ويحقق وحدة جماهيرها، هو السير قدماً على طريق

تحقيق هذه المطالب التى رفع رايتها القائد الرئيس جمال عبدالناصر، وهتفت له جماهير الشعب وعززتها فى جميع المناسبات.

أعضاء مجلس نقابة الصحفيين

أحمد بهاء الدين	طلعت شعت
سامى داود	على حمدى الجمال
سعيد سنبل	فتحى غانم
صبرى أبو المجد	محمود المراغى
صلاح الدين حافظ	محمود سامى

منصور القصبى

سكرتير عام نقابة الصحفيين	نقيب الصحفيين
صلاح الدين حافظ	أحمد بهاء الدين

(التوقيع)

ثانياً

الكاتب والسادات

«إننى أذهب فى الكتابة
إلى أن أصل إلى سور الأسلاك الشائكة ،
لكنه يعلم أنه لن يستطيع القفز
فوق الأسلاك الشائكة
ليكتب ما يريد»
(أحمد بهاء الدين ، عن برنارد شو)
«قول عليك الأمان»
(أنور السادات) .

يصعب فهم موقف مثقف مثل أحمد بهاء الدين.

وهو ما يعود إلى أن موقفه الأيديولوجى والسياسى يتابى على التصنيف، ومع ذلك، فإن أية محاولة تبذل لفهم علاقة المثقف بالسياسة فى النصف الأخير من هذا القرن، تؤكد لنا أن نموذجا مثله ليس نموذجاً ممتنعاً، بمعنى أنه يتكرر كثيراً، كما أن حركته الدائبة بين الذات والخارج – على المستوى السياسى بوجه خاص – تكشف الكثير من مساحات الغموض للمثقف العربى من حيث العلاقة بين النخبة السياسية والنخبة الفكرية..

وعلى ذلك، فإن فهم العلاقة المجردة بين الكاتب والسلطان فى زمننا مرهونة بفهم مثل هذه العلاقة بين المثقف والسياسى فى عقد السبعينات..

وقد تيسر لنا الاقتراب من بهاء الدين – على المستوى الشخصى – فى الفترة الأخيرة من حياته، فتكشف لنا طبيعة التكوين الأيديولوجى للمثقف المصرى، والعوامل التى دفعت به ليتخذ موقفاً يتراوح – فى هذا العقد بين التمرد والصمت.

وقد تعددت استجابات المثقف وتداخلت فى هذه العلاقة – بين المثقف والسلطة – حتى باتت كفيلة بتضارب الأحكام على موقف هذا المثقف، خاصة أن الفترة كانت تالية للفترة الناصرية وسابقة لها فى آن، تالية لها بحكم التتابع الزمنى والموضوعى، وسابقة عليها، بحكم عدة خصائص تميزت بها البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع المصرى منذ مركزية الملك (مينا) حتى اليوم.

وعلى أية حال، فإن محاولة الاقتراب من استجابة المثقف للنظام، فرض علينا، فى حالة بهاء الدين التوقف عند عدة إشارات تحدد طبيعة هذه الاستجابة وطبيعتها:

أ – التكوين الفردى

ب – التكوين السياسى

جـ – التكوين الأيديولوجى

وبدهى أن هذه المؤثرات تداخلت فى شخصية بهاء الدين وعلاقاته، وهو ما سوف نراه حين نتمهل عندها قبل أن نجاوزها.

(٢)

كان تكوين بهاء الدين فردياً خالصاً..

بمعنى أنه كان بتكوينه ذو نزعة خاصة فى التعامل مع القضايا التى يواجهها، وهو ما يعود إلى نشأته وتربيته، التى تركت أثراً عميقاً فى طبيعته، والتى جعلته لا يستطيع التعامل على المستوى الإنسانى مع الآراء العامة فى التعامل بشكل شخصى، وكثيراً ما كتب : «إننى أميل إلى النزعة الفردية». (صباح الخير ٢٧ / ١١/ ١٩٨٠).

وتقترب هذه الفردية من مفهومها فى علم الاجتماع والسياسة، فهى التى تخول الفرد أقصى ما يمكن من الحريات الشخصية.. مع تداخل شديد مع تكوينه الخاص، مما تصبح السمة ذاتية أكثر مما هى عامة.

إنه الانتماء الشخصى الذى يستفيد من المؤثرات الخارجية بقدر ما تتسق - هذه المؤثرات - مع الذات..

وقد كان هذا التكوين وراء رفض صاحبه الانتماء إلى أى تيار سياسى أو كادر حزبى بعينه.

وقد حكى لى أحمد بهاء الدين أنه فى الستينات استدعى إلى الاتحاد الاشتراكى، وأخبره حينئذ كمال الدين حسين بقرار القيادة السياسية بانتسابه - مع غيره - إلى العمل الوطنى فى الفترة التى سبقت كتابة (الميثاق)، ولقد لبى ذلك، ولكنه بعد عدة اجتماعات مع عدد كبير من أعضاء القيادة السياسية، ومعارضته لكثير من أفكارهم، بشكل غلب عليه الموقف الفردى الخاص، المرتبط بقناعات محددة، لم يلبث أن وجده نفسه

وعلى أثر مجادلات عنيفة، خارج التنظيم (محضر نقاش).

لم تكن القضية مجرد خلاف في الرأى السياسى، وإنما خلاف مرجعه تكوينه الذى دأب على الذاتية، مما أدى إلى الإيغال فى الرأى الذاتى، وهو رأى وإن كان لا يختلف مع الرأى الآخر، فإنه يتفق مع تكوين صاحبه فى المقام الأول.

وهذا الموقف يمكن أن يتسق إلى حد بعيد مع رأى النخبة المثقفة، وإن كان يتعارض معها فى بعض الأحيان لقناعات صاحبه..

وهذا يفسر كيف أن بهاء الدين رفض الانتماء إلى أى حزب سياسى، واكتفى بالانتماء إلى دائرة الكاتب وعالمه وقناعاته التى تكونت، فكانت كلها حصيلة الذات والخبرة والرؤية الخاصة للأمور لسنوات بعيدة.

بيد أن ذلك الموقف، وإن بدا مستقلاً، غير مرتبط بمبادئ تنظيم أو تيار معين، فإنه يحمل فى طياته، بذور ضعفة، فبقدر ما يبدى قدراً كبيراً من التمرد فى بعض الأحيان، فإنه لا يلبث أى يبدى قدراً كبيراً من المهادنة أو الصمت إزاء عسف السلطة وضراوتها فى أحيان كثيرة،

فالمثقف لا يستطيع أن يصبح خيطاً فى نسيج المثقفين فى تيار أو تنظيم محدد، والمثقف لا يستند إلى أية جهة أو إحدى مؤسسات المجتمع المدنى.

ومن ثم، فإنه لا يستطيع بفرديته الخالصة، ومثالياته، التصدى للرأى السياسى المستبد أو «الكارزمى» وحده.

وربما كان هذا يفسر موقف أحمد بهاء الدين عام ١٩٦٨ إبان بيان نقابة

الصحفيين، وهو البيان الذى طالب فيه بعدة مطالب تتعارض مع الخط المعلن للنظام، وهى المطالب التى رددت كثيراً فى مظاهرات الطلبة، وهو موقف متمرد منه إلى حد بعيد، غير أن تمرده هذا، كان يرتبط بالنقابة – كإحدى جماعات المصالح –.

لقد كان رأى المثقف يرتبط بطبيعة التعبير عنه:

النزوع الفردى لم يكن ليسمح له (ولغيره) التعبير بشكل راديكالى، أمن النزوع الجماعى، فقد كان يمكن به أن يعبر عما يريد:

فالتعبير عن الرأى كان يرتبط بالمؤسسات المدنية، وفى غيبتها، لم يكن ليستطيع المثقف التعبير عن فرديته بشكل صريح.

وقد كان مدركاً ذلك تماماً، وعبر عنه فى كثير من المرات، ودائماً ما أكد «لم أكن عضواً فى تنظيم».. ولا يلبث أن يضيف «كان لى رأى فقط».

لقد كان بهاء الدين رجل (الفكر) لا رجل (السياسة)، ومن هنا، لم يكن ليمتلك أدوات رجل السياسة، وهى قضية العلاقة الجدلية وتفسيرها على مدى التاريخ، وهو ما يقترب بنا من تفسير موقف المثقف المصرى، الذى قد يحمل بذور تمرده، وفى الوقت نفسه تستنبت البذور فى تربة الاستبداد فلا يثمر غير الصمت، وهو إن بدا موقف مؤقت، فهو يعكس (حالة) المثقف وطبيعة موقفه.

إن هذا النمط نتعرف عليه بدرجات لدى المثقفين المعاصرين..

بل يمكن أن يفسر به وضعية المثقف المصرى فى العصر الحديث منذ

عصر محمد عبى الذى أطلق عليه المثقفون (ولى النعم) منذ عزل علماء الأزهر وخدعهم، أو من خلال تحديد مواقف رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك فيما بعد، ومروراً بالفترة الليبرالية عبر طه حسين والعقاد، ومحمد حسين هيكل، وإلى الخمسينات، وحتى اليوم، حيث تضاءل دور علماءالدين وتحدد دور المثقفين الذين بادروا بلعب دور ا فقيه وعالم الدين قبل ذلك.

ويلاحظ أحد الباحثين أن مراجعة فترة التاريخ الحديث تشير إلى تضاؤل دور العلماء لمصلحة أعلام الأدب والفكر غير المرتبطين بالفكر الديني. (خالد زيادة : كاتب السلطان، رياض الريس، لندن، ص ٩١).

وعلى ذلك، نكون أمام..

مثقف ينتمى إلى الطبقة الوسطى

ويحمل نزعة فردية

ولا يخضع لكادر تنظيمى

ويعانى من البنية الأبوية على المستوى السياسى والاجتماعى

ومن الطبيعى أن نصل من ذلك كله إلى سمة أخيرة تفسر – ضمن ما تفسر استجابات المثقف –

وهى تتحدد ضمن حرص الكاتب على أن يذكر أكثر من مرة أنه ينتمى أيديولوجياً إلى (الاشتراكية الديموقراطية)

إن هذا الانتماء يشير أيضاً إلى إيثارة للنزعة الفردية فى التغيير.

النزعة التى تؤثر التعبير بالرأى وترفض اللجوء إلى العنف لتحقيق

أفكارها، وهو ما تحرص عليه بالفعل هذه الفكرة الأيديولوجية.

هو ما يلخص (الخطاب) البهائى من أنه بذل حياته كلها للتغيير بواسطة النضال الفكرى على المستوى السياسى والديموقراطى، ومن داخل النظام وخارجه، وبالتعبير الكتابى لا الموقف السياسى.

وهو ما نلتقى به معه، حيث نتعرف على طبيعة العلاقة بين المثقف - بهاء الدين - والسلطان - أنور السادات - .

(٣)

كان أكثر ما يلفت النظر فى العلاقة بين أحمد بهاء الدين وأنور السادات هى أنهما يعرفان بعضهما البعض منذ حقبة بعيدة.

وهو ما عبر عنه بهاء الدين بأكثر من صورة.

ومن هنا، فإن الكاتب يفسر ذلك حين كان يقول أنه كان يتحدث معه بحرية كاملة.

ومن هنا، فإن طبيعة هذه العلاقة تحددت فى الشكل الذى رضى به الكاتب ومارسه، إذ اتخذ بهاء الدين صفة (المحاور) وهو ما يعبر عنه عنوان كتابه عن تجربته مع الرئيس (محاوراتى مع السادات)

وهو ما يترك هذا الانطباع بالعلاقة الوطيدة القديمة بينهما.

بيد أن المحاور لم يستطع أن يمارس هذا الشكل بعد أن أصبح السادات رئيساً إلا فى الحدود التى وضعت له.

وهى الحدود التى صنعها الحاكم ومثلت طبيعة العلاقة بينهما.

وليس أدل على ذلك من أنه رغم هذه العلاقة التى يحرص الكاتب أن يصورها من جانبه أنها علاقة (خاصة) لم تستطع أن تجنبه غضب الحاكم.

هذا الغضب الذى جعله يتعرض للفصل من عمله أكثر من مرة، بل ويمنع من الكتابة فى الفترة الأخيرة من حياة السادات...

وعلى ذلك، فإن دور بهاء الدين تحدد لأكثر من مرة فى اتباع سياسة المهادنة مع السادات أو سياسة الصمت فى أوقات الخطر.

لم يستطع المثقف أن يجاوز دوراً محدداً رسم له.

كان يستطيع من جانبه أن يصور لنفسه ولنا أنه يمكنه أن (يحاور) الحاكم فيغير رأيه، فى حين أن مشاركة الرأى لم تكن لتسمح لكاتب أعزل من السلطة، ولا ينتمى لمؤسسات دستورية تحميه لكى يلعب دوراً إيجابياً فى هذه المشاركة.

لم يتخذ ذلك الحوار شكلاً ديموقراطياً قط، رغم أن الكاتب حاول إيهامنا به فى فترات معينة من علاقته بالسادات. وليس أدل على ذلك من شكل العلاقة بينهما.

فبعيداً عن العلاقة التى كانت تصور على أنها تحفل بالود والعلاقات الخاصة، كانت العلاقة الجديدة لم تسمح بأكثر من شريك الرأى الذى لا يمكن أن يدلى به إلا حين يسمح له، وحين كان الكاتب يقع فى حرج الإدلاء برأى معين، كان ينتظر حتى يسمح له الحاكم، (قول عليك الأمان).

(محاوراتى مع السادات، دار الهلال، بدون ص ٧٢).

وعلى ذلك لم يستطع الكاتب دائماً أن يلعب الدور الراديكالى.

وهو الدور الذى كان قد لعبه فى نهاية الستينات.

وربما كان يبلور تمرده عبر حواره المستمر مع السادات، وهو ما كان يجهد به تغيير رأى الحاكم فى هذا الرأى أو ذاك، غير أن هذا السعى من جانب المثقف لم يكن ليصطدم دائماً إلا برغبة الحاكم، فحينما فكر السادات فى إعلان الأحزاب قال له بهاء الدين ما معناه أن الدستور لا ينص على ذلك، ولابد من تعديل دستورى ينص على كل ذلك، أو بتعديل أسرع وأبسط ينص فقط على حق تكوين الأحزاب وقانون ينظم القواعد الخاصة بذلك..

ورغم أن الكاتب كان يبحث عن صيغة دستورية لقرار الحاكم، فإن الحاكم نفسه، لم يلبث أ ن أنهى الحوار بعد منتصف الليل بأن قال له:

«يا أحمد، لازم تكون عرفت طريقتى!

طريقتى أن أعلن قرارى..

وبعد كده نشوف إذا كان عايز تعديل، نعمل تعديل، وإذا كان عايز قانون، نعمل قانون..

كفاية أعلن فى الخطاب قيام الأحزاب، وبعد كده نشوف إيه اللى يحتاجه الموقف». (ص ١٠٦ - ١٠٧).

وهو مـا يشـيـر إلى أن الكاتب ظل تابعاً فى أغلب الأحـيـان، ولم يكن ليستطيع أن يختلف مع الدور الذى اختير له، وهو الدور الذى أدركه تماماً، ولم يستطع أن يجاوزه، وهو ما يفسر العديد من أفكاره، لا سيما فى فترة السبعينات.

ففى نهاية هذا العقد - السبعينات - كان يردد قول برناردشو أثناء الحرب العالمية الأولى، فقد كانت له كلمة، وكانت توجد رقابة فى انجلترا، وكان شو ضد الحرب فكان يقول: «إننى أذهب فى الكتابة إلى أن أصل إلى سور الأسلاك الشائكة. لكنه يعلم أنه لن يستطيع القفز فوق الأسلاك الشائكة ليكتب ما يريد». (صباح الخير ٢٧ نوفمبر ٨٠)

وهو ما يشير إلى أن الكاتب هنا لم يستطع أن يقفز فوق الأسوار الشائكة ليكتب ما يريد، ففى الحالات التى كان يحس فيها أنه سيضطر للقفز، كان يعمد إلى الصمت حتى يستقيم الطريق وتتداعى الأشواك..

ولا يعنى ذلك أن كاتباً مثل أحمد بهاء الدين لم يستطع أن يبدى أية استجابة قط، اللهم إلا فى إطار الصمت، وإنما كانت استجابته أحياناً تأتى على شكل اعتراض لبعض قرارات النظام، غير أن الاعتراض كان يحدث دائماً بعيداً عن مواجهة الحاكم مواجهة مباشرة،

فمن المعروف أنه كان أول من اعترض على سياسة (الانفتاح الاقتصادى) عام ١٩٧٤، غير أن ذلك ظل فى إطار التعبير غير المباشر..

غير أن التعبير المباشر فى مواجهة الحاكم كان يعمد فيه إلى كثير من المهادنة، وكثير من الصمت حتى تمر الأزمة..

وسوف نعرض لذلك خلال موقفين هامين..

أولاً: بيان ١٩٧٢

كان بعض المثقفين قد أصدروا بياناً في عام ١٩٧٢ ضد سياسة السادات لإطالة أمد تحرير الأرض، ووقع عليها عدد كبير في مقدمتهم توفيق الحكيم.

وقد غضب السادات، فأمر بنقل أصحاب البيان إلى مصلحة الاستعلامات من مؤساتهم الصحفية والثقافية،

ورغم أن أحمد بها الدين لم يكن من بين الموقعين على البيان لمرضه، فإنه تنامى إلى سمع الحاكم، أنه كان مشتركاً فيه بشكل ما، ومن ثم، وجد بهاء الدين نفسه منقولاً مع أصحاب البيان.

وحين احتج لم يلبث أن فُصِل.

ورغم أن موقف بهاء الدين من البيان (التحريض والرفض)، وأُلغي سفره الذي كان على وشك الإقدام عليه، وهو موقف يشير إلى موقف راديكالي في مواجهة الحاكم، فإن ردود أفعاله بعد ذلك تشير إلى أنه رفض الاقتراب من الأسلاك الشائكة.

وهذا الرفض اتخذ أكثر من شكل يعكس جميعها هذه العلاقة بين الحاكم والمثقف في ذلك الوقت.

رغم أنه يبرر عدم سفره للتضامن مع زملائه، فيبدو أنه أحس أن السفر في ذلك الوقت سوف يزيد الهوة بينه وبين السادات، فلن يستطع أن يسكت

فى مواجهة الأسئلة التى ستلقى عليه فى خارج مصر، وهى أسئلة سوف تحرجه بالفعل فى مواجهة السادات.

والفترة التى تلت احتجاج بهاء الدين وفصله لم تشهد أى رد فعل منه مضاد ضد السلطة.

وهو موقف لا نستطيع أن نلومه فيه كثيراً، فلم يكن المثقف ليملك - وحده - قوة مواجهة الحاكم فى لحظات غضب هذا الأخير وسعيه إلى التنكيل بأى مثقف يهاجمه.

بيد أن رصد مواقفه عقب ذلك تشير إلى أنه بذل أقصى ما فى وسعه لاسترضاء السادات وبأى ثمن..

ومن مظاهر ذلك موقفه حين كان رئيساً لاتحاد الصحفيين العرب..

ففى ذلك الوقت طلبت نقابات عربية كثيرة عقد اجتماع طارئ للاتحاد لمناقشة قرار السادات إبان بيان ١٩٧٢، غير أن بهاء الدين رفض ذلك الاجتماع، فلو كان قد عقد مثل هذا الاجتماع لغضب كثيراً الرئيس السادات، وهنا لجأ بهاء الدين إلى الحيلة، يقول:

«.. ووجدت أننى ملزم بدعوة للجنة التنفيذية للاتحاد إلى الاجتماع الطارئ.. ولكنها لو انعقدت فى القاهرة - كما طلبت النقابات العربية - فسوف تكون الحملة على مصر وعلى السادات قاسية جداً»..

وقد برر ذلك الموقف بأن السادات يمكن أن يتخذ قرارات عنيفة أخرى

فى حالة انعقاد الجمعية العمومية بعد اللجنة التنفيذية، فما كان منه إلا أن تحايل على الأمر، يقول:

«..ففاجأتهم بتوجيه الدعوة للانعقاد فى مكان آخر مكان خطر على بالهم وهو القاهرة».

وفى هذا الاجتماع بذل بهاء الدين جهداً جباراً لإقناع النقباء العرب بعدم اتخاذ أى قرار وترك الأمر للنقابة المصرية.. (محاوراتى، ص ٢٩).

وبذلك نجح بهاء الدين عن سابق قصد فى عدم الإساءة للسادات بشكل خاص، رغم أنه توقع - وهو ما حدث بالفعل - من ضيق ونقد عدد كبير من الصحفيين المصرين والعرب..

ولا يمكن أن نصدق تبرير بهاء الدين بأن ذلك كان للخوف على مصر، أو على حاكمها - بالتبعية - إذ أن الوازع الأول لديه - وهو أحد المفصولين - أن يحاول استرضاء الحاكم وبأية طريقة، وقد أرسل فى ذلك الوقت خطاباً للرئيس السادات حاول فيه أن يؤكد له أن ما كان وراء هذا التصرف كانه عدم النيل من الحاكم بأى شكل.

كتب يقول له:

«وبعد فصل الصحفيين، حاولت نقابة عربية كثيرة أن تدعو لاجتماع اتحاد الصحفيين العرب الذى أرأسه لاستغلال الموقف، ويعرف الدكتور حاتم الذى أعلمته بالأمر الجهود

التى بذلتها لإحباط هذا كله، منعاً للاستغلال، آخر الأمر على عاتقى حتى هاجمتنى بعض الصحف. (خطاب إلى السادات فى ٥ أبريل ١٩٧٣).

والواقع أن خطاب بهاء الدين كان زاخراً بالحيرة، مليئاً بالذعر.

فهو يعترف فى بعض سطوره بأننى أحاول أن أكتب هذا الخطاب إلى سيادتكم وهو ما ساورنى مراراً وأنا كالسائر فى الظلام، ذلك أننى إخلاص لا أعرف بالضبط ما هى الشكوك المتعلقة بى. (انظر الملحق).

وعلى ذلك فإن موقف المثقف هنا، تحول إلى المهادنة أو الصمت إزاء الحاكم..

ويجب أن نسرع إلى القول مرة أخرى أن موقف المثقف لا يمكن أن يُحمّل أكثر مما ينبغى.

فما دام المثقف فى وضعية التابع، صاحب الرأى كيفما يطلب منه فقط، ولا ينتمى إلى جهة أو نقابة تعضد منه، وفى غيبة تقاليد ديموقراطية ورأى حر، فمن الطبيعى أن يعرف الحدود التى لا يسمح بتجاوزها، ولا يحاول أن يتعداها قط..

وهو ما نجده فى موقف آخر بعد ذلك بقرابة خمس سنوات.

ثانياً: انتفاضة ١٩٧٧

لم تكن انتفاضة ١٩٧٧ هى الحدث الوحيد الذى أسهم فى تبلور موقف

بهاء الدين من السادات، إذ أعقبتها أحداث أخرى - مثل كامب ديفيد - أسهمت فى تحديده .

غير أن انتفاضة ١٩٧٧ التى بدأت فى يناير من هذا العام كان فاتحة لانفراط عقد عدد آخر من الأحداث فى السبعينات .

وهذه الأحداث أسهمت فى كشف موقف بهاء الدين، وتحديده من مهادنة السادات، ومحاولة إثنائه عن بعض القرارات الاستبدادية، إلى الابتعاد قليلاً قليلاً، وإيثار الصمت فى آخر الأمر.

قبل أكتوبر ١٩٧٣ كان السادات قد أعاد المثقفين إلى أعمالهم، وما لبث الجميع بعد ملحمة أكتوبر أن انغمسوا فى أحداث كثيرة غلب عليها آثار سيئة لسياسة الصدمة التى اتبعها السادات، وعديد من القرارات المتعجلة، ووجد الجميع أنفسهم - فجأة - أمام انتفاضة ١٩٧٧ .

ففى بداية عام ١٩٧٧، تفجرت أعمال العنف التى قام بها الشعب المصرى ضد صندوق النقد الدولى .

إذ كانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وصلت إلى درجة المعاناة من ارتفاع الأسعار، والتضييق، وهجر الحقول فى الريف، ولم تكن غضبة وتمرد الأمن المركزى ١٩٧٦ إلا بدايات هذا الموقف، بما قطع بسوء الأحوال التى عبرت عنها جماعات كثيرة من الشعب فى انتفاضة ١٩٧٧ .

وكان بهاء الدين قد عاش فى السبعينات عقد النفط، ورأى كيف انتهت الأحوال إلى التضييق والخضوع لصندوق النقد، فتحدد موقفه فى مواجهة ذلك كله، لكنه لم يكن خارج النظام، إذ أن الكاتب قد تهيأ للعب دور نقدى

تحت مظلة النظام، وحين يتاح له الأمر خلال (محاوراته..)

وقد تمثل ذلك في موقفه من أسلوب السادات في مواجهة الانتفاضة، فقد بدا في الظاهر رافضاً لأسلوب العنف الذي استشعر أن السادات في طريقه ليمارسه، في حين أنه بدا في الباطن رافضاً لأن يورط السادات نفسه في إجراءات عنف تضريه في المقام الأول، ويصل الأمر به إلى خسارة تأييد جماعات شعبية له، أو يترك الفرصة للتحرش به.

لقد ظل بهاء الدين لساعات يحاول إقناع السادات أنه..« شخصياً لم يمسسه من الأزمة شئ مباشر إذا تغاضينا عن المظاهرات العاصفة و الهتافات، وبذلك فإن الطريق الأسلم هو أن يتصرف، على أن العاصفة قد مرت وأصبحت وراءه. (محاوراتي، ص ١٣٠).

وبذلك، لم يستطع الكاتب أن يقنع الحاكم، فاكتفي بالصمت، ليطلب منه السادات بعد ذلك أن يذهب.

ولم يستطع بهاء الدين غير الالتزام بهذا الموقف بعد أن ذهب السادات لإلقاء خطبته، ويعلن أن ما حدث هو (انتفاضة حرامية)، ويوصي باتخاذ اجراءات عنيفة ضدها.

وقريب من هذا حادثة أخرى، فحين طلب السادات منه بعض الأفكار الإيجابية وهو يكتب له إحدى خطبه، وعرض بهاء عليه فكرة العفو الشامل عن السجناء السياسيين، فإن السادات رد قائلاً: - «الفكرة تستحق البحث. ولكنها حكاية كبيرة».

ورغم أنه كتبها له في الخطاب، فإن السادات لم يعلنها..

وإذن، فالمثقف لم يكن ليستطيع أن يبدى أكثر من الرأى أثناء محاوراته مع الحاكم الذى ما زال يتمتع بمكانة (الفرعون) - كما أعلن السادات عن نفسه بالفعل فى السبعينات -

ورغم العلاقة الطيبة بينهما، فإن بهاء الدين لم يستطع أكثر من الرضاء بهذا الدور: إبداء الرأى أو الصمت..

كان بهاء الدين يحمل بذور التمرد بالفعل، لكنه لم يكن ليستطيع أن يمارسه إلا فى مجال بعيد عن الحاكم.

يستطيع أن ينقد سياسة (الانفتاح)

لكنه لا يستطيع أن يعترض على قرار رئاسى بشكل مباشر..

يستطيع أن يمارس الرأى فى الصحيفة،

لكن الإطلاق هنا لا يكون صحيحاً فى كل المواقف.

فقد كان يحذر أن يغضب الحاكم، وكان أسلوبه فى ذلك عدم المواجهة، وإنما خفض الرأى حتى تمر العاصفة..

ولذلك لم يكن من المصادفة ألا نجد بهاء الدين فى كثير من المواقف التى يحتاج له فيها، إذ كان يكتفى بالصمت فقط..

وهو ما أغضب الرئيس السادات نفسه، إذ كان الحاكم يطلب مثقفاً تابعاً له بشكل كامل، يحارب معاركه مهما تكن أحقيتها، وقد وجد هذا المثقف فى موسى صبرى، لكنه لم يجده دائماً فى أحمد بهاء الدين..

وهو ما يصل بنا إلى استنتاجات أخيرة..

(٤)

لم يخرج موقف أحمد بهاء الدين عن التأرجح بين نمطين من أنماط المثقف:

التمرد،

والصمت

وإن كان النمط الأخير - الصمت - هو الغالب على موقفه كمثقف.

ولم يكن هذا الموقف بدعاً على مثقفي جيله، وإنما كان يمثله المثقف في تاريخ مصر تبعاً لظروف اجتماعية وسياسية وفكرية كثيرة.

لم تبارح وضعية المثقف في تاريخ مصر تبعيته للحاكم.

فإذا كان المثقف قد بدأ وظيفياً في عصر محمد علي - رفاعة الطهطاوي، ثم علي مبارك فيما بعد - فإنه وصل فأصبح مؤيداً مهادناً ومبرراً في عصر عبدالناصر، وانتهى إلى كونه كاتباً أو (أفندياً) كوصف السادات.

إنه الموقف الذي أرادته السلطة الحاكمة.

وهذا النمط لم يخرج عنه بهاء الدين حين تصور نفسه مشاركاً في الرأي مؤثراً في القرار، وهو ما رفضه الحاكم، ومن ثم، لجأ ليتحين فرصة أخرى لم تتح كثيراً له.

وقد أسهم في هذا الدور المثقف نفسه، بالصمت حتى تأتي لحظة أخرى للمشاركة والوصول به إلى هوة المهادنة.

وهذه الثنائية ، المهادنة - الصمت - هى ما يمكن أن تفسر به مواقف كثيرة لبهاء الدين

حين آثر الصمت تماماً إبان مؤامرة ١٥ مايو ١٩٧١ ،

وقريب منه موقفه إبان بيان ١٩٧٢ حتى بعد فصله ،

كذلك، يبدو أكثر وضوحاً عقب اتفاقية (كامب ديفيد) ١٩٧٨/٧٧ ، فبعد مقابلته للحاكم للمرة الأخيرة فى ديسمبر ١٩٧٧ لم يهاجمه أو ينال من «كامب ديفيد» مكتفياً بالصمت.

الملاحظة العامة، إننا يمكن أن نلاحظ موقف المثقف الراديكالى من الحاكم حين يكون بعيداً عنه، يواجهه، وهنا، يكون قادراً على الاستجابة الراديكالية، وهو ما يمكن أن نفسر به موقفه من بيان نقابة الصحفيين ١٩٦٨ ، وكتاباته عن الانفتاح ١٩٧٤ ، ففى الحالتين وجدت استجابة المثقف عنيفة فاعلة، لكنها أمام مواجهة الحاكم فى السبعينات - وقد كان قريباً منه نفسياً وعملياً - لم يلبث أن انحنى لأكثر من مرة لتمر العاصفة..

يجب «التنبه»، ونحن نرصد لموقف بهاء الدين، أنه من السهل العثور على مبرر له.

وهو مبرر يتخذ شكل الرؤية العامة، فالمثقف لم يكن ليستطيع أن يجازف بمكاسبه أو إنجازاته فى افتقاد سلطة أخرى تشد من أزره فى مواجهة الحاكم،

فهو لم يملك قوة الرأى العام.

كما لم ينتم إلى تيار فكرى له وجود أو تأثير فى دولة مركزية مثل مصر، ولا تنظيم مهنى يكون له من الوزن بحيث يحارب معارك المثقف انطلاقاً من حرية الرأى أو الهوى بالواقع..

وربما كان ذلك وراء مأساة المثقف العربى فى العصر الحديث وتفسيراً له فى آن معاً..

ثالثاً

السياسة والانفتاح

الانفتاح.. إنها سياسة «السداح مداح»
(أحمد بهاء الدين)

نستطيع أن نسجل أن أول رد فعل ضد سياسة الانفتاح الاقتصادى فى السبعينات، على المستوى النقدى، جاء من أحمد بهاء الدين.

هذه حقيقة لا نستطيع مراجعتها، ومع ذلك، فإن الطريق إليها يمر بمحطة العلاقة بين الكاتب والحاكم، أو بين السادات وبهاء الدين.

فهى علاقة تحدد طبيعة موقف المثقف من السلطان – كما يلاحظ أى دراس لتاريخ مصر – ومن ثم، تعدد كثيراً من المواقف بينهما.. وصولاً إلى القطيعة التامة.

وهذه العلاقة بين الطرفين تفسرها علاقات خاصة بين الكاتب والحاكم.

فمن ناحية، كان بهاءالدين محاوراً للسادات بحكم موقفه منه قبل ذلك بعشرين عاماً – على المستوى الشخصى والأسرى، وبعد ذلك حين أصبح السادات رئيساً للجمهورية..

ومن ناحية أخرى، كان رئيساً لتحرير جريدة (الأهرام) بقرار من السادات نفسه. وقد نتج عن هذا أن الكاتب تصور أنه قريب من الحاكم بالقدر الذى يستطيع معه إجراء محاوراته معه بشكل ديموقراطى (أليس

عنوان كتابه .. «محاوراتى مع السادات؟»..)

فى حين أن المثـقف لم يكن ليـسـتطيع فى ذلك الوقت أن يؤثر فى القرار السياسى، اللهم إلا برضا الحاكم وإرادته.

واستكمالا لذلك، فقد كان السادات – كما لاحظ أحمد بهاء نفسه، أراد استـعـمـاله «لأداء دور معين» (محـاوراتى ص ٥٠). بما لا يسـمح له بالاختلاف وإن وفر له – أحياناً – شيئاً من الائتلاف..

كانت المفارقة ظاهرة ومؤكدة بين الطرفين..

وتنبع هذه المفارقة الهائلة من واقع أن السادات لم يكن ليريد من رئيس تحرير جريدة (الأهرام) – التى تعكس الموقف الرسمى – أن يخرج عن الإطار العام الذى اختاره لسياسته الاقتصادية.

فى حين أن هذا المسـئول أو الموظف الرسـمى، أصـبح يعـانى من ازدواجية التمرد والصمت.

أو من الحـيـرة التى تؤدى إلى شكل من أشكال التـهـادن مع النظام الديكتاتورى.

فيحدث هذا الموقف شيئاً من التنازل الذى يكون من المستحيل معه تحمل مسئولية ما لابد أن تعكسه الجريدة الأولى والأهم من أشياء أساسية تغير المجتمع، فى حين لا يستطيع تحمل مسئوليتها.

فى أول الأمر لم يتصور الكاتب أن هجومه على سياسة الانفتاح – كما عرفها – يمكن أن تغير عليه الحاكم ورجاله، لكنه مع الوقت سرعان ما

أحس الفارق الكبير بين (محاوراته..) مع الحاكم فى السر وجهره بها فى العلن.

كان بهاء الدين يمارس محاوراته مع الحاكم بطرق شتى..

إما بالحديث المباشر،

أو بكتابة بعض خطاباته،

أو بصياغة بعض بياناته..

ومن ثم، فإن حواره اتخذ شكل الديالوج مع الحاكم، غير أنه حين حاول أن يحول الديالوج من الحاكم إلى (مونولوج) يعيد صياغته بصوت عال مع الرأى العام، بدأ الخلاف واستفحل.

ولم يشفع له أنه لم يعارض الانفتاح الاقتصادى فى حد ذاته، وإنما انفلاته..

كان هذا الموقف هو الخرق الذى زاد اتساعاً بينه وبين السادات طيلة السبعينات، حتى أنه استحال - كما يقال - على الرقع.

على أية حال، لنتمهل عند فكر المثقف قبل أن نعاود النظر إلى هذا الموقف الذى وجد نفسه راجعاً إليه ثانية..

(٢)

كان أحمد بهاء الدين معاصراً لتطور فكرة الانفتاح منذ البداية، وكانت فلسفته فى ذلك لا تخرج عن تأييد هذه السياسة لاقتناعه بأنها إيجابية،

فهى لا تتعارض مع البنية الاقتصادية التى أرساها نظام عبد الناصر، كما لا تتنافى مع التدرج السليم لتطبيق هذه السياسة.

الأكثر من هذا أنه كان أحد المشاركين فى إرهاصات الانفتاح والحث عليه، ويدل على هذا أمران:

- كتب خطاب تكليف د. عبد العزيز حجازى بتشكيل أول وزارة فى زمن الانفتاح

- كتاباته المتنوعة في بداية عام الانفتاح ١٩٧٤.

ففى الخطاب الذى وضعه بناء على تعليمات السادات نجد فيه عبارات مثل.. «ضرورة وضع الوزارة سياسة الانفتاح كاملة موضع التطبيق..» وما إلى ذلك من العبارات الدالة، ثم التشديد على عناصر تكون لازمة للانفتاح كأن يكون للقانون هيبته وشروط للتصرف فى المال العام (محاوراتى، دار الهلال ص ص ٧٧ - ٧٩)، ثم كتاباته التى راح يربط فيها بين الانفتاح الاقتصادى.. والقطاع العام) - هذا هو عنوان إحدى مقالاته فى ١٩٧٤/٣/٨

- وفيها يربط بين الانفتاح ومعطيات حرب أكتوبر قائلاً:

«إن الانفتاح الاقتصادى لم يعد ممكناً فحسب على ضوء معطيات ٦ أكتوبر الجديدة التى سبق شرحها»، بل صار واجباً»

وبعد أن يرصد لقيام القطاع العام فى الفترة الناصرية وأهمية بنائه،

ويعدد بعض الشائبات التى نالت منه ،يعود للتأكيد على أن الانفتاح الاقتصادى ليس منافياً لسياسة الانفتاح الرسمية وجذب الاستثمارات، بل على العكس تماماً،يشجع عليها.

معنى ذلك أنه لم يرفض سياسة الانفتاح كما لم يغفل أثر القطاع العام فى هذه السياسة.

وقد ربطت نجاح السياسة الجديدة بشرط هو: «إذا تفتحت المعالم، واستقرت الحدود، ونمت قدراتنا على الاستيعاب، خاصة وأنه لدينا – كما يلاحظ – قاعدة إنتاجية غير متوفرة لبلد فى العالم الثالث.

باختصار، كان مؤيداً للانفتاح، بل كان أول من أشار – كما أكد مراراً – على الرئيس السادات بذلك، قال له:

«إن جو الانتصار بعد حرب أكتوبر، هو أحسن جو لأن تطلب الدولة من الناس ربط الأحزمة والصبر ثلاث سنوت مثلاً، توجه فيها هذه التبرعات والمساعدات والقروض والتسهيلات فى اتجاه الاستثمار وإصلاح ما أهمل منذ ١٩٦٧) . (محاوراتى...، ٧٦) .

وقد وجد فى ذلك، لدى السادات، استعداداً كبيراً.. إذ كان الحاكم يحلم أن تتحول مصر بسرعة إلى «هونج كونج» أخرى بغير تأنٍ، أو تردد.

وهو ما يدعو السادات إلى محاولة إرضاء الغرب والسير فى موكبه.

وكانت عجلة الرأسمالية الغربية تعمل فى هذا الاتجاه.

قروض ومنح من الحكومات العربية والمنظمات المالية العربية.

وتحويلات من مئات الألوف من المصريين الذين هاجروا مؤقتاً للعمل في الأقطار العربية، وتدفق الاستثمار بدون تحويل عمله.

فاستخدمت العملات من عرق المصريين في الخارج للاستيراد الاستهلاكى رأساً.

وباختصار، لم يتنبه أحد إلى أنه دخل مع هذه السياسة فوضى اقتصادية نالت كثيراً من الاقتصاد المصرى، وخلقت - فيما بعد - المشاكل، وزادت الديون، وقلت فرصة الإفادة من ارتفاع أسعار البترول الذى كان قد ارتفع خاصة بعد حرب ١٩٧٣، وما إلى ذلك..

كانت سياسة الانفتاح بدون تخطيط تنبئ بخراب شديد للاقتصاد المصرى، وآثار سلبية أقلها ارتفاع الديون وإغراق البلاد فى ممارسات مالية لم يستفد منها الاقتصاد الحكومى فى المقام الأول..

وسوف نعرض لهذه الفوضى خلال ما كتبه بهاء الدين في ذلك الوقت، ولم يمض ثلاثة أشهر على بدء الانفتاح.

لقد بدأ يناقش مستويات القضية على أكثر من مستوى:

الدولى

والعربى

والمحلى

أن القروض والإنفاقات التى نعقدها معناها تحويل آلاف الملايين إلى البنوك المصرية لنتصرف فيها، ولكن كل دولار منها يقابله جنيه مصرى علينا أن نوفره، ومرتبط بوجود مشروع مدروس جاهز للتنفيذ، فلا تنتشر روح التواكل وانتظار سقوط المطر!

* إننا يجب أن ندرك أيضاً أن الطريق شاق. وأن هذه المشروعات سوف تستغرق زمناً حتى تؤتى ثمارها، وبالتالى فالمرحلة الأولى للانفتاح هى مرحلة ادخار، وحرص على الموارد، وصعوبات، وأولويات.

* إن قانون الاستثمار الجديد ذاته، ترك الكثير من الأمور للبساطة التقديرية للجهة أو الشخص المسئول عن التنفيذ. وهذا أمر له خطورته من ناحيتين: من ناحية احتمال الخروج عن الخطة العامة للبلاد، ومن ناحية عدم اطمئنان الأجنبى ذاته لهذه السلطة التقديرية، فالثقة تتدعم بالقواعد لا بالأشخاص. ولذلك لابد أن يستكمل القانون بلائحة أو بغيرها. أى بقواعد مكتوبة لا تعيق الانفتاح، ولكن تنظمه، لمصلحة الطرفين معاً.

* إن منطق الانفتاح، بقواعده وضوابطه، يجب أن يمتد من الوزير إلى الموظف الصغير الذى يباشر العمل اليومى ويحتك بها وجهاً لوجه، فالقرارات العليا يمكن أن تضيق

منتهياً إلى نتيجة هامة هى زيادة دعاة «السداح مداح.. وكل شئ مباح».

إنه حتى الدول الرأسمالية الفنية، كانت إذا شعرت ببوادر خلل فى اقتصادها الوطنى تسرع إلى إجراءات الحماية بصور شتى. فعلتها أمريكا ضد أوروبا واليابان حين ضعف الدولار فى أواخر حرب فيتنام، وعمدت إنجلترا ثم فرنسا ثم إيطاليا إلى إجراءات حماية مخالفة لقوانين السوق المشتركة بمجرد احساسها بالخطر: تارة بتخفيض العملة، وتارة بفرض رسوم جمركية عالية على استيراد بعض السلع، فرغم كل الانفتاح فى العالم، نحن نمر فى نفى الوقت بمرحلة من (الوطنية الاقتصادية) التى يمارسها الجميع، ربما لموازنة معطيات الانفتاح الجديدة . (الأهرام ١٢ يولية ١٩٧٤).

وبعد أن يشير إلى أن المال يتجه إلى الإمكانات والطاقات، ويتردد طويلاً فى الذهاب إلى حيث لا توجد الطرق والموانى، والقدرات المحلية العمال والمهرة والخبراء.. أى ما يسمى (بالمقابل المحلى) يسجل عدة ملاحظات حول سياسة الانفتاح حينئذ فى مصر على هذا النحو:

*** إن هذا «المقابل الحى» أساسى جداً لنجاح الانفتاح، ولذلك فوضع خطة لتوفير المرافق الأساسية، وإستكمال كل طاقات القطاع العام، وإعطائه فرصة الانطلاق على أسس أكثر اقتصادية، أمر أساسى، لأنه من هنا نزيد «قدرتنا على استيعاب» المشروعات الجديدة.**

*** إننا يجب أن نشرح هذا للرأى العام باستمرار، فلا يظن**

شرايينها حتى تختنق كلما نزلت إلى ساحة التطبيق، بسبب لوائح، أو تركيز سلطة، أو مخاوف، أو رواسب.. فما معنى أن يضع فرد، مصرى أو أجنبى أمواله المستوردة فى بنك، ويكون له حق استخدامها قانوناً. ولكنه لا يصرف منها شيئاً إلا بشق الأنفس، ويعشرات الإجراءات والتوقيعات؟

* الخطة.. الخطة!.. والمشروعات المدروسة الصالحة للتنفيذ، أهم من أى شئ آخر.. وبغير خطة يمكن أن نتعرض لأزمات كالتضخم المفاجئ، أو الاختناقات ساعة تجئ لحظة تحويل العائلات إلى الخارج بعملات حرة، أو نفقد الهدف الاجتماعى الذى نستهدفه من التنمية، أو تطغى المشروعات الذى تجئ «لتلهف» أسرع وأكبر ربح دون عائد محلى كبير..

وأروى هنا واقعة صغيرة..حين أراد ديجول أن ينفتح على مصر أرسل بعثة من أكبر رجال الصناعة والمال فى فرنسا، وجرت مباحثات مع الجانب المصرى كان لها ضجيج.

ولكنهم بعد أن رحلوا قال لى السفير الفرنسى وقتها.. «جاء وفدنا وفى ذهنه أن لديكم خطة.. وبالتالى سوف تطرحون أنتم ماذا تريدون.. ولكن الجانب المصرى سأل الفرنسيين..

- ماذا لديكم ؟.. فإذا قالوا مثلاً : يمكننا أن نقيم مصنعاً لكذا، قالوا له عظيم.. نريد واحداً منه!

وهكذا عاد الوفد الفرنسى وقد اقتنع أنه ليس لدينا خطة، وإننا لا نعرف الأولويات التى نريدها، وبالتالى لا يمكن أقامة مشروعات كبيرة بهذا الأسلوب» .

* التدريب.. التدريب! ليس تدريب العامل والموظف وحده، ولكن أكبر المديرين أيضاً.. فعلوم الإدارة والتجارة والاقتصاد تتغير بسرعة، وسياسة العالم المتقدم تقوم على أساس سياسة (التعليم المستمر» التى أشارت إليها ورقة أكتوبر؛

قال لى أستاذ جامعى ممتاز سافر مؤخراً:

كنت أدرس مادة التجارة الخارجية، فوجدت أنها صارت فروعاً وتخصصات.. فهناك علم تخطيط التجارة الخارجية.. وهناك .. وهناك..

ونعتذر عن إيراد هذه الفقرة الطويلة من مقالته فى هذا الخصوص، لكنه أمر لازم للتعرف على كيفية معارضته لسياسة (السداح مداح) كما أسماها فى ذلك الوقت..

وهذا الموقف لم يقتصر على عام الانفتاح وحده - عام ١٩٧٤ - وإنما استمر.

ففى تلك الفترة خصصت صحيفة (الأهرام) الصفحة الثالثة بطلب من رئيس التحرير – بهاء الدين نفسه – لتأكيد سلبية هذه السياسة الاقتصادية بدون تخطيط أو درس كاف.

ورصيد كتابات بهاء الدين إلى نهاية السبعينات، ترينا أنه لم يترك فرصة إلا وتحدث فيها عن هذه السياسة، «هذا الانفتاح لم أعارضه، ولكننى عارضت انفلاته»..

كما لم يتردد من آن لآخر إلى التمهل عند مصطلحات هذا العصر، وبحث أصولها فى العربية لتأكيد أن ما يحدث خارج اللغة ليس له علاقة بالواقع الحقيقى.

والمهم بعد ذلك أنه لم يتنبه فى وقتها إلى أنه يسبح ضد التيار، فقد اعتقد أن محاوراته مع السادات وكتابة بعض خطبه أو قراراته كفيلة

أولاً: بتوفير حرية الاختلاف، وتسمح له

ثانياً: بإعادة بلورة أفكاره فى الصحافة، وتنجح

ثالثاً: فى حمايته من رجال الانفتاح وزبانيته الرسميين وغير الرسميين.

غير أنه تأكد له – مع مضى الوقت – أنه كان يحارب طواحين الهواء.

ولأن العلاقة بين الكاتب والحاكم دائماً كانت تحكمها تبعية الأول للآخر، فإن ما حاوله قد زاد من التوترات بينه وبين السادات، مما يمكن أن

نوافقه معه أن هذا الموقف انتهى إلى (شرخ) أصاب العلاقة بينه وبين السادات..

وقد زاد هذا الشرخ حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من رفض السادات - فى نهاية السبعينات - مقابلة أحمد بهاء الدين، وقال لمن جاء يطلب منه ذلك. إنه ،،أى بهاء الدين - كاتب بلا موقف..

(موسى صبرى، الأخبار ٨/٢/٨٦)..

* * *

لم يكن موقف أحمد بهاء الدين من سياسة الانفتاح الاقتصادى وحدها هى التى حددت العلاقة بينه وبين السادات، لكنها كانت - مع غيرها - مما عجل بالمصير الذى انتهت إليه هذه العلاقة.

وفى هذا السياق فقط، نستطيع، القول، إن أول رد فعل ضد سياسة الانفتاح، جاء من أحمد بهاء الدين.

الفصل الخامس

القضية العربية

أولاً

الوحدة العربية

«ماذا يراد بنا نحن العرب،
وقد تفجرت أرضنا بالبترول
فى هذا العالم الرهيب؟
استنزاف مخزونهم،
واستنزاف أموالهم،
وإغراقهم فى ألف قضية ومشكلة
.. لعشرين سنة»
أحمد بهاء الدين

قبل أزمة الخليج بعدة أشهر فقط سقط مريضاً..

وكأن القدر رتب هذا السقوط، فما كادت تمضى عدة أشهر على سقوطه، حتى كانت القومية العربية – وقد كان من بين أهم رموزها – تضطرب بعنف تحت أرجل حزب البعث العراقى فى الكويت، وتهتز بشدة فى رياح (عاصفة الصحراء) الأمريكية، فسقط العالم العربى وسط انكسارات لم تشهدها المنطقة من قبل.

ولم يكن هذا السقوط سوى إيذان بصعود دعاوى كثيرة بين الأجانب تؤكد انتهاء فكرة القومة العربية، وربما كان أبرزهم على المستوى العالمى المؤرخ المعروف برنارد لويس الذى راح يحلل ما حدث إبان أزمة الخليج، فيرى أن ما حدث إنما يؤيد انتهاء هذه الفكرة. وأن العالم العربى يتفكك

كهوية سياسية .. مغرقاً في التحليل الذي خلص إليه في مقالة بمجلة (الشئون الخارجية) والتي صدرت بالولايات المتحدة الأمريكية في نهايات عام ١٩٩٢ .

يحاول المؤرخ – الذي ينتمي بالجنس والديانة إلى اليهودية وبالولاء والانتماء إلى المخابرات البريطانية فالأمريكية – .. أن يصل من تحليل حاذق إلى أن هزيمة صدام حسين تعكس – على المدى التاريخي – هزيمة عبد الناصر.

كما أن الاهتمام المفقود للقضية الفلسطينية إبان اجتماعات واشنطن بين الوفود العربية والإسرائيلية. لم يعد كما كان، وهو ما ينتهي إلى خرافة القومية العربية (بعد أن انتهى نظيره فوكوياما إلى خرافة أية أيديولوجية أخرى عدا رأسمالية الغرب الأمريكي) ..

والواقع أن برناردلويس لم يكن أول كاتب أو موخ غربي أو إسرائيلي يذهب باسم العلم إلى تفنيد القومية العربية أو تأكيد انتهاء سطوتها. إذ سبقه أبا ايبان إلى محاولة اللعب على هذا الوتر بكتابه (موجة القومية) والذي جهد ليؤكد، في الخمسينات، نفس الأفكار متذرعاً بالعلمية قاطعاً التاريخ والجغرافيا بالطول والعرض ليؤكد لنا ذلك..

في هذا الوقت راح أحمد بهاء الدين يلتقط هذه الأفكار ويحاول التدليل على زيفها، ولم ينس أن يضمن ذلك كتابه الملحوظ (إسرائيليات) في فصله الأخير، وكأنه كتب للرد على أبا ايبان قبل ربع قرن أو يزيد، أو على برنارد لويس اليوم..

ونحن لا نريد الآن العود إلى أفكار أبا ايبان أو لويس.

فالفكرة العربية رغم ما نالته من ضربات عاتية، ما زالت تتنفس.

ورغم أنها تعانى من الأعداء أو الأبناء، فإن حتميتها، تؤكد، أنها، ستظل تتنفس حتى يستعيد الجسد عافيته ويعاود ابلاله والعود إلى ما كان.

هذه بدهيات - رغم التشاؤم الحاضر - أصبحت راسخة..

ولا نحتاج للدلالة عليها..

غير أن العود إلى كاتب واع مثل أحمد بهاء لاستعادة الأحداث التى مرت عليها، يمكن أن يعيد لنا شيئاً من تفاؤل التاريخ وحتميته بوجود القومية العربية وحضورها..

وهذه ليست كلمات حماسية، ولا هى فصلاً من البلاغة العربية، وإنما هى حقيقة نحاول استعادتها، وما أحرانا كلما اشتد بنا الكرب العود إلى التاريخ لنرى فى مرآته قانون الحاضر وما يؤدى إليه..

إن الاستعمار الأمريكى هو هو، وربما زادت شراسته.

وقضية فلسطين هى هى، وبالقطع زادت مأساتها

والواقع العربى لم يتغير منذ قرابة نصف قرن، وإنما زاد سوءاً..

فلنستعد تجارب الوحدة العربية فى فكر أحمد بهاء الدين قبل أن نصل منها إلى ما بعدها..

بيد أننا قبل أن نفرغ للتجربة لابد أن نسأل:

لماذا أحمد بهاء الدين؟

وما هى ملامح عصره السياسى؟

ثم ما هى مؤثراته العربية؟

الإجابة عن السؤال تكون فاتحة للإجابة عن بقية التساؤلات الأخرى.

* * *

أحمد بهاء الدين مثقف عاصر التجارب الوحدوية طيلة الخمسينات والستينات، وعاش تردى السبعينات، وتمدد الثمانينات، واقترب من الأحداث خاصة فى عقودها الأولى لدرجة يمكن القول معها أنه (شاهد عيان) لكثير من أحداثها، وأفنى سنوات كثيرة من حياته مولعاً بتطوراتها، وأنفق أوقاتاً كثيرة من السفر والفهم والقراءات.. وما إلى ذلك..

ومن هنا جاء موقفه ليس فقط انعكاساً لاضطراب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية - وما أكثرها - فقط، وإنما لانعكاس تطور الوحدة فى أطوار كثيرة على المثقفين الذى كان أحدهم، والذى كان خصماً لبعضهم وقريباً من بعضهم الآخر بحكم الانتماء إلى القومية العربية..

إلى جانب هذا أنه عاش فى فترة شهدت تطور القوى الوحدوية التقدمية الفعلية فى ثلاث دول: مصر وسوريا والعراق. ومن هنا.. كانت الرياح مواتية ليشهد كل هذه الأحداث، ويغرق فى تياراتها، رغم الخلافات الحادة

بين هذه الأقطار مما أفرز قدراً كبيراً من المرارة.

والأهم من ذلك أن المعبر عن هذا كله الغارق فى تطوره، آثر أن يسجل ردود أفعاله فى فترة فوران الأحداث، ثم يسعى إلى تجميع ما سجله على نفسه أثناء مساجلات دامية كثيرة، ويعيد طباعته فى كتاب أسماه (أزمة اتفاقية الوحدة الثلاثية) فى بداية الستينات.

وعلى ذلك.. حين نحاول فهم موقف أحمد بهاء الدين من قضية الوحدة العربية لن نخرج عن مرحلتين اثنتين:

- الفترة التى تنتهى بهزيمة ٦٧

أى الهزيمة العسكرية للوحدة العربية

- الفترة التى تنتهى باتفاقية ٧٧

أى الهزيمة السياسية لهذه الوحدة

وبدهى أن الفترة التى تلت ذلك طيلة الثمانينات إنما تعكس الهزيمة الشاملة، الثالثة، وتهيئ لها (هزيمة الخليج الثانية) وقد كان أحمد بهاء الدين نفسه أحد ضحاياها قبل أن تبدأ، فلم تكن الهجرة السوفيتية لإسرائيل حينئذ إلا أحد وجوه الفترة.

وهنا نشير بإيجاز شديد إلى ملامح هذه الحقبة

فى ذكر عنوانات هذه الفترة نشير بسرعة إلى أنه عقب عدوان ١٩٥٦ على مصر، تصاعدت الأحداث فى الأقطار العربية لتؤكد بروز الفكرة العربية كتحدى للقوى المعادية للعرب، ووصل التصاعد القومى إلى أقصاه

فى الوحدة المصرية – السورية ١٩٥٨ .

وما لبثت أن انحصرت المؤتمرات فى القوى الكبرى والنخبة الداخلية فى ١٩٦١ ، وظل الحس القومي في صعود وهبوط، خاصة ابان الاتفاقية الثلاثية بين مصر والعراق وسوريا، لكنها لقيت نفس المصير.

وحين جاءت هزيمة ٦٧ تلقت القومية العربية أعتى الضربات ضدها..

ومع ذلك ،فإن المد القومي والي صعوده بتكاتف الدول العربية ضد اسرائيل، ووصل إلى أقصى مداه فى حرب ١٩٧٣ . غير أنه لم يمض عام حتى تصدع البناء العربى، ووصل إلى أقصى انهيار له فى رحلة السادات للقدس عام ١٩٧٧ التى تمخضت عن ابتعاد الأقطار العربية عن الشقيقة مصر..

هذه الحقبة الطويلة شهدت محاولات للوحدة، أثيرت فيها قضية المصير العربى الموحد بالسلب والإيجاب، وخضعت تجاربه لقدر كبير من الهزائم والاحباطات، غير أنه شهدت المنطقة العربية لأول مرة فى التاريخ الحديث عدة محاولات للوحدة الوحدة ٥٨ – ٦١ ، الوحدة الاتحادية الثلاثية ٦٣ ، خطوات فى طريق الوحدة تمت بين مصر والعراق ١٩٦٤ ، ثم جاء اتحاد الجمهوريات العربية ٧١ ، فمشروع الوحدة الليبية المصرية ٧٢ ..

كان الزمن هو زمن الكفاح ضد الاستعمار القديم (الغربى) أو الجديد (الأمريكى)

وكان زمن افتقاد القيم السياسية والنيابية ومطامع الأحزاب والنخب الحاكمة وتحرك الشركات متعددة الجنسيات، وفساد القيم المالية والتنموية..

غيـر أننا قبل أن نصل إلى دور أحـمـد بهاء الدين فى هذا كله لابد من التمهل - هنيهة - عند مؤثراته وتكوينه الفكرى فى ذلك الاتجاه..

(٢)

الانتماء العربى أكثر ما يلاحظ عند أحمد بهاء الدين..

وهو انتماء قديم - فيما يبدو - يمكن تحديده أكثر منذ فترة الأربعينات، حين كان حسه العربى يحرك مواقفه الأولى.

فهو يحدثنا فى هذه الفترة المبكرة أنه حين ضرب الفرنسيون دمشق بالمدافع خرج مع غيره من الطلاب فى مظاهرات، فتعرض مع غيره إلى رصاص البوليس.

ولا يفتأ يذكر من آن لآخر أن أكثر من ترك أثراً عروبياً فيه كان فارس الخورى الذى راح يعلو صوته فى المجالس الدولية دفاعاً عن الحق العربى «صار يومها بطلاً قومياً فى مصر».

وحين قامت ثورة ٥٢، وبدا أنها فى الفترة الأولى ترفع شعار: مصر أولا يذكر بهاء الدين هنا: «عارضناها بالقول والكتابة»، لكن لما بدء الانتماء العربى يميز توجهات الثورة كان فى مقدمة من أيدها وتحدث عن انجازاتها.

وعلى ذلك، فإن التفاعل الفعلى بدأ منذ الخمسينات، إذا ارتبط بفكر الثورة ومواقفها فى عديد من الأحداث التى يتميز فيها الاتجاه القومى، وخاصة حين راح يتركز هذا فى أحداث هامة فى سنوات ٥٦ - ٥٨ - ٦١

- ١٩٦٣ وهى، كلها سنوات، تعكس المد القومى العربى إلى غير ذلك مما يؤكد هذا التوجه.

ولا يخلو من مصادفة أن أحمد بهاء الدين قد عرض عليه رئاسة تحرير مجلة (العربى) من صيف ١٩٧٠، وحين اعتذر تكررت الدعوات حتى قبلها بالفعل فى أول يناير ١٩٧٦.

فأسهم فيها فى تأكيد الروح العربى والأفكار التى طالما دعا إليها، وراحت تكتمل الدائرة باختياره فى لجنة تنسيق السياسة بين الحكومات العربية ١٩٧٠.

وقبلها بقليل كان رئيساً لاتحاد المحاميين العرب.

كذلك سعى للتعرف على القضية الفلسطينية بشكل فعلى، فكان من بين أوائل المثقفين الذين ذهبوا إلى الأرض المحتلة مروراً بالأردن، وعاش مع الفدائيين الفلسطينيين، وحضر الكثير من اجتماعاتهم، ودخل محاورات كثيرة معهم أو ضدهم.

وسوف نرى أن أكثر ما عبر فيه عن ارتباطه بالوحدة العربية كتاباته التى توزعت بين الدوريات والندوات والكتب، فكلها لا تخطئ الهاجس العربى المسكون فيه، وهو ما يمكن أن نعثر عليه منذ أول كتبه (النقطة الرابعة) فى بداية الخمسينات وحتى آخرها (محاوراتى..)

إذن أعماله فى هذه الفترة الطويلة لا تخرج عن الوعى بقيمة الوحدة العربية فى زمن يتشقق فيه الوجود العربى، فى حين يلتئم أى وجود آخر فى الشرق أو الغرب.

ففي عصر التجمعات والكتل الكبيرة لا يجب أن نحتمى بالقطرية أو نتمسح فى مميزاتها.

ولا يجب أن ننسى أنه فى كتابه «إسرائيليات» راح يعدد الأخطار الكثيرة التى تلتف حول العقل العربى، بل راح يخصص به فصلاً كاملاً ليتحدث فيه بوضوح عن ضرورة القومية العربية التى راح يخرج عنها أبا ايبان كتابه ليؤكد العكس، كما أسلفنا ..

وفى هذا الفصل تفصيل فريد لما يجب أن ينتبه إليه العرب، فالقومية ليست (موجة) كما يقول عنها أعداؤها، وإنما هى مجرى عريض يجب العمل على توسيعه وتعميقه.

ونستطيع أن نلاحظ أن قضية الصراع العربى - الإسرائيلى كانت هى المنطلق الأول عند بهاء الدين ليؤكد من خلالها افتقاد العرب عناصر الصراع: الوحدة.

فإن الهزائم المتكررة للعرب ليست إلا تأكيداً على تفرقهم، وهو الذى نستطيع أن نصل إلى أسبابه حين ندرك أن ابتعادنا عن الحضارة إنما هو الباعث الرئيسى وراء هزيمتنا، ولن نستطيع أن نعاود أمجادنا القديمة وتحرير أراضينا إلا بمحاولة سد ثغرة التخلف الحضارى بين أعدائنا وبين ذواتنا نحن العرب فى كل الأقطار العربية وليس فى قطر دون آخر.

وهو ما سنقترب أكثر منه حين نصل إلى موقفه من تجارب الوحدة العربية

(٣)

نستطيع أن نتعرف على تجربة أحمد بهاء الدين من خلال عدة محددات رئيسية، يمكن ترتيبها على النحو التالي:

أ - التصور

ب - القصور

جـ - الشهادة

ولا يمكن الدخول إلى هذا العالم دون أن نتمهل عند أهم التصورات التى تمثل المفاهيم الأساسية للقومية عنده، وهى المفاهيم التى لم يتراجع عنها أو يغيرها طيلة هذه الحقبة منذ الخمسينات حتى الثمانينات.

ولا يمكن أن نتمهل عند هذا المصطلح أو ذاك، فنتعامل معه على أنه مفهوم خام، جامع مانع، وإنما سنلاحظ أنه مفهوم يخرج من رحم الأحداث ويتلون بتغيراتها ويتشكل خلال تغييراتها.

وعلى ذلك، فإن هذا المصطلح أو ذاك إنما يعكس فى المقام الأول الأزمات التى عاشتها مصر سواء مع حزب البعث فى سوريا أو العراق فى الخمسينات، أو الستينات، أو مع التغييرات الحادة التى عرفها الوطن العربى عقب تغييرات السبعينات فى محاولة لتغيير ملامح عروبة مصر أو صبغها بلون الحدث دون التمهل عند الثوابت..

إن أهم التعريفات التى لجأ إليها فى هذا تعريف(**القومية العربية**).

ومن بين التعريفات التى راح يعرضها فى كتابه (قوميتنا فى امتحان

جديد) راح يؤكد على أنها – أى القومية –«تلك الرابطة التى تؤلف بين الناس فتجعلهم أمة واحدة، يتكلمون لغة واحدة، ولهم تكوين نفسى مشترك، ومصالح وتقاليد متشركة، ماضيهم يسرى فيه تاريخ متصل، ومستقبلهم يصنعه كفاح مشترك، ثم يضاف هذه الروح أو الإرادة الشعبية العامة». (٤ – ٥).

ولأن الشيوعيين حاولوا السيطرة فى ذلك الوقت على حزب البعث، وحاولوا أن يعيدوا صياغة الفكرة، فإنه راح، فى نفس الإطار، يشير إلى أن ما يؤكد وجود هذه العناصر للقومية أنها ليست عنصرية، كما أنها تختلف كثيراً من حيث الفكرة عن الدين، كذلك، فإنها لا تعزل نفسها عن التطور الاجتماعى.

ويلاحظ على هذا التعريف أن تحقيق القومية لا يكون بهذه الشروط التقليدية، فهى شروط يمكن الخروج – بها – نظرياً – من دراسة التجارب الوحدوية التى عرفتها القوميات فى الغرب، وإنما بتوفر شرط هام يسميه بشر «الإرادة الشعبية»، وهى الإرادة التى لا تمثل عنصراً عاماً، بقدر ما تمثل المادة الاسمنتية القوية التى تلتصق ببقية الشروط الأساسية، فبها يمكن امتلاك القدرة على هذه الوحدة والحفاظ عليها، ليس مجرد الفعل الذى يخلو من إرادة الاستمرار..

على أن هذه الوحدة تظل مرهونة بشرط آخر، يكمل الشرط السابق ويؤكده.

إن هذا الشرط الذى يجب اشتراطه.. **هو شرط الاستقلال الحقيقى،**

والتخلص من الاستعمار والتبعية ومناطق النفوذ (٩)، وهذا يرسم كيفية تحقيق الوحدة فى عالم ما زال الاستعمار الجديد فيه (الأمريكى) يسعى لربط أقطار العالم العربى فى تحالفاته، ومحاولة السيطرة على مناطق الثروة، وحماية أداته ..(إسرائيل).

وكما يرفض أن تكون الوحدة، تحت تأثير عوامل خارجية، كذلك يرفض أن تقوم هذه الوحدة - باستشراف زكى - على غزو (برجوازية) لبرجوازية أخرى فى قطر آخر.

فالشرط ليس الاستقلال عن المحاولات الخارجية الدؤوبة للنيل من الإرادة العربية فى كل قطر، وإنما أيضاً التحرر من سيطرة طبقة عربية على طبقة عربية أخرى، أو سيطرة نظام على نظام آخر، وهى الحجة التى راح الانفصاليون فى سوريا يتذرعون بها لإنهاء أول وحدة عربية فى التاريخ الحديث.

ولأن الشيوعيين العرب كانوا كثيراً ما يتحدثون عن الأممية على حساب أية وحدة أخرى، فقد أولى بهاء الدين عنايته القصوى لتعريف **المثقف العربى الجديد.**

وهو المثقف الذى يستطيع أن يفرق بين ما يريده الاستعمار وما يريده المثقف (التقدمى) - فى تعبيره، لقد اقتحم أسوار التعريفات المغلقة فى ذلك الوقت، وراح يفصل ذلك فى هذا التصور:

«التقدمى العربى لا يجد حرجاً ولا تناقضاً بين مبادئه التقدمية وبين إيمانه بالقومية العربية، لأن هذه الحركة

القومية قد أخذت بالفعل مجرى تقدمياً، فهى حرب ناجحة على الاستعمار فى كل مكان فى الوطن العربى، وهى إذا وصلت فى قطر من الأقطار إلى مرحلة الوحدة، كما حدث بين سوريا ومصر، فإنها تتسم بأسلوب ديموقراطى، أى باستفتاء شعبى حر» (١٩).

ويشتد هجوم اليسار على التجربة الوحدوية بين مصر وسوريا. فيرى بهاء الدين أن ذلك موقف مريب.

وهو الموقف الذى يقف فيه اليسار (المتطرف) فى صف اليمين (المتطرف)، فالتقدمى عنده – هو يسارى هذا الفترة – هو الذى يحاول أن يكون أكثر الجميع يسارية، ويفصل ذلك أكثر حين يقول بوضوح:

«إن القومية العربية المتحررة، بعد أن كانت تحارب فى جبهة على يمينها.. أصبحت تحارب فى جبهة على يسارها» (٢٩).

وقد كان بهاء الدين يقف فى صف المثقفين الوحدويين الذين كانوا يقفون فى موقف مضاد لثورة عبدالكريم قاسم فى العراق.

كانت حركة قاسم فى العراق تشن هجوماً عاتياً على الجمهورية العربية المتحدة، وتحاول تحت ضغط القوى الأجنبية النيل من عبدالناصر رمز الوحدة العربية حينئذ.

لقد رأى أن القوى التقدمية التحررية بعد أن كانت تحارب فى اليمن، والسعودية، والأردن.. الآن تحارب العراق ونظام قاسم فيه، وبذلك، فإن

محاربة اليسار الآن إنما يشير إلى حقيقة هامة، هى.. أن اليمن بعد أن تعب كثيراً من حرب تجربة الوحدة ضم إليه اليسار، فسعى اليسار بدون تردد ليخفف «الضغط على الرجعية».. «وبذلك يمنحونه فرصة أكبر للنيل من تجربة الوحدة»..

وعلى ذلك، فإن هجوم بهاء الدين انصب على نظام العراق الشيوعى، فالحزب الشيوعى الذى كان يسعى نهائياً على السلطة هناك كان يسعى لسحق كل الآراء الوحدوية الوطنية بالقوة، ولتحويل العراق إلى دولة تمضى فى ركاب المعسكر الشيوعى، وهنا، فإنه راح يحذر من خطر الحرب الباردة بين المعسكرين - الشيوعى والرأسمالى - على مصير الوحدة العربية، فإذا تم ذلك، فسوف تصبح البلاد للمرة الأولى، تحت رحمة الحرب الباردة (٢٠).

ذلك لأن الحرب الباردة بين المعسكرين تضخم المشكلات بينهما، وتزيد المشكلات، ويحاول كل معسكر فى ذلك أن يجذب طرفاً من أطراف الوطن العربى، ومن هنا، تتجمد قضية وحدة الأمة العربية، وتتوقف (٢١). ويشغل الجميع هنا بالصراع الدائر بين المعسكرين من أجل قضايا قد لا تجد خلاص لها قط، وبذلك «تتخلص إسرائيل من الشبح الحقيقى الذى يؤرق حياتها: شبح الوحدة العربية». (٢٤)..

وتتعدد هذه المعوقات للوحدة، وتظل أبرز ما يميز الخلاف بين من يدعون إلى الوحدة فى الوطن العربى، ومن يدعون ضدها.

وتمضى الستينات لتشهد أعنف الهزائم العسكرية قاطبة تأتى من

المعسكر الغربى بصنيعته إسرائيل، وتنفرط حبات المسبحة أكثر فى السبعينات التى تشهد تصاعد الصراع الدامى على لبنان ، وتشهد مصر فض الاشتباك بين الجبهة المصرية والإسرائيلية عقب حرب أكتوبر، وتجهض انتصارات ٧٣ بعد مبادرة السادات بذهابه للقدس، ثم عقد مؤتمر كامب ديفيد، وينجم عن ذلك كله تراجع عن أفكار الحقبة القومية التى كان قد أرساها عبدالناصر على مدى عقدين من الزمان.

فى نهاية السبعينات تبدأ دعوة توفيق الحكيم بضرورة حياد مصر.

ولثلاثة أشهر بعد مارس ١٩٧٨ تفجر دعوته حواراً واسعاً بين المثقفين والصحفيين ورجال القانون لا يخرج المعنى الرئيسى فيها، عن دعوة عدد كبير من المشاركين بضرورة رفض دعوة القومية العربية، فى حين تصدى البعض الآخر لهذه الدعوة مع تحفظات لا تنفى الفكرة أو تؤكدها، وقد طرح فى هذا الحوار إعادة النظر فى عديد من المفاهيم التى راح المشاركون يناقشونها - رغم بداهتها - بجدية شديدة..

ورغم أن موضوع هذا الحوار لا يهمنا هنا فإن اقترابنا منه سوف يقتصر على قضية واحدة من القضايا الكثيرة التى طرحت فى ذلك الوقت، ونقصد بها قضية حياد مصر أو علاقة الإقليمية بالوحدة، ومفهوم الوحدة.

المفهوم الأول:

أثيرت قضية الإقليمية في مصر،

وخطورة هذه الآثار أن من يشير إلى الإقليمية يرى أنها تتعارض مع الوحدة، فتاريخ مصر - على سبيل المثال - يؤكد، كما يردد البعض، أن علاقتها بنفسها أقوى من علاقتها بغيرها،

وقد راح بهاء الدين يتصدى لهذه الدعوى طيلة السبعينات، توقف عندها في بداية هذا العقد وتوقف عندها في نهايته..

ففي المرة الأولى راح يضرب أمثلة لاهتمام سوريا بحضارتها القديمة وهو الاهتمام الذى نجده في العراق ومصر وغيرها. ففي كل هذه الأقطار من الآثار والاعتزاز القومي ما لا يلغي الاحساس بالوحدة العربية.

وقد بدأ فكرته من تجواله في عديد من هذه الأقطار للبرهنة على أن التاريخ القديم لا يلغي التاريخ الحديث. فعقدة التاريخ القديم السابق على التاريخ العربي، وعدم الاعتزاز به،قد زالت. وهذه بوجه عام علامة نضج، وراح يتمهل عند مصر، فيقول. وحين تعتز مصر - مثلاً - بتاريخها الفرعوني، وتاريخها القبطي، وتاريخها الإسلامي، وتاريخ الحركة الوطنية المصرية، لا يتنافى هذا التراث عبر خمسة آلاف سنة، مع إدراكها لانتمائها العربي الماضي، والحاضر والمستقبل، لأن كل أرض من حقها أن تعتز بما انبتته من تراث. وكل حضارة لا يؤذيها أن تتغذى من منابع شتى، وتنصهر من مواد ذات أصالة وغنى وعمق. (الأنوار اللبنانية ٣٠/٤/ - المصور ٣٠/٤).

كان أحمد بهاء الدين يقف أمام تيار هادر يحاول أن يلغي دور مصر

العربى فى وطنها العربى فى مناخ كان الحديث فيه بشكل مستمر عن (إقليمية مصر) لا يخلو من ريبة، إذ بدأت الصحافة الأجنبية والعربية تتحدث عن اتجاه عزلة مصر، وتضرب الأمثلة بالمسرحية التى كانت تعرض فى ذلك الوقت بالقاهرة (ياسين ولدى)، فمثل هذا العرض يعزف نغمة حب لمصر ولتاريخها لكنه لا يلغى حب التوجه القومى وضرورته.

وحين ارتفعت نغمة حياد مصر فى نهاية السبعينات، كان لابد لكاتب عربى واع مثل أحمد بهاء الدين أن يعود ليواجه قدره، وهو الحديث فى البدهيات، أن يحاول أن يحل طلاسم سوء النية أو السذاجة التى تعرضت لها مصر، وربما كان وقوفه عند (الثابت) و(المتغير) فى خضم الأحداث هو ما أراد أن يبرهن به على أن الثابت دائماً هو الانتماء العربى، وراح يعجب من عدد كبير من المفكرين والمثقفين حينئذ، فخروج مصر الفرعونية من تحت انتماء مصر العربية إنما يظل من أهم طموحات «قوى عالمية كبرى تريد بغير شك أن ترى مصر، وقد خرجت من العالم العربى. فهذا بمثابة إخراج (المحرك) من السيارة» (الأهرام ٢٢/٤/١٩٧٨)

وقد راح يفصل كثيراً فى بواعث الخلط بين الثابت والمتغير: فانتماء مصر ليس ثوباً تلبسه فى عام لتخلعه فى عام آخر، كما يجب التفرقة بين خلافات الحكام والشعوب.

ولعدة أشهر بعد ذلك، حاول تأكيد هذه الفكرة. أن لا فارق بين الإقليمية والوحدة، وراح يعيد عناصر الوحدة، حتى إذا ما وصل إلى من يتحدثون عن العرقية دلالة للحديث عن الإقليمية، راح يفندها، فالأصول العرقية الواحدة لا يمكن التعويل عليها اليوم، ومحاولة إثبات أن المصريين سلالة

الفراعنية يظل حديثاً غير وارد فى أى بلد. (الأهرام ٧ مايو ١٩٧٨)

مستعيداً للمرة العاشرة – ربما – أهم عناصر الوحدة من وحدة التراث وتشابه التكوين النفسى ووحدة اللغة ثم الجغرافيا والمصلحة ووحدة الآمال ليصل من كل هذا إلى الانتماء الأول وهو المشاعر أو وحدة الروح.

والتناظر بين الحالات يبرهن عند بهاء الدين على انتفاء خطر الإقليمية على الوحدة.

وهذا التناظر لا يتوقف عند القطر والقومية، وإنما يمكن رصده داخل كل قطر.

فمن السهل العثور داخل كل قطر على أكثر من قطب فى الدائرة الواسعة، تعمل على تجانس المساحات بين أجزاء الدائرة لا تنافرها.

وقد راح فى هذا يضرب مثلاً بعلاقة النوبيين بالوطن الأم فى مصر، فقد جاء وقت كانت مصر تبنى السد العالى، وكان لابد من ترحيل النوبيين عن أوطانهم الأولى توطئة لتنفيذ إحدى مراحل السد بإغراق أراضيهم، فذهبت بعثة من الإذاعة المصرية لتسجل الأغانى الفلكلورية الشعبية النوبية الخالصة للحفاظ عليها كتراث، وحين تأهبت البعثة للتسجيل فوجئت أن أهالى النوبة يغنون وينشدون الأغانى التى تبث من إذاعة القاهرة..

ويقص بهاء الدين بتأثر شديد هذا المشهد الذى عاشه بنفسه فى أسوان، ويروى كيف بذل الحاضرون جهوداً لإقناع النوبيين بتذكر أغانيهم الفلكلورية الأولى، ونقل المحلى للتاريخ، وهو يتوقف عند هذه الحادثة ليبرهن بها على أن المحلى لا يلغى القطرى، كما أن القطرى لا يلغى

القومى، بل على العكس من الممكن أن يثرى المحلى القطرى ويؤكده،

(Unesco Journal of World History, Volume XIV NO 1972)

وهو ما يؤدى إلى مفهوم الوحدة...

المفهوم الثانى

ورغم أنه يعدد أسباباً كثيرة للوحدة، فإن النغمة التى تتكرر كثيراً لديه هى أن من شروطها هذا الحس العاطفى الذى يقترب من المخزون التاريخى الثقافى أكثر منه مخزوناً وهمياً أو من قبيل الأساطيرة التى أشيعت فى ذلك الوقت فى نهاية الثمانينات، والتى ذهبت إلى أن الوحدة لا تعدو أكثر من فكرة أسطورية من هذه الأساطير..

إن القيم العليا العربية التراثية القديمة، وهذا الارتباط المعاصر بالهوية فى عالم تعمل فيه وسائل الإعلام بشكل متسارع يحول الإحساس بالوحدة إلى إحساس ثقافى خاص، وبذلك يصل إلى أن الوظيفة الثقافية لأى مجتمع يمكن أن تصون كيانه العام، وذلك بالتكيف مع العالم المتعدد الأبعاد والمساهمة – بالتبعية – فى الثقافة العالمية.

إنه يؤكد أن العرب فى حاجة إلى الانتماء الثقافى للحضارة الإنسانية حولهم، وكلما كانوا أكثر قرباً من هذا المفهومن كانوا أكثر قرباً من الوحدة الثقافية العربية.

فكما أنه لا يجب أن ينفصل الإحساس المحلى بالإحساس القطرى، وكما

أنه لا يجب أن ينفصل الإقليمي عن القومي، كذلك يجب ألا ينفصل الإحساس الثقافي العربي عن الإحساس العالمي..

وبذلك، فكلما كانت الوحدة الثقافية متينة الجذور في الأرض العربية، كان تطويعها في إطار ثقافة عالمية أقرب إلى تحديد (الهوية) الثقافية بدون عقد أو بواعث سلبية.

أضاف إلى ذلك كله أن قضية الوحدة العربيةالآن أصبحت تحتل مكانة بارزة بين التطلعات الوطنية عند العرب على الرغم من أن كل الصراعات والتيارات المختلفة تفعل العكس.

إذ أن أهم ما يدفع إلى تأكيد هذه الوحدة واستمرارها تظل حالة الوحدة الثقافية الشاملة، وهي تعكس وحدة سياسية تحميهم من الانفصال والتفرق والخسران خلال مرحلة التوافق والاقتراب.

وفي الدراسة التي أعدها أحمد بهاء الدين لليونسكو، راح يؤكد في جزء كبير منها على نقاط القوة في الوحدة الثقافية، فهذا الشعور يمنح نقطة بدء يمكن أن يكون العرب عندها قادرين على التعامل مع العالم وقيمه المتغيرة.

ومما يساعد العرب في هذا السبيل – أيا كانت الخلافات ، وأياً كانت المشكلات السياسية أو الاقتصادية – أن الوحدة الثقافية فيما بينهم تظل أقوى من أي وحدة أو علاقات اجتماعية أخرى، فهي أكثر الروابط رسوخاً، وهو لذلك يضرب مثلاً دالاً. ففي أوروبا إذا ما سئل فرد عن أعظم الشعراء أو الروائيين أو الكتاب، فإن البريطاني يمكن أن يذكر شكسبير، في حين يذكر

الفرنسي فيكتور هوجو، والألماني جوته، أما العربي فهو يذكر - أياً كان موقعه الجغرافي أو السياسي - أبو العلاء المعرى والمتنبى وأحمد شوقى، وغيرهم، حتى فى العصور الحديثة حيث تطورت القصيدة الكلاسيكية مثل أى شئ آخر، فإن المرجعية الثقافية لا تخرج عن قيم وتقاليد ثقافية محددة موحدة، وهو ما يجعلنا نرى أن محمود تيمور ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم كتاباًمصريون وعرب معاً..

والملاحظ أن الكتاب والأكاديميين حين يتحدثون عن التطور التاريخى لا يذكرون، فى معرض الحديث عن الوحدة العربية، العلاقة الأكيدة بين مجموعات القوى السياسية والأحزاب الحكومية، وبين هذه الوحدة الثقافية التى تجمع هذا الوطن العربي..

وكأن أحمد بهاء الدين يستشرف أثر هزائم كثيرة مثل أزمة الخليج قبل مرضه.

فيشير فى هذا الصدد، إلى أنه إذا كان الماضى قد وحد العرب فى دولة أو امبراطورية ضخمة، فإن المستقبل يفعل ذلك أيضاً، كيف؟ بالوحدة الثقافية، والمستقبل يتشكل بهذا العامل ويظل رهيناً به، فمهما تكن الخلافات أو درجات التخلف، فإن الوحدة الثقافية تظل هى الوحدة التى تواجه أى تحد آخر..

وسوف نعود مرة أخرى إلى قضية الوحدة الثقافية فى نهاية هذا الفصل حين نعاود التمهل عند أفكار برنارد لويس فى محاولة تمرير أفكار هدامة ضد الوجود العربى الذى كان قد اهتز بعنف اثر أزمة الخليج الثانية.

لنصل الآن إلى القصور فى تجربة الوحدة العربية خلال توقفه عند تجاربها، ولنخرج من التصورات إلى الواقع الحى.

(٤)

من متابعة موقف أحمد بهاء الدين من المشروعات الوحدوية فى الستينات، مروراً بتطورات السبعينات والثمانينات نستطيع أن نلحظ فى كتاباته، التى جاءت فى معظمها ميدانية، بواعث فشل هذه المشروعات وقصورها عن تحقيق أهدافها.

ويمكن الوصول إلى عدة نقاط تمثل القصور الذى أصيبت به التجارب الوحدوية أو الأفكار العربية فى هذا الطريق، وأهم هذه النقاط:

- مسئولية النخبة الحاكمة
- تراجع قيم الديموقراطية والتشريع
- الدور السلبى للبترول

تناقض خطط التنمية

- الدور الخارجى

وسوف نفصل كل نقطة على حده

* * *

من أهم النقاط التى تحول دون اتمام الوحدة ،تناقض مصالح النخبة

الحاكمة مع عملية التوحيد السياسى»، وهو ما يحول بين أحلام هذه النخب وبين تحقيق امتيازاتها، واستمرارها.

هذا إلى جانب الخلافات بين الأنظمة العربية،وهي خلافات تعكس الآثار السلبية التى تنتهى إليها أية تجربة وحدوية.

وحين رصد أهم الشروط التى يجب أن تكون فى الحاكم العربى ليكون وحدوياً راح يحدد أن هناك حاكماً وحدوياً وحاكماً انفصالياً، والحاكم أو الحكم الوحدوى «هو الذى ينمى العوامل والظروف التى تدعم الوحدة القومية، فى حين أن الانفصالى هو الذى يبحث عن أسباب الخلاف، وينقب عن المتناقضات التى تنقرض.. لكى يحاول أن ينميها ويغذيها ويضخمها، حتى يقيم منها حواجز ضخمة تسد الأفق». «أزمة اتفاقية الوحدة الثلاثية، ص ٢١)

وعلى ذلك، فإن الحكم الوحدوى هو الذى يسعى إلى القضاء على معوقات الوحدة مثل القضاء على الإقطاع، وتوحيد النظم التعليمية والثقافية ، ثم الاتجاه إلى التخطيط الاقتصادى ويخلق مصلحة وحدوية مشتركة فى حروبه ضد الرجعية.

. أما الحاكم الانفصالى فهو الذى يفعل العكس.

ولأن الزمن زمن الانقلاب على الوحدة من عديد من الأقطار العربية، فقد راح بهاء الدين يذكر موقف حكومة سوريا الانفصالى ضد عبدالناصر، وهو نفس موقف حكومة سعود وحكومة حسين وحكومة عبدالكريم قاسم.. وغيرذلك.

وعلى ذلك فإن أولى المشكلات تظل قضية الحكم.

إذ أن أية نخبة فى الأقطار العربية تسعى إلى الحاكم وتحاول الاستحواذ عليه وتفعل كل ما من شأنه الحفاظ عليه، فالخلاف بين الحكومات ليس إلا على منهج الحاكم فى التعامل مع القضايا حوله، الخلاف بين الوحدة الثنائية والوحدة الثلاثية – وكنا قد عشنا تجاربهما بعد الوحدة مع سوريا أو باضافة العراق مرة ثانية – بما يشيرإلى أن الخلاف الأول كان حول تنظيم الحاكم نفسه. الحاكم القادر بقواه الذاتية، باستيعاب لقوى الشعب أن يجمع سوريا حوله، ويحول أمانيها فى الوحدة إلى حقائق. (٤٨).

وهذا الحاكم سواء أكان انفصالياً أو وحدوياً هو الذى يحدد طبيعة العمل السياسى العربى.

فحين يصبح العمل السياسى خلال (التنظيمات) موحداً يكون من شأنه أن يلقى فى تيار الفكرة الواحدة، وقد تأكدت هذه الحقيقة بعد نشر نصوص اتفاقية الوحدة الثلاثية فى ٢٧ أبريل ١٩٦٣.

ومن ثم، كشفت عن أهم حقيقة سياسية فى هذا الخصوص، وهى أن المنظمات السياسية العربية سواء أكانت أحزاباً أو تنظيمات شعبية واسعة متأثرة فى ظروفها بواقع التجزئة التى تريد الوحدة – أساساً – أن تقضى عليه. فكل حزب أو تنظيم شعبى له قاعدة أساسية فى قطر من الأقطار..

ومعنى ذلك أننا حين نحقق الوحدة بين عدد من الأقطار العربية نصبح أمام احتمالين لا ثالث لهما:

إما أن تتوحد هذه المنظمات بصورة أو بأخرى.. وإما أن تبقى متعددة (٨٩).

إن التنظيم السياسى هو القادر على تنظيم الوحدة.

ولأن التنظيم السياسى يظل تابعاً لهذا الحزب أو ذاك، أو لهذا الحاكم أو غيره، فإنه من المستحيل أن تستمر فكرة الالتقاء الوحدوى، وبعد أن يسهب بهاء الدين عن التجارب الوحدوية فى العالم يعود ليؤكد أن وحدة العمل السياسى – انطلاقاً من الخلافات التى تمت فى اتفاقية الوحدة الثلاثية – يظل أهم العناصر فى تحقيق الوحدة.

إن اجتياز الخلافات السياسية بين الحكام، يظل أول العناصر التى تحقق الوحدة وتسعى إليها،وهوما يحرض به الشعوب على الحكام، فقد مضى زمن الاعتماد الكلى على النظم السياسية لتحقيق الوحدة ، وجاء زمن العمل السياسى والاجتماعى الشعبى.

إن الحركات الشعبية أصبح عليها أن تتجاوز انغلاقها الحزبى على نفسها.. ذلك الانغلاق الذى قد تمليه ضرورات النضال ضد قوى حاكمة شرسة (٩٣).

وإذن، فإن تحقيق الوحدة عنده يظل مرهوناً بتحرر النظم السياسية فى كل بلد من أطماعها وأحلامها فى الحاكم.

وهو أمر يحتاج – للخلاص من أنانيته – قدراً كبيراً من التجرد وإنكار الذات والثقة بالنفس.

غير أن الطريق إليه لابد أن يمر، فى كل قطر، بتوحيد كل خلايا العمل السياسى لتتأهب فى تنظيم واحد يكون قادراً على فرض إرادته فى حالة الوحدة مع غيره، فحين نرتب عملية إيجاد الرابطة السياسية الشعبية بين الأقطار الثلاثة، نجد أن نقطة البدء هى أن توجد القوة السياسية بهذا الوصف أولا فى كل قطر، فإن تم هذا فى مصر وسوريا والعراق فإن الخطوة الحتمية التالية هى إيجاد لقاء بين التنظيمات السياسية فى الأقطار الثلاثة (٥٢).

وهذا يؤكد عنده أن الوحدة عن طريق اللقاء الجغرافى لا تكون على مستوى الوحدة عن طريق لقاء النخب والأحزاب فى قيادة عربية موحدة..

إن الخلافات داخل كل حزب عربى أكبر من الخلافات بين كل حزب وحزب آخر داخل كل قطر، فإذا نجحنا فى تأكيد الوحدة السياسية نكون قد وصلنا إلى تأكيد الوحدة العسكرية، ومن ثم، القيادات السياسية العامة بين الأقطار الثلاثة.

إن القوى السياسية على أعلى مستوى – هى (النخبة) أو (القوة التقليدية) التى تمثل حجر الزاوية فى أى وحدة عربية،إذ يمكن أن تتفق الشعوب، لكن حين يأتى دور الحاكم نقف أمام الخطر الأول. (شرعية السلطة، ص /ص ١٠١ – ١٠٢). يقول:

«إذا اختلف حاكم مع حاكم آخر، أو حكومة أخرى على قضية سياسية ما، سرعان ما ينعكس هذا فوراً على القليل النادر من هذا النوع من الروابط العضوية.

إما أن تغلق الحدود، وإما أن تقفل المكاتب التجارية أو المعارض الصناعية لدى الدولتين المختلفتين.

وإما أن توضع القيود على حركة المواطنين.

وإما أن ...، . (شرعية السلطة، ص/ص ١٠١ - ١٠٢)

وفي مرة أخرى حين يقارن بين الوحدة الأوروبية والوحدة العربية، يسهب طويلاً في عوامل الوحدة التي لها مبرراتها وعناصرها في تاريخنا أكثر منهم، ومع ذلك، فتبني الوحدة الأوروبية تم حثيثاً في حيت تتأخر الوحدة عندنا بشكل مستمر.

فكل مشروعاتنا في مجالات الاقتصاد وتسهيل الاتصال والانتقال وتنسيق الخطط وتكامل المشروعات، تحطمها دائماً على صخرة الخلافات السياسية، وبين نظم الحكم لا نظم الشعوب.. (شرعية، ص ٢١٩)

وما يقال عن الارتفاع بالأولويات في المشروع الأوروبي يتم أيضاً في المشروع الصهيوني على المستوى الإقليمي الإسرائيلي، بينما نحن، رغم كل الأخطار التي تحيق بنا، ما زلنا نغرق في مشكلات النخبة السياسية وتصوراتها عن نفسها، وتطلعاتها المحدودة.

وكما يحدث ذلك على مستوى النظم، يحدث على مستوى القيمة.

* * *

فتردى القيمة الديموقراطية والحرية وعدم وجود القيمة التشريعية يحول بيننا وبين تحقيق الوحدة .

لقد زخرت كتابات أحمد بهاء الدين بافتقاد التنظيمات السياسية التى تحقق الحرية فى الاختيار، وانسحب هذا على الاتحاد الاشتراكى فى مصر بالقدر الذى انسحب على القوى السياسية فى دمشق : الوحدويون الاشتراكيون، البعثيون، القوميون العرب، الجبهة العربية المتحدة .

فرغم أن كل هذه التنظيمات تسعى إلى الوحدة، فإن الحرية السياسية التى تتمتع بها مفقودة، رغم أن المشروع القومى ليس مشروعاً بين حكومات بقدر ما هو اتفاق وتوحيد وجهات النظر بين التنظيمات الديموقراطية .

بيد أن الملاحظ أن رؤية أحمد بهاء الدين لم تتركز طويلاً على البعد الديموقراطى بشكل مباشر، لأن طبيعة الحكم فى الأقطار الثلاثة فى الستينات - مصر وسوريا والعراق - كانت تفتقد كثيراً إلى الديموقراطية، ومن هنا، فإن تركيزه الأول تحدد حول الجهاز التشريعى، وقد فصل وجهة النظر التشريعية على هذا النحو:

« الجهاز التشريعى .. فهناك أكثر من احتمال، ففى حالة الدولة البسيطة يتكون البرلمان القومى من أعضاء يمثلون المناطق تبعاً لعدد سكانها، أما فى الدولة المركبة ذات الأقاليم أو الولايات،، فالمسألة لا تكون عادة بهذه البساطة، لأنه إلى جانب المصلحة المتساوية بحكم الواقع

التاريخى الذى جعله «قطرًا» له بعض الصفات الخاصة به ولو لمرحلة تاريخية معينة، وهذا الاعتبار يقتضى ألا يكون تمثيل الأقاليم المختلفة بالنسبة العددية وحدها، حتى لا يتمتع إقليم بأغلبية ساحقة بسبب نسبته العددية الكبيرة، أو يشعر إقليم بالغبن لأن تعداده السكانى قليل». (أزمة اتفاقية، ص/ص ٣٨ - ٣٩).

ويحاول الوصول إلى توازن فى دولة الوحدة، والمهمة التشريعية تحتاج لجهد، وفى الروابط التى تربط النظم فى الأقطار الثلاثة ليس السياسية والعسكرية فقط، وإنما - أيضاً - الروابط الدستورية.

فالشكل الدستورى يظل أهم أشكال تحقيق وحدة صحيحة، والهيكل الذى لابد أن تنفخ فيه الروح، وهو يقول: «لن ينفخ فيه الروح إلا العامل السياسى الديموقراطى، المتفتح لكل تفاعل، القادر على استيعاب كل تجربة.. وتصحيح كل خطأ» (أزمة، ص ٥٥)

فالقضية الأساسية عنده تظل تفاعل المنظمات السياسية الشعبية وعلى رأسها الشرط التشريعى اللازم للتقنين.

لقد كان حريصاً أشد الحرص على إيجاد البعد التشريعى لدولة الوحدة بعد أن يتم الموافقة على الوثيقة الثلاثية. يريد أن تعلن هذه الوثيقة عن نظام برلمانى..

نظام يقوم على تعدد السلطات وموازنتها لبعضها البعض.

ولأن أحمد بهاء الدين كان رجل قانون بالثقافة والدراسة، فقد كان حرصه على الشكل الدستورى لدولة الوحدة يقوم على أهم الركائز التى تتيح لها البقاء والاستمرار.

* * *

ورغم أن أسعار النفط وصلت إلى أقصى حد لها عقب حرب ١٩٧٣، فإن كتابات بهاء الدين فى الستينات كانت تولى البترول أهمية قصوى فى تأكيد دولة الوحدة واستمرارها، ذلك لأن زيادة مداخيل قطر عن قطر آخر، وما يتبعه من ارتباطات داخلية وخارجية، يمكن أن يعمل على تضخيم النزعة القطرية كما حدث بالفعل فى عديد من أقطار الخليج قبل غزو العراق للكويت ١٩٩٠ أو بعده.

كان ثمة إحساس طاغ بالفارق الاجتماعى بين الأقطار العربية.

ومن هنا فحين صدرت وثيقة الوحدة الثلاثية ٦٣ والسابقة ٥٨، راح يشير إلى أن الفارق بينهما ليس فى السنوات، وإنما فى الدروس والظروف، وراح يشدد بين هذا على الطابع الاجتماعى أو الثورة الاجتماعية التى جعلت الموافقين على الوحدة الثانية يدركون أن الاشتراكية هى الحل، ويستلهم بوجه خاص التجربة المصرية فى الاشتراكية (٥٩).

وهو ما كان يشير – وإن بدا بشكل غير مباشر – إلى أن افتقاد الاشتراكية فى وقت تصل فيه أسعار البترول فى دولة أخرى إلى أقصاها

إنما يمثل أهم معوقات التجربة..

وهو السبب الذى دفعه ليطلق على العنصر الاقتصادى ممثلاً فى البترول عنصر القوة.

وفى الوقت نفسه يسميه ضمن عاصر القوى الناقصة..

إنه يكتب فى السبعينات بعنوان (العناصر الناقصة فى القوة العربى) فيعدد عناصر كثيرة، من بينها البترول، وإذا كانت دولة منظمة «الأوبيك» أو منظمة الدول المصدرة للبترول قادرة على الفعل، فهى تظل مرهونة بطبيعة هذا الفعل فى كل قطر، فعناصر القوة موجودة بما فيها البترول الذى يمثل نعمة ونقمة معاً.

فهو نعمة لاستثماراته الكبيرة، ونقمة لأحداث فارق بين الأقطار العربية.

وفى الوقت نفسه يضع الدول الصغيرة فى موضع الفريسة بالنسبة للدول الكبرى.

وبهذا يكون قد وضع يده على أهم عناصر القوة (الناقصة).

ولأن تجربة بهاء الدين متميزة لوجوده فى أكثر من قطر عربى: بالزيارة أو العمل،ونظرته الثاقب، فإنه استطاع أن يستشرف فى السبعينات أكثر من غير خطورة هذه القوة (البترول).

بل يمكن بعد المراجعة المتأنية لكتاباته فى هذه الحقبة أن نرى إلى أى

مدى استطاع أن يرى خطورة البترول فى المصير الذى ستنتهى إليه القومية العربية فى (عاصفة الصحراء) الأمريكية فيما بعد وحتى نهاية القرن العشرين.

إنه يكتب متنبئاً بكثير مما سيحدث، فيقول تحت عنوان (البترول والعرب والحرب العالمية الثالثة) مقالاً اضافياً مبيناً فيه كيف أصبحت حضارة العالم تعتمد على البترول، واستقى استنباطاته من الرئيس الأمريكى كارتر لخطورة أمريكا على الأقطار العربية، ثم سجل مقولة رجل أعمال أمريكى يبحث عن استثمار وسيولة مالية غير موجودة.

يقول الأمريكى:

(لا حل إلا أن تقوم حرب عالمية ثالثة)

ونحن نضيف ونسأل: ما حدث منذ صيف ١٩٩١ فى تدمير الأقطار العربية مالياً و جغرافياً، ألم يكن هذا فى حرب عالمية ثالثة ؟(جملة اعتراضية) .. ونعود إلى أحمد بهاء الدين.

لقد راح بهاء الدين يحلل طيلة الثمانينات بعد ذلك أثر البترول كقوة (ناقصة) فى مسيرة القوميةا لعربية، تفرق بين الأقطار العربية، وتزيد النزعة القطرية بشكل يحول بيننا وبين الفعل العربى المشترك، وينهى تحليله فى إحدى مقالاته بسؤال يقول إنه لا مفر منه يفرضه على هذا النحو:

«ماذا يراد بنا نحن العرب، وقد تفجرت أرضنا بالبترول -

بنعمته ونقمته - فى هذا العالم الرهيب - يجيب - استنزاف مخزونهم، واستنزاف أموالهم، وإغراقهم فى ألف قضية ومشكلة.. لعشرين سنة على الأقل».

(الأهرام ١/٥/١٩٨٧).

أليس ذلك ما حدث بالفعل وما سوف يحدث فيما بعد

* * *

ويرتبط العامل الاقتصادى الخاص بالبترول عامل آخر يتعلق بتفاوت درجات التنمية الاقتصادية وخطط التطور الاقتصادى فى إطار خط عربى شامل.

فمن الملاحظ أن هذا التناقض بين خطط التنمية حالت منذ فترة مبكرة بين الوحدة للأقطار الثلاثة: مصر وسوريا والعراق.

كما أنها حالت بينها وبين ذلك طيلة السبعينات والثمانينات.

وقد تنبه بهاء الدين لهذا أثناء الوحدة الثلاثية منذ بداية الستينات، فكتب يقول عن الفرق بين الأقطار الثلاثة ما يلى:

«مصر اتجهت منذ سنة ٥٧ على الأقل نحو جهد قومى شامل للتصنيع تحشد له إمكانياتها، وتأخذ لهذا الجهد متطلباته من سياسة نقدية وقيود على الاستيراد وتخطيط وتوجيه. وقد خلقت هذه السياسة واقعاً جديداً فى مصر، يتمثل فى نمو

انتاجها الصناعى واستكفائها الذاتى فى معظم السلع، وقدرتها المتزايدة على التصدير.

أما سوريا فالزراعة فيها فى نمو مطرد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد تهيأت فيها الظروف خلال الوحدة للأخذ بخطة تنمية زراعية وصناعية شاملة، ثم توقفت فى عهد الانفصال..

أما فى العراق فقد أطرد إهمال الانتاج خلال حكم العرش وحكم عبدالكريم قاسم. فالانتاج الزراعى يضمحل بدلاً من أن يزيد، واعتماد البلاد على الاستيراد الذى يسدد بأموال البترول يتفاقم. وصادرات البلاد لا تزيد على سبعة مليون دينار.. بينما وارداتها تبلغ حوالى المائة والعشرين مليون دينار». (أزمة، ص ٣١).

وقد أثبتت خطط التنمية التى طبقت فى الوطن العربى خلال الحقبة التى تقع بين الثلاثينات والستينات أنها انطلقت بمعزل عن بعضها، وهى لا تحمل اتجاهات مواتية لقيام أواصر كافية لتطوير التعامل والتلاحم بين الاقتصادات العربيةبل إن هذه الحركات الإنمائية بالعكس تحمل اتجاهات مضادة منافية للتكامل الاقتصادى الجماعى بين الأقطار العربية من ناحية واتجاهات أخرى تدفع بالاقتصادات القطرية نحو المزيد من الارتباط التبعى بالقوى الاقتصادية الخارجية من ناحية ثانية،

وهو ما أسهب حوله محمد شقير فى كتاب (الوحدة الاقتصادية

العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ص / ص ٢٨٨ - ٢٨٩).

وقد زاد من هذا التناقض التنموى بين الأقطار العربية الأحداث الدامية التى زادت فى الثمانينات إبان أزمة الخليج الأولى، ثم أزمة الخليج الثانية.

كما تفاقم من ذلك اتجاه الأقطار العربية إلى المحاور لاتباع سياسات اقتصادية فى الأساس الأول تستنهض مصالح كل محور، فقام مجلس التعاون الخليجى والعربى والمغاربى.. وما إلى ذلك..

لقد بدا الصراع الاقتصادى هو الذى يصنع الواقع اليومى فى الوطن العربى، فتنبه إليه بهاء الدين، وراح يهاجم هذه المجالس بشكل خاص، ويأسى للواقع العربى فى غيبة مخطط عربى للتنمية يواجه الصراع السياسى والاستعمارى الآتى إلينا - ولنا - من خارج المنطقة العربية.

* * *

ومن يراجع كتابه الأول (النقطة الرابعة) يلاحظ دور الولايات المتحدة من الأقطار العربية.

وبوجه خاص من قضية فلسطين.

وهو دور ينحاز لإسرائيل فى صراع الحرب الباردة والمصالح الغربية..

ومن يراجع كتاباته كلها يلاحظ دور العالم الغربى كله - فضلاً عن أمريكا - من القضية العربية، فإسرائيل أيضاً، ولمصالح استعمارية فى عصر الحرب الباردة ضد الإرادة العربية الموحدة.

وقد تنبه بهاء الدين إلى هذه (الأخطار) في تجربة الوحدة الأولى بين مصر وسوريا، وراح يرددها طيلة النصف الأول من الستينات.

وقد قسم الأخطار التي تحيق بدولة الوحدة العربية إلى ثلاثة، أهمها الأخطار الخارجية:

الاستعمار،

وإسرائيل،

والحرب الدولية الدولية الباردة.

وقد راح يؤكد مما يمكن أن ينسحب على المنطقة العربية حتى الآن أن الاستعمار لا يمكن أن يغمض له جفن،وهو يرى الكتلة العربية المتحررة.. ومصالح الاستعمار البترولية والتجارية والاستراتيجية ليست بالطبع مقصودة لذاتها ولكنها مرتبطة بالتوازن الدولي والحرب الباردة. وهي اعتبارات سوف تستمر زمناً طويلاً. ومصالحه البترولية ليست في مجرد وصول البترول إليه، لأن الدول التي تنتج البترول لا تنتجه لكي تشربه، ولكنها تنتجه لكي تصدره، ولذلك لا خطر من انقطاعه عن دولة مستهلكة، إنما مصالح الاستعمار البترولية هي أيضاً في أنه يحصل على هذا البترول أحياناً بشروط أقرب إلى النهب، وأنه ما زال يرى بالعقلية القديمة أن خير ضمان للبترول هو أن تبقى المناطق المنتجة له متخلفة، ممزقة، راكعة على ركبتيها، تستجدى ثمن البترول بلهفة في آخر كل عام! والاستعمار حتى إذا اقتنع بأن الوحدة العربية أمر حتمي لا ريب فيه.. فهذا لا يجعله يعدل عن القيام بحرب تعطيل لهذه الوحدة على الأقل.

ويضيف إلى الاستعمار إسرائيل والضجة التى تحدثها من آن لآخر ضد الأقطار العربية إما بالسلاح أو بالأقاويل المغرضة..

أما الخطر الثالث (لاحظ أنه يطلق كلمة خطر) هو الحرب الدولية الباردة، ذلك لأن القومية العربية كلما شقت لنفسها طريقاً لتطور فكرها وموقفها بعيداً عن الصراع بين الشرق والغرب لا تلبث أن تواجه ما يعوق محاولاتها.

وإلى جانب ذلك، فمن الملاحظ - سعى الدور الخارجى لإجهاض القومية، أن هذه القوى الخارجية تسعى للتأثير فى النخب الحاكمة سواء بادعاء الحماية أوبتأكيد خطر دولة عربية على أخرى أو الوقيعة بين الأقطار العربية. وهذا كله تعرف عليه الوطن العربى..

وفى نهاية السبعينات ينمو خاطر داخلى عند أحمد بهاء الدين مؤداه أن «العالم كله ضد.. الوحدة العربية» - وهو عنوان افتتاحية لمجلة العربى، تكررت فيما بعد - وهذا الخاطر يعلنه من منطلق أن يوضح لقومه» أن الوحدة العربية أخطر وأهم بكثير جداً ممايظن البعض، فهى ليست كلمات جميلة، ولا هدفاً سهلاً، ولا تتحقق باتفاقات هزيلة، ولا بقبلات بين رؤساء الدول، وإنما هى تحتاج إلى نضال، وصبر، وعمل، ودهاء.

ولكن لماذا؟

يسأل ويسهب فى إجابة طويلة،

يرى فيها أن العالم على مر التاريخ كان يكره الكيانات الكبيرة لأنها تربك التوازن القائم، وتقلل من فعالية القوى القديمة، وأن التقسيم أو الإبقاء

على عوامل الانقسام أحد أهم الأسلحة التى تستخدم لتحقيق هذا الغرض فى كل زمان ومكان.

وفى حين يسهب فى عدد أغسطس من مجلة العربى فى البرهنة على أننا نعيش الحرب الصليبية العاشرة، ويبرهن عليه من علاقاتنا بالآخرين.

فإنه يعود لتأكيد نفس المعنى،ولأكثر من مرة مؤكداً أن أوروبا القوية لم تكن لتريد أن ترى قط إلا عالماً عربياً ضعيفاً. ومع أن الظروف تغيرت، ولكن الرواسب لا تموت، وهو ما ينسحب لدى الغرب كله لا أوروبا فقط، وهو ماتدل عليه الأحداث التى شهدتها السنوات الأخيرة من الثمانينات التى راحت تؤكد على أن الحرب الباردة انتهت بسقوط العملاق الروسى، ولكنها بدأت فى الوقت نفسه باستعادة الخطر الإسلامى لدى الغرب.

وبعيداً عن الاستطراد، يمكن العود إلى حرب الخليج الثانية، ونقرأ خطط الحلفاء وحتى ما تركه جنودهم فى الصحراء، لنتأكد، أن الحرب الصليبية لم تنقض، وأن الخطر الأيديولوجى المتخيل فى الإسلام يعاود الظهور فى عيون الغرب للقضاء على الأمة العربية مرة أخرى.

في ضوء ذلك نستطيع أن نعيد التذكير بقصة صعود الوحدة العربية لنرى، إلى أى مدى يقف العالم كله للنيل منها،

ونستطيع تفسير أحداثاً كثيرة فى حياتنا، كأن نستعيد – على سبيل المثال فقط – كيف أن رأس الحرية الغربية كانت تتجه إلى مصر أولا.

فخلال ربع قرن أو يزيد كانت الحروب كلها تشن ضد مصر.

فهزيمة مصر، هو هزيمة المشروع العربى كله.

جوهر هذه الحروب التى شنت ضد مصر كانت - كما لاحظ منذ بداية السبعينات - أن تنظر مصر إلى الداخل فحسب. أن ينقطع سلك الكهرباء العربية المتصل من المحيط إلى الخليج فى أحد (محولاته) الحساسة. (الأنوار ٣٠ أبريل -نيسان ١٩٧١).

وهو ما يصل بنا إلى استنتاجات أخيرة من واقع (شهادة) المثقف.

(٥)

إن أكثر ما يلفت النظر فى المشروع القومى أننا لا نلتفت بما فيه الكفاية إليه، أو نعمل له بجهد دؤوب، بل نسعى للابتعاد عنه رغم حتميته.

فى حين أن الآخرين - على العكس منا - يهتمون به كثيراً..

ونستطيع أن نستعيد تجارب الوحدة وفشلها منذ تحولت الحروب إلى عربية - عربية منذ الستينات، وحتى أصبحت الحرب عراقية أمريكية فى بداية التسعينات، من فشل الوحدة الثنائية والثلاثية إلى فشل المحاور العربية والحرب بين الحلفاء والعرب والعرب.

فى هذه الفترة الطويلة بين الستينات والتسعينات هددت القومية العربية أخطاراً كثيرة، وراحت محاولات غربية كثيرة تسعى للنيل منها. وظهر الكثير من أمثال أبا ايبان قبل حرب الخليج، أوبرناردلويس بعدها يبرهنون على انتهاء الحركة القومية العربية، وهم فى ذلك، إنما يكملون ما بدأه

العرب ويهتبلون أية فرصة تسعى لتأكيد هذا القول.

بيد أن المدقق فى صورة الأحداث يصل إلى اقتناع، آخر، مؤداه، أننا أكثر من غيرنا حرصاً على القضاء على القومية العربية.

فى حين أن غيرنا أكثر منا فهماً لطبيعة بقاء هذه القومية.

وعلى سبيل المثال، فإن الشارع ابان حرب الخليج الأخيرة كان ينطلق - فى تظاهرته أو احتجاجاته الصامتة - من قضية أن القومية العربية حقيقة لا يمكن القضاء عليها سواء من أعداء عبدالناصر فى الخمسينات، أو أعداء القومية من العرب أنفسهم كصدام حسين فى التسعينات.

وفى الحرب الأخيرة نفسها لاحظ بيتر فيسى، مدير قسم الاستخبارات الدولية فى شبكة CNN الأمريكية أن وجهات النظر التى عرضت بهذا الشبكة من زعماء المنطقة أو غيرهم، كانت تنطلق أساساً من إطار فكرة القومية العربية بدلاً من أن تكون ببساطة فى إطار دينى. (وكالة الإعلام الأمريكية، واشنطون ٢٧ أغسطس ١٩٩١).

وثمة مثال أكثر دلالة من هذا كله وأبعد فهماً لواقع القومية العربية فى عيون أعدائها، ونقصد به، موقف الحكومة الأمريكية نفسها.

فرغم أن مؤرخاً أمريكياً من أصول يهودية يتحدث بعد أزمة الخليج عن انتهاء الحلم الوحدوى وتفكك الكتلة العربية السياسية المتماسكة، فإنه يستدرك أن ذلك يبدو قولاً متسرعاً إذا فهمناه على إطلاقه، وذلك «لأن العديد من الأمور التى أدت إلى ظهورها فى المقام الأول ما زالت موجودة.

مستدركاً أيضاً أنها ما زالت حية فى أوساط بعض جماعات المثقفين، وعديد من شرائح المتعلمين العرب.

وإذا تركنا أستاذ جامعة برنستون الأمريكية، لراعنا أن الإدارة الأمريكية نفسها ما زالت تتعامل مع العرب فى هذا الإطار القومى العربى، رغم أنها كانت من أكثر القوى المعادية لنا.

وعلى ذلك فإن التصور الذى أشار إليه أحمد بهاء الدين أو نقاط القصور فى المشروع القومى هو ما يجب العود إليه ثانية، لمحاولة فهمه فى إطار الأحداث الأخيرة، وحينئذ، سوف يكون علينا إعادة النظر إلى نقاط القصور التى أشار إليها بهاء الدين وإعادة رؤيتها كما يلى:

١ – محاولة إسقاط النخب الحاكمة المعادية للتوحيد.

٢ – النضال من أجل الديموقراطية.

٣ – إعادة النظر إلى البترول والتنمية الاقتصادية.

٤ – إعادة النظر إلى العامل الخارجى فى إطار النظام العالمى (الأمريكى) الجديد.

فإذا حدث ذلك، فلن نعاود طرح السؤال الذى طرحه أحمد بهاء الدين منذ قرابة خمسة عشر عاماً (ماذا يراد بنا نحن العرب؟)

فالإجابة طرحت.

وتأخرنا كثيراً فى فهمها.

ويكون علينا أن نحاول السؤال الآن ونحاول الإجابة عليه من جديد.

ثانياً

قضية فلسطين

اقتراح أحمد بهاء الدين
لإقامة دولة فلسطينية عام ١٩٦٧
كان أسبق مما حدث
فى أوسلو ومدريد فيما بعد،
وأكثر مما حصل عليه الفلسطينيون
حتى الآن.

كانت المقاومة الفلسطينية أغلى قيمة عربية فى زمن ردئ حاولت حكومات عربية فيه المتاجرة بها، وفى الوقت نفسه حاول بعض ممثليها ارتكاب بعض التجاوزات والإساءة إليها..

وزهاء ربع قرن أو ينيف لم يتراجع بهاء الدين عن تأييده للقضية الفلسطينية، بل قدم لها الاقتراحات والحلول القومية، ولم يثنه اعتراض بعض الحكومات على ما يقدم.

فحين قدم اقتراحه المعروف فى نهاية العام ٦٧ بإقامة دولة فلسطينية، أرسل إليه جمال عبدالناصر يستفسر:

- هل هناك شخص أو جبهة أو منظمة أوحت إليه بهذه الفكرة، وحين رد بالنفى. جاءته الإجابة : «قد لا يكون هناك داع لمواصلة الدعوة إلى قيام دولة فلسطينية.. فالموضوع ليس موجوداً أومدروساً ولم يتخذ بشأنه

رأى نهائى. (المصور ١٢/١/ ١٩٨٨)

ومع ذلك، فإن بهاء الدين رفض التوقف عن الاقتراح، وأعلن أنه على مسئوليته الشخصية وإذا أرادت الدولة - خلال بيان - مهاجمته فلتفعل..

ومهما يكن. فإن موقف بهاء الدين من هذه القضية يصعب تناوله فى هذا الحيز، ومن ثم، سوف نسلك إليه طريقين، أحدهما:

خط أفقى، نرى فى مداه أفكاره عن القضية واقتراحاته لها.

ثم نعاود الطريق الآخر، لنلتقى عبر خط رأسى يلتقى فى نقطة بالمتصل الأفقى، نرى فيه كيف يضيف التأييد للقضية الفلسطينية حق النقد فى حالة تهديدها بأى خطر..

الخط الأول : التعرف على موقفه من القضية

والخط الآخر: التطرق إلى موقفه النقدى

أولاً الموقف:

من المؤكد أن أحمد بهاء الدين كان أكثر أبناء جيله اهتماماً بالقضية الفلسطينية، إذ أنفق شبابه واهتماماته وقراءاته فى قضية فلسطين، وتمثل ذلك فى متابعته الدائبة للقضية، ربما منذ أصدر كتابه (النقطة الرابعة) عام ١٩٥١ راصداً الدور الأمريكى.

فأمريكا انقادت وراء مصلحة الرأسملين اليهود فأرغمت العرب، ومنعت

عنهم السلاح ليقفوا عزلاً. وزودت إسرائيل بالأسلحة رغم قرار الحظر لتهجم .. (ص ٥٨).

ولم يتوقف بعد ذلك عن كشف هذا الدور، وإن كانت أهم جهوده بعد ذلك تقدم اقتراح لإقامة الدولة الفلسطينية. ولم تمض عدة أسابيع على هزيمة ١٩٦٧.

كان قد وصل إلى اقتناع مؤداه أن الحل الوحيد البعيد الأمد للصراع العربى الإسرائيلى وللقضية الفلسطينية والممكن تحقيقه هو إقامة دولة فلسطينية، وحدد اقتراحه بأن «نقطة البدء البديهية والضرورية التى لابد أن تدرس، بل وتقرر من الآن هى : أن تعود إلى الوجود دولة اسمها فلسطين!».

ومن المهم أن هذه الدولة عنده كانت تضم «الأردن» بالضفة الغربية للنهر والضفة الشرقية له، وتضم قطاع غزة.. أى تضم كل ما تبقى من فلسطين زائداً ما كان يسمى شرق الأردن واندمج فى السنوات الماضية بفلسطين».

ولأن الشائع فى ذلك الوقت - كان بين الفلسطينيين أيضاً - أن الدولة التى يجب أن تقام هى الدولة الديموقراطية العلمانية من النهر إلى البحر.

فقد أسرع بهاء الدين لإرسال برقيات لعدد كبير من المفكرين الفلسطينيين من التيارات المختلفة طالباً منهم التعليق على هذا الموضوع رغم عدم رضا النظام فى مصر عن ذلك.

وبالفعل استجاب له عدد هائل وأرسلوا تعليقاتهم. (منهم غسان كنفانى،

صبحي ياسين، كلوفيس مقصود، أنيس صايغ، بطرس عودة، إلياس سحاب، مارن البندك.. وغيرهم).

بعض هذه التعليقات يؤيد الاقتراح والبعض الآخريرى أن التوقيت غير سليم على أساس أن الأرض المحتلة وخاصة الضفة الغربية كانت جزءاً من الأردن ومحترف بهذا الجزء، وأن مطالبة الأردن به قد تأتي بنتائج أسرع من البدء في حديث عن دولة مستقلة من الضفة وغزة.

وقد التزم بهاء الدين بنشر كل التعليقات والردود في المصور في الأعداد التالية.

وما لبث أن علق عليها في تحليل دقيق ومسهب في آن واحد.

منتهياً بعد ذلك أن الدعوة يمكن أن تصدر عن مؤتمر القمة العربي.. وتصدر من السلطة المرشحة للحاكم باتفاق مع نفس المصدر اجراءات محددة.

كتحديد لدعوة مجلس تأسيسي من شعب الدولة الجديدة بعد فترة محددة من إزالة آثار عدوان ٥ يونيو.

وقانون يمنح كل فلسطيني حيثما كان حق الحصول فوراً على الجنسية الفلسطينية ولو بعدعشرين سنة.

وسواء عاد الفلسطيني أو بقي رعية فلسطينية ومقيماً في بلد آخر..

وأن تعقد معاهدة دفاعية عسكرية بين الدولة الجديدة والدول العربية كافة، أو الدول المحيطة بها على الأقل.

وبعد أن دعا المفكرين العرب والفلسطينيين لمناقشة القضية لم يلبث أن عاد من جديد ليبلور اقتراحه، ويرفض العلاقة السلبية بين الوحدة العربية وتحرير فلسطين – كما تخوف البعض – وراح يكتب تحت عنوان (الطريق إلى دولة فلسطين) تفسيراً ليطمئن به النفوس ويؤكد أن ما يطرحه هو رأيه الخاص ملمحاً إلى أنه لا ينتمى لنظام عربى ولا يميل إلى أى اتجاه فكرى محدد.

وفى غبار المناقشات الكثيرة يكون عليه أن يجلى بعض الأفكار الهامة ويعيد طرحها من جديد لئلا يعتقد البعض أنها من أساس أفكاره، لقد كرر أكثر من مرة أنه لا يختلف قط مع من يخلط بين موضوع تحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية، فالقضيتان خارج دائرة البحث فى هذا الجدل، إنما الوارد هو البحث عن أفكار محددة وفى مرحلة محددة (١٥٨).

فالحديث عن الأفكار النهائية دون التنبه إلى ظروف النكسة خروج عن الموضوع،

ولذلك، فهو فى استعادة الأفكار التى طرحت لا يرفض مقولات من مثل أن هدف إسرائيل هو ضرب الشعوب العربية وليس فلسطين فحسب، وبالتالى فالقضية هى قضية العرب جميعاً.

كما لا يرفض مقولة أن الوحدة العربية هى الحل.

كذلك لا يرفض أن «الحل هو المقاومة الفلسطينية المسلحة»، هذاكله لا ينكره، ويذكره، لكنه يعترف بأن الهدف المرحلى، الواقعى، هو إزالة آثار العدوان، ولهذا يجب، أولاً، تكريس الجهد لذلك ليجئ بعدها هدف مرحلى

آخر، هو هذا الاقتراح.. يقول:

«هذا الاقتراح بإقامة دولة فلسطينية، اقتراح يزعم لنفسه أنه ليس منفصلاً تماماً عن إزالة آثار العدوان. يمكن أن يكون قراراً معلناً ومكرساً من الآن، ويمكن أن يكون قراراً تالياً مباشرة لإزالة آثار العدوان.. اقتراح يزعم لنفسه أنه يضع العمل الفلسطيني والعربي على طريق جديد - ولكنه بديهي!- من الآن، وأنه يملأ ساعة انجاز مهمة آثار العدوان بعمل إيجابي بدلاً من أن تكون مجرد ساحة لمسح الجراح، والتأمل الذي قد يقودنا إلى التجميد من جديد في أسار الخنادق القديمة العقيمة». (١٦٠).

ويكون على بهاء الدين منذ فترة مبكرة من الوعي أن يدرك أن الاعتماد على الأقطار العربية و(أوضاعها شتى) أمر غير مضمون، كما أن الحديث عن (حكومة عموم فلسطين) تظل دعوة وهمية، وأيضاً، فإن الاعتماد على (منظمة) مسلحة ليس لها أرض يصبح أمراً خالياً من الجدية.

ولابد من الاعتراف أن أحمد بهاء الدين قد تنبه في هذا الوقت المبكر إلى سياسة إسرائيل التي سوف تسعى - فيما بعد - إلى القضاء على أية علامة (للأرض) أو آثار (للهوية).

أيضاً، فقد استطاع أن يستعيد في اقتراحاته ومناقشاته في ذلك الوقت عشرات من الردود التي جاءته تعلن رفضها أو تحفظها.

في حين أن مراجعة عشرات الصفحات التي أنفق فيها بهاء أفكاره في

ذلك الوقت تؤكد أنها كانت سابقة لأوانها..

وهذا السبق لا يعود إلى رومانسية فيها، وإنما إلى واقعية لم يستطع معاصروه الهبوط إليها وتفهم قدر الوعي والصرامة الصائبة فيها.

وقد كان لابد أن يمضي وقت طويل قبل أن تعود منظمة التحرير الفلسطينية لتطالب به - بعد قرابة ثماني سنوات - ويصدر إعلان المجلس الفلسطيني بالجزائر مطالباً كذلك به - بعد عشرين عاماً .

واستكمالاً لذلك، لابد أن نسير عدة سنوات أخرى لنصل - عقب حرب الخليج - إلى واشنطن، فمدريد وأوسلو.. إلخ، لنلاحظ منظمة التحرير الفلسطينية تسعى للهدف القديم وتحقق حكم ذاتي جديد..

وهنا، نتمهل عند ملاحظتين هامتين، نستعيدهما من كتابات أحمد بهاء الدين واقتراحاته عن إقامة فلسطين ونحن نقترب من مفاوضات واشنطن التي جرت في عام ١٩٩٢ : (أين نحن الآن من اقتراح بهاء الدين) ؟

وكي نتفهم ذلك جيداً لابد أن ننقل آخر فقرة جاءت في اقتراح أحمد بهاء الدين.. وهذه الفقرة تقول:

«يجب أن تقوم دولة فلسطين، تضم ما احتل بعد ٥ يونيو بالإضافة إلى «شرق» الأردن، وتكون هي نقطة التجمع، والقاعدة والتعبير المباشر عن الإرادة.

يجب أن يستتبع ذلك إعادة شعب فلسطين، تدريجياً، والاختيار في ظروف معقولة، إلى أرض فلسطين، أي

يجب أن يكون الفلسطينيون لفلسطين، حتى تكون فلسطين للفلسطينيين.

يجب أن يتوقف تبعثر الطاقات الفلسطينية بحكم الضياع وعدم الهوية والمخيمات وأن يتحول الموج إلى إقامة وبقاء وتعليم وتدريب وتسليح.

يجب ألا تستمر الصورة السابقة: إسرائيل تحول مهاجريها إلى مواطنين ملتصقين بالأرض، ونحن نحول أصحاب الأرض إلى مهاجرين.

هذا هو أول الطريق الحقيقي». (١٨١).

وهنا نعود إلى الملاحظة/ السؤال:

أين نحن الآن من اقتراح بها الدين؟

إن مراجعة المقترحات التي تقدم بها الوفد الفلسطيني في المفاوضات التي جرت بواشنطن بعنوان (إطار اتفاق على الحكم الذاتي الفلسطيني)، والتي دعا إليها هذا الوفد في الأرض المحتلة في الضفة الغربية وغزة.. هذه المقترحات تردد كل أفكار أحمد بهاء الدين، وإن جاءت، في طموحها، أقل بكثير مما دعا إليه أو ارتد عنه نيتانياهو فيما بعد.

نحن لا نريد أن نستعيد كل هذه الأفكار، فمجالها ليس هنا، فضلاً عن أنها تحتاج إلى حيز كبير يخرج بنا من صميم العنوان، بيد أننا يمكن أن نشير إلى بعض عنوانات جاءت فيها تعبر عن المضمون، نقرأ:

- تطبيق القانون ٢٤٢ فى انتظار المفاوضات

- تنبثق الحكومة الذاتية الفلسطينية من انتخابات ومشاركة السكان (العرب) فى الأرض المحتلة بما فى ذلك النازحون والمبعدون..

- تشمل صلاحية الحكومة الجديدة الأراضى التى احتلت عام ١٩٦٧.

- الوقف الكامل لكل النشاطات الاستيطانية اليهودية وخضوع المستوطنين خلال الفترة الذاتية الانتقالية للأنظمة الفلسطينية.

- ضرورة عودة الفلسطينيين النازحين.

- الإشراف الدولى.

هذه عنوانات لبعض الأفكار الفلسطينية التى طرحت تحت أعين واشنطن، وقدمت فى الجولة تحت عدة تعديلات - كما قالت حنان عشراوى - ومع الأخذ فى الاعتبار بعض نواحى الاهتمام والمقترحات الإسرائيلية «وكالات الأنباء ٤،٣ سبتمبر ١٩٩٢) وتنتظر دورها فى جدول أعمال يعوزه الصبر والتفاوض المضنى، والتسويف الإسرائيلى..

هذه بعض الأفكار التى قدمت، والتى سبق وأن أشار إليها أحمد بهاء الدين فى أواخر الستينات بما يضفى إليها تطويراً ذاتياً وقومياً عالياً.

أضف إلى هذا أن بهاء الدين كان قد دعا فى اقتراحه - فى الجزء

الأخير منه – ما يفيد بضرورة أن يقوم اتحاد ما قد يأخذ شكلاً فيدرالياً بين الدولة الفلسطينية المقترحة والمملكة الأردنية الهاشمية للترابط الشديد بين الشعبين، خاصة، أنه من المعروف أن أكثر من نصف الشعب الأردنى من أصول فلسطينية.

وحين وجد أحمد بهاء الدين رفضاً لاقتراحه على المستوى المصرى والعربى، وراحت إسرائيل تختلق مناورات لإسقاطه، فرغ جهده إلى منظمة التحرير الفلسطينية، لم يجد غير القوى المسلحة لتحرير فلسطين على المدى البعيد.

بيد أنه لا الواقع العربى ولا منظمة التحرير كانا قادرين على شفاء ما ألم به من ألم وانتظار، فقد كان الواقع العربى يدخل فى متاهات مؤتمرات القمة، والخلافات العربية العربية، والمعارك الوهمية، فى حين أن المقاومة كانت فى النفق العربى المظلم تشغل كثيراً بالتخطيط المتخبط لعملياتها الحربية خارج إسرائيل، والشقاق بين أبناء المنظمة الواحدة وعالم البترودولار الجديد.

الأكثر من هذا إيلاماً أن قيادات العمل الفلسطينى كانت تضيق – شأنها شأن الحكومات العربية بالنقد البناء...

ومراجعة كتابات أحمد بهاء الدين فى السنوات الأخيرة قبل سقوطه مريضاً، متأثراً، بما يجرى فى الواقع العربى.. كان قد وصل إلى حالة من الإحباط الشديد جعلته يصيح: «ليس أمام الكاتب العربى إزاء الأحداث الفاجعة التى تدور فى العالم العربى، إلا أن يتنحى عن مسئوليته». (أهرام ١٩٧٨/٤/٣).

ثم راح يصيح إزاء تفرق العرب وتشرذهم:

«بأى وجه نلقى العالم.

وبأى وجه نواجه التآمر علينا.

وهذا الذى يحدث مستمر ومتفاقم»

ومع ذلك، لم يفقد أمله قط فى العمل الفدائى الفلسطينى، ومن هنا، ورغم عدم رضا بعض القيادات الفلسطينية، بدأ يوجه النقد لبعض المنظمات التى تسئ إلى العمل الفلسطينى أكثر مما تفيده...

وهو ما سنتمهل عنده أكثر..(*).

(*) تتضمن المقترحات الجديدة التى قدمها الوفد الفلسطينى إلى الإسرائيليين تحت عنوان (إطار اتفاق على الحكم الذاتى الفلسطينى خلال المرحلة الانتقالية) فى الأراض المحتلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة النقاط الآتية:

- تشكل المرحلة الانتقالية خطوة أولية لتطبيق القرار الدولى الرقم ٢٤٢ فى انتظار المفاوضات التى ستتيح للشعب الفلسطينى ممارسة حقه فى تقرير المصير.

- الانتخابات: تنبثق الحكومة الذاتية الفلسطينية من انتخابات ديموقاطية حرة ومباشرة وبإشراف دولى وبمشاركة السكان (العرب) فى الأراضى المحتلة بما فى ذلك النازحون والمبعدون الذين يجب إعادتهم إلى وطنهم والمعتقلون الذين يجب الإفراج علهم.

- يجب أن تشمل صلاحيات الحكومة الذاتية كل الأراضى التى احتلت فى العام ١٩٦٧ وتشمل أيضاً السيطرة المطلقة على الأرض والمياه والثروات الطبيعية والاقتصاد =

ثانياً: النقد

كان أول من تنبه إلى خطورة التشاحن بين الفلسطينيين، أو استخدام العمل الفدائى ذريعة لتصفية الحسابات أو ضرب التنظيمات الفلسطينية كما رأينا فى الحقبة الأخيرة.

وكانت التنظيمات الفلسطينية قد تشطت فى العمل مرة أخرى عقب هزيمة ١٩٦٧، ولم يمضى شهر على هزيمة ١٩٦٧،

وقد انعكس هذا النشاط فى القيام بالعمليات المسلحة داخل الأراضى المحتلة والتصدى لحركة العدو الصهيونى داخل هذه الأرض.

فى ذلك الوقت برزت ظاهرة التصدى للعدو الصهيونى خارج الأرض

= ونقاط العبور فى الأراضى المحتلة.

– يجب حل الإدارة العسكرية الإسرائيلية وإعادة انتشار الجيش الإسرائيلى فى مناطق يتم الاتفاق عليها.

القدس: يجب أن تطبق إجراءات المرحلة الانتقالية على المدينة المقدسة التى تشكل جزءاً لا يتجزأ من الأراضى الفلسطينية المحتلة طبقاً للقرار ٢٤٢.

– ضرورة الوقف الفورى والشامل لكل النشاطات الاسيطانية وخضوع المستوطنين خلال الفترة الانتقالية للقوانين والأنظمة الفلسطينية.

– يجب مراعاة المصالح الأمنية للطرفين الفلسطينى والإسرائيلى على أن تقع مسئولية الأمن الداخلى ضمن اختصاص السلطات الفلسطينية وحدها من دون أى تدخل من الجانب الإسرائيلى.

– ضرورة عودة الفلسطينيين النازحين والمبعدين وأبنائهم إلى الأراضى كى =

المحتلة، فى أى مكان فى الكرة الأرضية يكون للإسرائيليين نشاط فيه.

ومن هنا، تصاعدت فى السنوات الأخيرة لهزيمة ٦٧ عمليات من قبيل حوادث خطف الطائرات وإلقاء القنابل فى المطارات وانفجار الطائرات فى الجو أوعلى الأرض، وحريق المعابد اليهودية .. وما إلى ذلك.

ومع أن هذه العمليات وجدت تشجيعاً لها من بعض المناصرين للحق العربى، فإنها راحت تثير كثيراً من الإدانات التى يمكن أن تسئ إلى العمل الفدائى نفسه أكثر مما تفيده.

كانت هذه الإدانات يضخم منها الإسرائيليون أنفسهم أو بعض المؤسسات التى تجد أن الاعتداء على بعض الأفراد أو الأطفال من غير اليهود مما ينال من العامل الإنسانى بشكل عام..

= يمارسوا حقهم فى الترشيح والانتخاب.

– الإشراف الدولى :

ضرورة تشكيل لجنة دولية مؤلفة من ممثلين عن الأعضاء الخمسة الدائمين فى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة (الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والصين وروسيا) وعن الأمين العام للأمم المتحدة وعن الحكم الذاتى الفلسطينى والأردن وسوريا ومصر وإسرائيل للإشراف على المرحلة الانتقالية للحكم الذاتى وضمان تنفيذه.

– الجدول الزمنى للتطبيق:

يتعهد الطرفان التوصل إلى اتفاق على المرحلة الانتقالية فى فترة لا تزيد عن ثلاثة أشهر وأن تبدأ مفاوضات الوضع النهائى فى موعد لا يتجاوز ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤. وذلك لضمان التقيد بالإطار الزمنى الذى حددته رسائل الدعوة إلى مؤتمر مدريد. ومضت سنوات وما زالت حكومات إسرائيل تماطل..

وفى الوقت الذى راحت فيه هذه العمليات تتزايد،ويتزايد معها بعض ردود الأفعال المضادة، كان أحمد بهاء الدين من بين أكثر المعارضين لها، على اعتبار أن سلبياتها أكثر من إيجابياتها..

وقبل أن نعرض لرد فعل أحمد بهاء الدين وموقف بعض جماعات الفدائيين الفلسطينيين منه، لابد أن نشير إلى ملابسات هذه الفترة.

(٢)

كانت الأعمال الفدائية، منذ عادت إلى فرض أسلوب المواجهة المسلحة عقب هزيمة ٦٧ (فى ١٩٦٧/٧/٢٨) تشهد أن أكثر صور التمثيل لها خارج الأرض المحتلة تمارسه جبهة النضال الشعبى.

فمن هى هذه الجبهة أو هذا التنظيم؟

تنتمى (جبهة النضال الشعبى الفلسطينى) فى نشأتها إلى اللجنة المركزية،

وتعود هذه النشأة إلى فلسطين المحتلة بشكل عام،

ثم امتدت إلى الضفة الشرقية فى الأردن، فعديد من الأقطار العربية والعالمية.

بدأت داخل الأرض المحتلة وانتشرت فى العالم كله.

وقد تحدد خطها الرئيسى فى الثورة المسلحة، وقد حددت نشرة تصدر عن الجهة فى ١٦/ ١٧ نوفمبر ١٩٦٩ هذا الخط بالعنف.

بعد أن أصبح التناقض الحاد المصيرى القائم لا يمكن حسمه إلا من فوهات البنادق.

ورغم أننا نجد فى أوراق الجبهة وأخبار مجلس قيادتها العسكرية عديداً من الأفكار التى تتحدث عن الديموقراطية والوحدة الوطنية وعلاقة النضال الفلسطينى بالنضال العربى، فإنه من الواضح أن وقوع الضفة الغربية وقطاع غزة بعد حرب ٦٧ تحت الاحتلال كان له من الأثر بحيث استبدل عناصر هذه الجبهة دعواتها السياسية والحركة المسلحة، وعملياتها داخل الأراضى العربية المحتلة بعمليات أقسى وأعنف فى العالم أجمع ضد المصالح الإسرائيلية.

ويمكن أن نلحظ هذا فى هذه المواقف العملية.

وهو ما ترجم عنه مشروع الميثاق التى أصدرته الجبهة فى ذلك الوقت، وبه فقرة تلخص هذا الموقف، فتقول:

«من حق الثورة الفلسطينية ومن واجبها أن توجه ضرباتها للصهيونية العالمية أينما وجدت سواء فى فلسطين أو فى أية أرض عربية، من أجل توسيع .... الكفاح وتشتيت قوى العدو».

وهذا يعنى – كما تردد فى أدبياتها – ضرورة السعى لضرب المصالح (الإمبريالية والصهيونية) فى أى مكان فى العالم، وبدون تردد بهدف عسكرى هو المواجهة العسكرية.

وقد عبرت الجبهة عن فلسفتها فى عديدمن هذه العمليات التى لقيت استياءاً كبيراً فى العواصم الكبرى.

كان يصاب فيها شيخ أو طفل أو امرأة يتواجد أى منهم فى منطقة الهجوم..

وقد كانت اكثر هذه العمليات شهره فى ذلك الوقت (عملية أثينا) لنسف مقر شركة الطيران الاسرائيلية هناك مما أدى الى إصابة أربعة عشر شخصاً بجراح وإصابة عدد هائل، كان فى مقدمتهم قتل طفل يونانى وفقد طفل يوناني آخر لبصره مدى الحياة، وكان ذلك حلقة من سلسلة طويلة أصيب فيها عدد كبير من الركاب الاسرائيليين بالمطارات وعشرات الأطفال أو الرجال العزل أو الضعفاء من غير الإسرائيليين.

وكان من المنطقي أن تستغل الجهات الصهيونية أو الجهات المتعاطفة معها هذه الحالات الإنسانية غير المقصودة لتشن حملات ضد العمل الفدائى بقصد تشويهه والنيل منه...

وشغلت الصحف والإذاعات الغربية بمثل هذه الاحداث، الذى كان التركيز فيها على الجانب الانساني الراهن، دون ربط ذلك بالمرجعية التى يمكن أن نرصد بواعثها الأولى فى فلسطين المحتله، حين كانت المذابح الاسرائيلية تدار فى محرقة الارهابيين الاسرائيليين، وحين كانت الوحشية الاسرائيلية -ومازالت- تقترف ضد المدنيين الفلسطينيين داخل الارض الفلسطينية أو العربية التى احتلت بعد ١٩٦٧. (انظر الملحق)

وهنا كان بهاء الدين أول من تنبه إلى خطورة العمل الفدائى بهذا الشكل على القضية الفلسطينية بوجه عام، فلم يتردد فى أن يكتب مشيراً إلى خطورة رد الفعل غير المحسوب..

لم يكن يختلف مع الجبهة على الغاية، إنما كان الاختلاف الرئيسى حول الأسلوب فقط.

وهو اختلاف يبرره انتماؤه الوجدانى إلى العمل الفدائى وإيثاره له فى هذه الفترة...

وتوالت ردود فعل الكاتب المصرى.

(٣)

كان أحمد بهاء الدين فى مقدمة الكتاب الصحفيين المصريين القلائل الذين غادروا مكاتبهم إلى الأرض العربية التى يحارب فيها الفدائيون الفلسطينيون مغادراً مكان (الكاتب الجالس القرفصاء)، وهو الاسم الذى أطلقه هو «على نفسى وعلى غيرى من الكتاب الصحفيين حين يطول بهم المكوث فى المكاتب».

والفترة التى تلى شهر الهزيمة - يونيو ٦٧ - كتب كثيراً عن (وقفة بين الفدائيين) إذ ذهب لأكثر من مرة إلى عمان ليلتقى بهؤلاء الفلسطينيين الذين يضحون بحياتهم من أجل وطنهم.

والواقع أن الفدائيين الفلسطينيين عند بهاء الدين فى ذلك الوقت كانوا يحتلون فى قلبه مكانة عزيزة، وقد كان يراهم، كما عبر عنهم، على هذا النحو:

«البارقة الجديدة فى الحياة الفلسطينية، المقاومة

الفلسطينية، هى أولى الظواهر بهذه النظرة الجديدة الخالية من رواسب الماضى..

إن الفدائيين الفلسطينيين يجب أن نضعهم دائماً فى حبات العيون». (الأهرام ١/١٢/١٩٦٩).

وعلى هذا النحو، فإن موقف بهاء الدين من العمل الفدائى كان يستحوذ لديه على أهمية خاصة، ينبغى معها، ألا نتهاون فى تشويهه بأية شائبة من داخله أو خارجه،

ومن هنا، ففى هذه الفترة راح يكتب عن العديد من الظواهر السلبية التى تشوب العمل الفدائى، وكان أكثر الظواهر سلبية حينئذ توالد المنظمات الفدائية وتكاثرها وتعدد أجنحتها وتياراتها وانشقاقاتها..

وكما كان ذلك يتعارض مع وعيه، كذلك، كان يتعارض مع العقلانية فى العمل النضالى كما يفهمها مفكر مثل بهاء الدين، وهو ما يفسر قوله بحزم شديد «فى مرحلة النضج يكون حتى للحب وللكره معنى آخر، إذ يكون كل منهما عاطفياً وعقلياً معاً بلا غشاوة، وبلا مراهقة». (كتابه: ثلاث سنوات، يونيو ٦٧ – يونيو ١٩٧٠، دار الطيعة، بيروت، ١٩٧٠ ص ١٢٤).

لقد تعددت عنوانات مقالاته فى تلك الفترة بما يوحى بالأزمة التى تقدم عليها المنظمات الفدائية، إذ نقرأ عنوانات مثل «كل يوم.. منظمة فدائية جديدة ؟!) و(تحولات خطيرة).. إلى غير ذلك.

خلال ذلك كله راح يرفض هذه النزعة، ويسأل:

«هل هو مرضنا القديم وحب النزعة الشللية ؟ هل هو عودة

إلى متاهات التبعثرعلى ساحات غير فلسطينية ومضاربات لا صلة لها بجوهر الصراع المباشر مع العدو. (ص١٢٧) .

وقد أدى هذا التولد والتعدد للمنظمات الفلسطينية إلى أخطر الظواهر على العمل الفلسطينى فى ذلك الوقت.

وهو ما تمثل فى حادثة آثينا بوجه خاص.

قنبلة أثينا

لقد حدث أن قامت إحدى المنظمات الفدائية بعملية فى إحدى المناطق الاستراتيجية فى العاصمة اليونانية أثينا، ورغم أن العملية كانت موجهة إلى اليهود، فإن الخسائر التى حاقت ببعض الأبرياء، من غير اليهود، كانت كفيلة للنيل من العمل الفدائى.

ومن هنا، راح بهاء الدين يرفض أن تكون المقاومة الفلسطينية عملاً مقدساً لا يجب التعرض له أو مناقشته بصراحة شديدة. فمبدأ التصدى للوجود الإسرائيلى ومظاهره أينما كان، مبدأ سليم، بغيرشك، ولكن لا يوجد مبدأ يؤخذ على إطلاقه، فالعبرة تكون فى (جدوى) كل عمل بالنسبة للقضية الفلسطينية الأساسية..

إذا كان الهدف هو إصابة العدو الإسرائيلى ومحاربته فالأهداف التى يمكن أن تضرب كثيرة ،ومهما كان الأمر، فالقضية سوف تحسم فى النهاية على الأرض المحتلة ذاتها.

أما إذا كان الهدف هو تحقيق أكبر قدر من لفت أنظار العالم الخارجى

إلى القضية وأن يقرع الصوت الفلسطيني كل أذن.. فهنا أيضاً تصبح عملية الاختيار أصعب وأدق. فهناك خيط دقيق يفصل بين الحدث الذي يثير في العالم الخارجي نوعاً من رد الفعل الذي يفيدنا، وبين الحدث الذي يؤدي إلى رد فعل مضاد. (ص ١٣٤)

لقد اختارت قنبلة أثينا توقيتاً سيئاً، هو يوم محاكمة عدد آخر من الفلسطينيين كان قد قبض عليهم قبلاً في زيورخ، واختارت لها رجالاً يونانيين وأطفالاً يونانيين، خاصة أن اليونان - في ذلك الوقت - كانت من البلاد التي لم تكن قد اعترفت بإسرائيل بعد، ولذلك، كان من السهل أن يستفاد من مثل هذه الأحداث كي تدفع إسرائيل أجهزتها إلى افتعال لأحداث تلطخ بها المقاومة.

وبهاء الدين هنا - كما نرى - لا يعترض على الغاية، إنما هو الأسلوب.

فمن حق المقاومة أن تجعل إسرائيل تدفع الثمن، ثمن تشريد الفلسطينيين واغتيالهم، بل يجعل العالم كله (يدفع الثمن)، وهو ما يعود إلى مسئولية المجتمع الدولي فيما حدث للشعب الفلسطيني.

وإذا كانت المقاومة تخرج عن القانون (الطبيعي) فلأن العالم كله قد خرج على القانون الطبيعي.

ومع ذلك، فإن المقاومة هنا لا يجب أن تبحث عن (الحق) فقط، ولكن يجب أن تنصب الحركة على (الجدوى).

يمكن البحث عن الحق - كما يكرر - داخل المؤسسات الإسرائيلية داخل إسرائيل أو خارجها، غير أن المهم هنا ألا يقتصر الأمر على التخطيط

العسكرى فقط، وإنما على التخطيط السياسى، أى الآثار التى تنعكس على رد فعل أية عملية فدائية ضد المصالح الإسرائيلية فى أى مكان.

وكما بدا بهاء الدين بأنه يكتب من أجل حب ظاهرة المقاومة، راح يختم مقالته العنيفة بأن «دم الفدائيين عزيز، ومال الفدائيين عزيز، وجهد الفدائيين عزيز. ولا يجوز أن ننفق هذا الشئ الثمين الجديد إلا حيث يكون له عائد حقيقى.. وهو ما يصفل منه إلى أن ما يكتبه هنا إنما هو اختياره فى حب الفدائيين.

إنه اختار النقد الإيجابى لا الصياح والحماس، منتهياً من ذلك كله إلى أن الاجتهاد فى الرأى هو التعبيرعن طريقته فى الحب.

مطلوب اجتماع

وعلى وجه السرعة راح بهاء الدين يبلور هذا الحب أكثر من تحويل الاجتهاد فى الرأى إلى موقف عملى، وفى المقالة التالية مباشرة، راح يكتب (مطلوب اجتماع مغلق لمناقشة القضية واتخاذ قرار حاسم فيها) وراح يطرح فى ذلك قضية العمل الفدائى، ولكن على مائدة البحث والفكر والفعل.

لقد راح يعرض فى كلمات بسطية، اجتهاده، ولم يلبث أن تمهل عند القضية الأساسية ملخصاً إياها فى هذه السطور:

«القضية، هى: جدوى العمل الفدائى فى الخارج بالنسبة للقضية الأساسية، والمعركة الأساسية، فى الأرض

العربية». (ص ١٣٩) .

وقد راح يُفصِّل تخوفه أكثر فى أمرين خطيرين:

«الأمر الأول، هو أن السهولة النسبية لبعض هذه العمليات سوف يكون إغراء مستمرًا للمنظمات الصغيرة فى أن تقدم عليها، بحثًا عن الحجم السياسى والدعائى لنفسها وليس بحثًا عن الجدوى الحقيقية للعمل وتأثيره على إسرائيل، ويزداد الارتجال مع الزمن، وتتسرب روح المغامرة إلى حيث يجب أن تزداد روح الالتزام.

هذا ما نلاحظه مع الأسف

الأمر الآخر الذى حذرت منه، وأعتقد أنه أعظم خطورة.. هو أن ذلك الوضع سوف يترك مجالاً للأعداء أنفسهم لكى يقدموا على عمليات إجرامية بقصد إلصاقها بالفدائيين.. وفى هذا المجال سوف يختارون أقبح الأعمال، أو الأعمال ذات المغزى الخاص بإسرائيل.

وليس هذا خيالاً أو اختراعاً، فهذا أسلوب عمدت إليه دول وحكومات وحركات سياسية فى ظروف كثيرة.» (١٤٠).

وبعد أن يسهب بهاء الدين فى هدوء شديد حول الخطورة التى تواجهها المنظمات الفدائية وهنا فى الأرض المحتلة، يقول بصراحة شديدة افتقدها العمل الفدائى حينئذ:

«إن موضوع العمل الفلسطينى فى الخارج لا يجوز أن يترك

للمبادرات الفردية وشبه الفردية ولعدم التنسيق».

وقد انتهى من ذلك كله إلى ضرورة أن تتولى المنظمات الأساسية عناية خاصة بالأمر، فتعقد اجتماعاً مغلقاً تناقش فيه هذه القضية.

منتهياً من هذا كله إلى حقيقة هامة جداً هي أن العنف الثورى ليس تعبيراً مجرداً، إنه ليس العنف الغاضب، إنه العنف الذى يخدم الثورة وأهدافها. (ص ١٤٢).

وبالفعل حدث ما توقع، فلم يلبث - على مستوى المنظمات - أن أعلنت جهة النضال الشعبى مسئوليتها عن الحادث، وأرسلت له رداً اضافياً تحاول فيه تفسير دوافعها له (انظر الملحق)، فيبادر أحمد بهاء إلى نشره كاملاً، ثم دخل مع أصحابه حواراً قصد به تصحيح ما فهم منه خطأ، لئلا يعتقد أصحاب هذاالخطاب الموقف السلبى من العمل الفدائى، محدداً الشرط الذى كان قد اشترط دائماً للقيام بمثل هذه الأعمال خارج الأرض المحتلة: «إننى وضعت شرطاً صريحاً هو الفائدة التى تعود على القضية».

لقد راح يسهب مرة أخرى عن سلبية هذه الأعمال التى يمكن أن تلقى فى طاحونة الأعداء، معتمداً على الرأى العام، فثمة شخصيات وهيئات ومنظمات كثيرة ترى سلبية ذلك..

ومن آن لآخر، فإن بهاء الدين لا يتردد أن يذكر لمحاوريه من أبناء هذه المنظمات أن خلافه معهم لا يتعدى خلافاً فى التقدير، وأن الأحداث حولنا هى التى تثبت صحة تقديره.

وحين يعرض لغضب المنظمة من أنه لا يذكر اسمها عمداً مما يضفى استهتاراً بها أو تقليلاً منها ويرد بأن ذلك كان بقصد المجاملة، فعدم ذكر

الاسم يقصد به ذلك أحياناً، وهو لا يعكس اعتراضاً على نشاط المنظمة.

واللافت للنظر أن بهاء الدين في ردوده هذه أو كتاباته التالية لا يتعب من ترديد فكرته الأساسية عن (جدوى) مثل هذه العمليات.

فالبحث لا يتوقف عند (الحق) ولكن يجب أن ينصب أيضاً على الجدوى..

والحق يظل بعيداً عن متناول اليد حتى نتوصل إليه بالوسائل الصحيحة

* * *

لقد كان هذا الموقف من كاتب مصرى يعكس اهتماماً كبيراً بالدور الذى يمكن أن تقوم به المنظمات الفدائية فى حالة التنسيق فيما بينها، وفى حالة البحث عن (الجدوى) لا (الفعل) الغاضب فقط، وهو ما وجدنا له مواقف كثيرة لعديد من المنظمات التى خرجت عن فتح، وخلافات تدمى القلوب كان آخرها ما نشهده هذه الفترة من خلافات عميقة تنتهى بمواجهات مسلحة بين عناصر من حركة (فتح) وأخرى من حركة (حماس)..

ثم ما يتردد من الأعمال العنيفة لعناصر تنتمى - كما يعلن - إلى مجموعة عز الدين القاسم ومجموعة أخرى لا تنتمى إليها..

وكأن ما يحدث لنا منذ أكثر من نصف قرن لا يعرفه أحد ولم يتعلم منه أحد.

ثالثاً

الاستعمار الأمريكى

«أى شئ يمتلكونه فى هذا الشرق المسكين ؟
البترول بترولهم، وخطوط المواصلات خطوطهم..
والمشروعات الصناعية
والزراعية المزمعة.. مشروعاتهم،
فليس لنا فى بلادنا شئ»

مثل أحمد بهاء الدين – مع غيره – تياراً مناهضاً للاستعمار الأمريكى الجديد فى الفترة التى تقع بين الحرب العالمية الثانية وحرب الخليج الثانية – ١٩٩٠.

ففى هذه الحقبة التى تصل إلى نصف قرن تحدد تيار فكرى فى مصر تعود قيمته الأولى إلى كشفه حركة الاستعمار الأمريكى الذى كانى سعى إلى إرث الاستعمار الغربى القديم.

وهذا التيار يربط بين خطر هذا الاستعمار الغربى القديم. و(كل) الكوارث التى تحيق بنا: ضرب حركات التحرر الوطنى، مأساة فلسطين، تأييد إسرائيل، إجهاض الوحدة العربية، ضرب العلاقات السوفيتية العربية، استنزاف موارد البلاد، استنزاف الرجعية للقوى الوطنية فى حرب اليمن، هزيمة ١٩٦٧، الهجوم على عبدالناصر حياً أو ميتاً، ضرب القطاع العام..

إلى آخر هذه الكوارث التى تسعى لتحطيم الإرادرة العربية والنيل منها..

كان هدف المثقف الواعى هو التصدى لصور الاستعمار الجديد.

وكان على هذا ا لاستعمار أن يغير أساليبه ويحدد أهدافه..

فى هذا المناخ يمكن أن نرصد لموقف أحمد بهاء الدين أحد أولئك المثقفين التقدميين، بدءاً من محاولات الغرب الأمريكى السيطرة على مقدرات الشعب العربى فى مصر، وتحديداً، من هذه الفترة التى سعى فيها هذا الاستعمار ليلقى بشباكه الاقتصادية فيما يسمى (النقطة الرابعة) على مصر.

وهى الفترة التى راح يشغل فيها أحمد بهاء الدين بمواجهة هذه القوى، ويعمل فى كتاب يخرجه بعد فترة وجيزة من قبول الحكومة المصرية للبرنامج الأمريكى.

وسوف تظل محاولاته النقدية الأولى فى بداية الخمسينات، هى النواة الأولى لموقفه العام من الاستعمار الأمريكى، وهى النواة التى ستشهد تطوراً ونضجاً شديداً مع تطور الأحداث..

وحين نعرض لموقف أحمد بهاء قبل نصف قرن سوف نلحظ أهمية هذا الموقف الذى كتب فيه كتابه (الاستعمار الأمريكى الجديد أو برنامج النقطة الرابعة)، وقد سعى بهاء إلى الانتهاء من الكتاب ولم يمض على الاعتراف «بالنقطة الرابعة» عدة أشهر، وأسرع بنشره على حسابه الخاص، وحمله بنفسه إلى المثقفين والكتاب فى عصره.

بيد أننا قبل التوقف عند هذا الكتاب، لابد من الإشارة إلى الموقف الأمريكي، لنرى، إلى أي حد دفعه الموقف الأمريكي إلى استجابة واعية، تعكس وعي كاتب مثل أحمد بهاء الدين.

(٢)

يمكن تحديد الموقف الأمريكي منذ بدأ اهتمامه بالمنطقة العربية، وهو ما تحدد بشكل عملي مع نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، وخاصة أن الدور الأمريكي الجديد كان يمر بتحول عميق إذا استندت القيادة السياسية الأمريكية على مدى معظم الأربعين سنة الأخيرة إلى قاعدة قوية من التفوق الاقتصادي والعسكري، ونشأ معظم الدافع إلى ممارسة هذا التفوق عن قلق بأن الاتحاد السوفيتي يسعى إلى خلع الولايات المتحدة عن مكانها والحلول محلها (Foreign Affairs, Spring 88, Vol 66 no 4.).

وخاصة أن الاتحاد السوفييتي لجأ لأساليب عديدة لإثبات وجوده مثل اتفاق مقايضة ١٩٤٦ القطن بالقمح بالحبوب والقمح بين مصر والاتحاد السوفييتي. وفي نفس الوقت نجح في تفجير قنبلته الذرية الأولى، فضلاً عن بعض الأحداث التي شحذت حاسة الولايات المتحدة الأمريكية كانتهاء الحرب بين العرب وإسرائيل بهدنة ٤٩ وتطور أزمة تشيكوسلوفاكيا وحصار برلين.. وما إلى ذلك.

كان اعتقاد أمريكا – باختصار – أن السوفييت لا يخططون فحسب، وإنما يخططون للإفادة من التطورات الاجتماعية في العالم العربي لتأكيد

العقيدة الشيوعية، ومن ثم الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأرض تهدد الوجود الغربى الكونى، وهو ما يدفع الأمريكان إلى محاولة استرضاء العرب ومحاولة ضمان ولائهم، وقبل هذا كله محاولة السيطرة عليهم بشتى الأساليب إما بالتحالف أو التسهيلات العسكرية أو بالإغراء الاقتصادى، أو بأية وسيلة، لاستعادة السيطرة على المنطقة التى اعتبرت أنها (نقطة ضعف) الغرب فى مواجهة الاتحاد السوفييتى.

ومن هنا جاءت اتفاقية (النقطة الرابعة)..

لقد نجحت الولايات المتحدة الأمريكية بالتسلل إلى حكومة الوفد، فعقدت معها هذه الاتفاقية فى ٥ مايو ١٩٥١، ومن يراجع محافظ جلسات هذه الفترة فى الأربعينات، يلاحظ خضوع مجلس الوزراء المصرى لشراء قطع حربية أمريكية بالشروط الأمريكية، وبالفعل، بعد مرسوم فى ١٧ سبتمبر من وزارة المالية افتتح اعتماد اضافى لذلك (انظر محافظ الوزراء رقم ٨٤ من جلسة ٢٠/٩/٤٦ بدار الوثائق).

وكان أن تسلل هذا الاتفاق إلى الصحف المصرية، فراحت - جميعها - تهاجم الوفد، بل إن الوفديين أنفسهم راحوا يهاجمون أنفسهم، إلى درجة أن هذا الاتفاق قد هوجم من الطليعة الوفدية- أحد أجنحة الوفد التقدمية - فى بيان عنوانه: (الاشتراكية) (انظر مصطفى مؤمن فى كتابه النقطة الرابعة - دار النشر المصرية ٥٤).

وقد كان أكثر من هاجم هذه الاتفاقية فى ذلك الوقت شاب صغير السن، هادئ خجول هو أحمد بهاء الدين، فانتهى من كتابه ضد هذه

الاتفاقية ولم يمض أربعون يوماً على عقدها (١٥ مايو من نفس العام):

وهو ما يعود بنا ثانية إلى موقف بهاء الدين خلال كتابه.

وأهمية هذا الكتاب تعود إلى أنه ينظر إلى (النقطة الرابعة) فى الإطار العريض للاقتصاد المصرى، وليس فقط فى إطار (برنامج) عام أو (اتفاقية اقتصادية) عادية، ومن هنا، فهو يربط بينه وبين الواقع السياسى لمصر.

كذلك تأتى أهميته – فى نفس السياق – إلى أنه دائم الربط بين التجربة الاستعمارية القديمة للإنجليز والتجربة الاستعمارية الجديدة للأمريكان، وما يرتبط بذلك كله من تغييرات هذا النظام العالمى الجديد بعد الحرب العالمية الثانية كما سنصل إليه.

على أن الأهمية القصوى للكتاب تعود إلى أن (النقطة الرابعة) إنما تمثل فى الواقع الجديد النقطة الأولى التى ستتسلل منها كل خيوط الهيمنة الاستعمارية الجديدة فيما بعد، فضلاً عن أن هذا الكتاب سوف يستشرف ما سوف يحدث فى المنطقة العربية بعد ذلك على مشارف التسعينات من نفس القرن، حين تصل أهداف الاستعمار الأمريكى (وحلفاؤه) إلى درجة الاكتمال إبان حرب الخليج (عاصفة الصحراء)..

ومهما يكن، فإن هذا الكتاب يجهد أن يضع – منذ البداية – نص الاتفاقية كما هى (من وجهة النظر الأمريكية) قبل أن يفرغ إلى تعريتها وكشف أهداف الاستعمار الجديد (على حقيقته)، جاهداً أن يكون محايداً، جاهداً أن يجمح جماح عقله، فهو يضع تصريحات أصحاب البرنامج وتعليقاتهم فى إطارها الصحيح، بما يوحى بحقيقة الاتفاق، بل ولا يستطيع

أثناء نقل وجهة النظر الأخرى مقاومة التعليق عليها كما فعل مع كلمات الرئيس ترومان، إذ يلاحظ أن أمريكا تتسلل إلى صميم اختصاصات الدول الاستعمارية الأخرى، كانجلترا وفرنسا، مثل المغرب والسودان وبورما، كما يلاحظ أن المناطق التى لا تبذل فيها أمريكا نفوذاً كبيراً، فإن هذا يعود، لا إلى زهد، وإنما إلى خوف من أن تصطدم مصالحها اصطداماً سافراً مع إنجلترا وفرنسا وغيرها.

وهوما خلص منه إلى أن المحاولات الأولى لها لابد أن تكون فى بلاد مستقلة مثل سوريا وتركيا. وفى بلاد يتزعزع فيها النفوذ الإنجليزى كمصر.

ويعجب بهاء الدين وهو يعرض للبرنامج من (أن تحاول الحكومة الأمريكية إقناع الشعوب بنواياها الطيبة.. وكان أجدى عليها فى هذا أن تسير سيرة أخرى فى قضايا الشعوب المستعمرة والمحتلة. تقوم على تحريرها من نفوذ الإمبراطوريات، بادئة بنفسها). (الاستعمار الأمريكى الجديد، بدون، القاهرة ١٩٥١، ٢٥).

بيد أنه يتوقف أكثر عند خطورة البرنامج..

وأول ما يلفت نظره بذكاء عند تصدير رءوس الأموال الأمريكية أن هذه الأموال تمثل مرحلة جديدة من مراحل النظام الرأسمالى العتيق مورداً نصاً لأحد خبراء السياسة الأمريكية ومعقباً عليه، فحين يقول أوين لاتيمور رأياً مدافعاً عن صندوق «النقطة الرابعة»، ينبرى بهاء الدين قائلاً:

«إن تصدير رأس المال ليس جديداً تماماً، فقد كان المال يهاجر من إنجلترا وفرنسا وهولندا وغيرها، إلى

المستعمرات، ثم سرعان ما تلحق به حماية الدولة، توطد أقدامه وتثبت مصالحه. أو كما كانوا يقولون فى إنجلترا منذ قرن ونصف «العلم يذهب وراء التجارة، ثم تذهب تجارة أخرى وراء العلم»والعلم هنا هو الدولة بحمايتها الأدبية والمادية و العسكرية.

ويهذه الطريقة ذهبت شركة الهند الإنجليزية وشركات المطاط الهولندية إلى إندونيسيا، وذهبت رؤوس الأموال الإنجليزية إلى إيران والعراق، والأوروبية إلى مصر، وفى أعقابها جميعاً ذهب الاحتلال: المظهر السافر للاستعمار.

أما الجديد حقاً، فهو أن ينظم تصدير الأموال «مقدماً» على هذا النحو، وإن تهيأ له الحماية بمعاهدات واتفاقات واستقصاءات تحمل الدولة مسئوليتها قبل أن يخطو رأس المال ذاته خطوة واحدة، كما تفعل النقطة الرابعة.وما جاء هذا التطور إلا نتيجة للهجرة التى استفادها النظام الرأسمالى بغير منهج مرسوم، ثم يضطر للاستعانة بالقوة العسكرية. (ص ٣٠).

إن الاستعمار يرتب البيت، ويستعين بالقوى العسكرية، لكنه لا يلبث أن يستغنى عنها فيما بعد.

غير أن الاستعانة بالقوات العسكرية يمكن أن تكلف الكثير، ومن ثم، يحسن الاستغناء عنها.

لكن: لماذا تصدر الولايات المتحدة رؤوس أموالها؟

ولماذا سلكت كل الدول الرأسمالية هذا الطريق من قبل؟

وما هو أثر تصدير رأس المال على الدولة المصدرة والمصدر إليها؟

أسئلة يطرحها بهاء الدين، ولا يلبث أن يحاول الإجابة عنها في هذا الفقرة التي نجترئها من الإجابة:

«في الخارج تجد الخامات الوفيرة، لا صاحب لها تقريباً،

وتجد العمال يعملون بأجور بخسة، وبلا ضمانات.

وتجد الحكومات لا تفرض الضرائب الكافية على الإنتاج والاستهلاك والتصدير، اكتملت هذه السلسلة في الدول الرأسمالية الكبرى جميعاً.

وفي أمريكا أيضاً اكتملت السلسلة على نحو لا سابق له في السرعة والضخامة» . (٣٢) .

وعلى هذا النحو يكرر، وفي أكثر من سياق، إلى تجارب الاستعمار السافرة حيث يستخدم رأس المال في الهند وإندونيسيا، مؤكداً أن ما يفعله الاستعمار الأمريكي الجديد الآن ليس غير نوع من أنواع الاستعمار الخفي، إشارة إلى خلوه من مظاهر الاحتلال والقهر، وهو يسعى للسيطرة على أي بلد متخلف دون أن يتحمل شيئاً من أعباء الحكم أو العنف.

وتأسيساً على ذلك، يصل منطقياً إلى منطقة هامة، هي أن «النقطة الرابعة» لا تترجم غير الرغبة في تصدير رءوس الأموال الأمريكية إلى

البلاد المختلفة، واستثمارها فيها، وهى تجربة ليست جديدة، إنما هى قديمة، معروفة. «فأين هو الفارق بين هذه النقطة الرابعة التى تدعونا إليها وبين الاستعمار؟ لا جديد تحت الشمس» .. (٤٨) .

إن الكاتب يكون واعياً بحيث يدرك أن الصراع العالمى حينئذ (عقب الحرب العالمية الثانية كما هو بعد حرب الخليج) ليس غير محاولة للسيطرة على المناطق الاستراتيجية فى العالم، وهى المناطق التى لا تتمتع بموقع سياسي، بقدر ما هى تحصيل حاصل لأوضاع اقتصادية فى الظاهر وسياسية فى الباطن، فمصالح هذا الاستعمار الجديد تدفع به دفعاً إلى السيطرة على أى بلد يمثل له أهمية قصوى، سواء على المستوى الاقتصادى أو المستوى السياسى، فكل اهتمام اقتصادى يلقى فى التيار السياسى ويؤكده .

ويكون ذلك كله ادعى إلى التركيز على المعنى الرأسمالى التراكمى للاستعمار الجديد، وهو معنى يأخذ بخناق الدول التابعة، ويصب فى تيار الرخاء والسيطرة فى الدول المتقدمة، وبذلك يصبح اقتصادنا فرعاً مكملاً للاقتصاد الأمريكي.. واتباطنا بأمريكا على هدا النحو يجعل لها حق التدخل فى الكثير مما يعتبر من صميم كياننا، وبناء على هذا الحق تطالب أمريكا مقدماً بتعديل نظام الضرائب فى الدول المستفيدة من البرنامج، وتعديل قوانين الشركات وقبول مشورتها فى إصلاح نظم النقد والجمارك وبرامج التعليم.. إلى آخره. (٥٦) .

وقد استلزم ذلك سنوات طويلة قد تنتهى بمصر إلى هذا المصير.

وهى السنوات التى تفسر العلاقة بين أمريكا ومصر.

وهوما يدفعنا لاستدعاء هذا الواقع الذى نعيش فيه الآن.

نحن نحيا فى واقع يذكرنا باجراءات كثيرة دفعت مصر إلى سياسة الانفتاح الاقتصادى - سداح مداح - وهذا هو تعبيربهاء الدين فى أهم مقالاته فى السبعينات - ثم توالى بيع الشركات العامة لإنهاء نظام التخطيط المركزى، وتطبيق نظام اقتصاد السوق وتعديل نظام الضرائب، وتنفيذ إصلاحت كثيرة فرضت علينا من صندوق النقد الدولى (الغربى) فحررت الأسعار وألغى الدعم وتسريح العمالة.. وما إلى ذلك مما يدفع دفعاً للسقوط فى قبضة الاستعمار الجديد،

وهو ما يتمشى مع الدولة صاحبة الحول والطول - أمريكا - التى تملك فضلاً عن ذلك كله - ومعه - ديوناً ثقيلة على ميزانيتنا مما يمنحها حق الضغط السياسى والاجتماعى على الإردة المصرية.

فلنحاول أن نعود بحزم، إلى هذا اللون من الاستعمار فى الخمسينات..

لقد لعب الاستعمار الأمريكى داخل كتاب أحمد بهاء الدين وخارجه أدواره السياسية الأخرى ضد الإرادة المصرية بما لا يمكن رصده، ولعل أكثر مثالين دلالة فى هذا ما يتوقف عندها الكاتب.

يرى أن أولهما: الدور الأمريكى فى فلسطين،ونفس الموقف من الأمم المتحدة..

لقد عجب فى ذلك الوقت بمن يحاول أن يدافع عن الولايات المتحدة الأمريكية، فيضرب المثل بمن يحسن الظن به، إنه يعجب من ذلك، فيقول:

«إن لدينا مدداً من أحداث حاضرنا تتزاحم وقائعه: لدينا موقف أمريكا من قضية فلسطين وكيف أنقادت تلك الدولة الضخمة وراء مصلحة الرأسماليين اليهود فيها فأرغمت العرب على الهدنة، ومنعت عنهم السلاح ليقفوا عزلاً، وزودت إسرائيل بالأسلحة رغم قرار الحظر لتهجم. فلما هجمت سكتت أمريكا عنها وما زالت ساكتة على مليون من اللاجئين». (٥٨).

والنقطة الأخرى أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تريد أن تسير هذه السيرة فى طريق الأمم المتحدة بأية حال، لقد عمدت للقضاء على مؤسسات الدولة أو إضعافها أو الإنفراد بالعمل.

عمدت – كما حدث فى الخمسينات أو التسعينات – إلى التخلص من الأمم المتحدة بحيلة بارعة، هى، محاولة الإيهام أنها تتحدث وتتصرف بتوكيل عنها، فى حين أنها قد وصلت إلى ذلك إما بالتهديد أوالإغراء أو الهيمنة المالية أو العسكرية.

ورغم أن أحمد بهاء الدين كان قد سقط صريع المرض قبيل حرب الخليج بأشهر قلائل، فإنه كان واعياً منذ كتب (النقطة الرابعة) إلى خطورة أمريكا وموقفها الثابت المعلن وغير المعلن من السيطرة على منابع الثروة الطبيعية فى العالم القديم واحتكارها ما أمكن لتمويل صناعتها، ولسد حاجاتها الاستهلاكية ومطالب قوتها الحربية على حد سواء.

وهو ما يفسر تدخل أمريكا فى الخليج العربى مع حلفائها القدامى –

انجلترا وفرنسا – هل يمكن قراءة جملة مثل هذه دون أن نجزم أن صاحبها كتبها إبان الغزو الأمريكى للخليج فى حين أنها مكتوبة فى عام ١٩٥١. لنقرأ:

«واليوم تقف أمريكا هذه الوقفة، وتشعر شعوراً عنيفاً بحاجتها الملحة إلى وضع اليد على منابع الثروة الطبيعية فى البلاد المختلفة. (٧١).

نحن فى هذا الكتاب أمام صفحات، بل فصولاً كاملة يمكن أن تصور ما جرى أخيراً فى صحراء الخليج العربى ومناطق البترول فيه، «وكأن رخاء أمريكا يجب أن يبنى على تعاسة الشعوب». (٧٣).

وإن دل ذلك على شئ فهو يدل على أن الموقف الأمريكى لم يتغير رغم مرور قرابةنصف قرن من الزمان على تعرفه على المنطقة العربية عقب الحرب العالمية الثانية.

إن تأمل اللوحة ترينا أن ثمة تغييرات طفيفة فى الخطوط العامة، ليس فى «موضوع» الرؤية.

فإذا كانت الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة قد دفعت هذه الأخيرة إلى تحكيم القوة واستخدام المشروعات والبرامج الاقتصادية لتحقيق هدفها، فنحن الآن أمام سقوط الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية كلها، وانتهاء الحرب الباردة ومبرراتها..

نحن أمام نفس الدافع الاستعمارى القديم، الجشع لثروات العرب

وبترولهم وأرضهم، والولع بالسيادة على أية أرض جديدة يمكن أن تزيد غلبة (الاستراتيجية) الأمريكية على هذا الكون، وحماية (أداتها) إسرائيل.

لم يتغير شئ كثير من المشهد، فمن لم يعرف جيداً أبعاد (الاستراتيجية) الأمريكية ومبرراتها فى النظام الجديد.

هل نحن الآن فى حاجة لسرد صفحات كاملة من كتاب أحمد بهاء الدين لندرك أنه كتاب مفتوح، ما يزال يتحدث عن ممتلكات أمريكا فى الشرق الأوسط، لنستعيد كلماته:

«أى شئ يمتلكونه فى هذا الشرق المسكين؟ البترول بترولهم، وخطوط المواصلات خطوطهم.. والمشروعات الصناعية والزراعية المزمعة - كما النقطة الرابعة - مشروعاتهم، فليس لنا فى بلادنا شئ». (٧٩).

ونكتفى بهذا القدر من ذلك الكتاب، فسوف نلتقى به مرة أخرى حين نخرج من زمن الخمسينات (زمن النقطة الرابعة) إلى الأزمنة التالية حتى التسعينات.

(٣)

وقبل أن نهبط إلى الستينات، ثمة ملاحظتين لابد من الإشارة إليهما:

أولاً: إن رؤية بهاء الدين للاستعمار الأمريكى لم تتوقف عند مصر أو أحد الأقطار العربية وحدها، وإنما اتسعت دائرة العدسة إلى

مداها على العالم كله.

ثانياً: إن بهاءالدين أضاف إلى صورة التحدى العسكرى أو الاقتصادى الأمريكى صورة أخرى، هى صورة التحدى الحضارى، فالهزيمة أمام الاستعمار الجديد أو أداته (إسرائيل) إنما يكون حسب اتساع الفجوة الحضارية بين العرب والغرب.

لقد راح الكاتب يفصل هنا ما حاول إيجازه هناك لكشف صورة الأمريكيين مع تطور الزمن، فهو لم يتردد قط عن تكرار أهداف الاستعمار الجديد، وهى أهداف تسعى فى سبيلها لإجهاض حركة استقلال كثير من أقطار العالم التى كانت تسعى إلى التحرر سواء بالخلاص من الاستعمار، أو بمحاولة الحرص ألا تقع فى شركة ثانية (أخبار اليوم ١٩٦١/٢/٢٨).

كما راح فى ذلك السياق يكشف العودة إلى التحالف بين الدول المستعمرة، فراح يعلن تحالف الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا للسيطرة على دول المغرب العربى (السابق ١٩٦١/٤/١) قبل أن تعاود السيطرة على بقية الأقطار العربية.

وقد تمهل بهاء عند الأساليب الجديدة التى راح يلجأ إليها هذا الاستعمار الجديد ويكشف عنها..

لقد بدأت الولايات المتحدة تكشف عن أهدافها بشكل سافر، ومع ذلك راحت تسعى لتحقيقها بعملائها السريين لاستخدامهم فى عديد من العمليات المشينة فى شتى أنحاء العالم، ومثال ذلك أنها راحت تتحالف مع دول الاستعمار التقليدى وتمثلها بلجيكا، لقد كشف بهاء الدين أن أمريكا تمول

كازافوبو وبلجيكا تمول موبوتو وتشومبي وغيرها، والمساعدات الأجنبية تذهب إلى جانب آخر.. (الأخبار ١٥ /٣/ ١٩٦١).

وفي مرة أخرى يتم الكشف عن غرور القوة الذي يتمثل في التورط الأمريكي بكوبا، فهو يؤكد اتجاهات نابليونية خطيرة لدى الرئيس الجديد جون كنيدي. (الأخبار ١٩/٤/١٩٦١).

أيضاً من الأساليب التي لجأ إليها الاستعمار الجديد هو استخدام هذا الاستعمار مخابراته المركزية في تنفيذ أهدافه. يقول:

«إن المخابرات هي التي اختارت قيادة الثورة المضادة لكاسترو، وهي المسئولة عن وضع زعيم يطالب بإلغاء الإصلاح الزراعي وإعادة الأراضي إلى الإقطاعيين». (الأخبار ١/ ٥/ ١٩٦١).

ويكون الكاتب واعياً لهذا الدور في مواجهة التماسك العربي.

فهو حين يشير إلى هذا الإدراك يذكر شهادات لبعض العرب في الأقطار العربية مما نجد له تفصيلات كثيرة في صفحة الأخبار في شهر مارس من عام ١٩٦١، أيضاً في أخبار اليوم في شهر مارس من عام ١٩٦١، أيضاً في أخبار اليوم ٧/ ١٠/ ١٩٦١.

ويلاحظ أن الهجوم على الاستعمار الأمريكي يتصاعد في فترة عبد الناصر حين يتخذ الزعيم مواقف عنيفة ضد هذه القوى سواء في مواقفه المباشرة أو رحيله إلى الأقطار العربية إما بالسلاح أو القوات أو بكليهما معاً كي يعضد هذا القطر أو ذاك ضد ألاعيب الاستعمار.

غير أن نبرة هذا الهجوم زادت واتسعت عقب هزيمة ٦٧، فقد كان مؤكد دور الولايات المتحدة فى هزيمة العرب فى هذا الوقت.

لقد كان عليه أن يتناول فى أكثر من مرة لعبة (الانتظار) التى تلجأ إليها الولايات المتحدة وإسرائيل فى مواجهة المطالبة العربية بالإنسحاب، وقد حدد أكثر من طرف داخل (مصيدة الانتظار) من أول هذه الأطراف تأتى أمريكا التى تحاول أن تبدو واقفة خارج المصيدة، مفسراً أن أحلام أمريكا كانت تتحدد فى حالة الهزيمة أن تسقط النظم والحكومات العربية المشاكسة تعيد كل ما ذهب من السيطرة الغربية فى المنطقة، «تعيد فرض الحصار والعزلة فى هذه المنطقة على الاتحاد السوفيتى، ولكن هذا لم يتم. الآن مؤكداً أن حلاً أمريكياً على هذا النطاق الشامل مستحيل..

وعقيدتى أن أمريكا لا تتمكن من أن تواجه نزيفاً جديداً مستمراً فى الشرق العربى فى الموقف الراهن». (المصور ١٨/٨/١٩٦٧)

وهذه هى الفترة التى يرصد كل ما يحدد الاستراتيجية الأمريكية التى تكون قد نضجت أكثر، ففى حين ترتبط برباط مقدس مع إسرائيل، فإن ذلك لا يكون بغير سبق إصرار على (خطة) أمريكية تحاول الهيمنة بها على أقطار الوطن العربى كله، وقد نشر فى ذلك الوقت فى المصور مقالته بعنوان (تقرير خطير من جبل الحديد) يشير فيه إلى ذلك التقرير الذى نشر أخيراً فى أمريكا ويثير ضجة واسعة ويصل إلى نقطة خطيرة يوجزها على النحو التالى (إنه إذا كان تحقيق السلام ليس فى مصلحة المجتمع المستقر. فالحروب تلعب دوراً فى هذا الاستقرار، والإنسانية لم تكشف بعد أسلوباً آخر

يحل محل الحروب في تأدية الوظائف التي تؤديها).

ورغم أن هذه الأفكار ليست جديدة تماماً، فإن أهميتها هذه المرة تأتى من أن مثل هذا التقرير يؤكد أنها تصدر من داخل مؤسسة الحكم الأمريكى التى تتحدث عن ضرورة بقاء السلاح، وينتهى الكاتب من الإشارة إلى خطورة ذلك على الدول المتخلفة التى تبقى – فى حالة احتكار السلاح لقوى أخرى – تابعة اقتصادياً ونفسياً واجتماعياً للدول المتقدمة، الدول التى تسعى الآن للسيطرة على دول العالم الثالث،

وهو ما لم يتغير فى السبعينات..

(٤)

والملاحظة التى لا يمكن إغفالها فى السبعينات، أن مصر السادات التى كانت تجنح للميل للشاطئ الأمريكى، وتقدم تنازلات كثيرة لقوى الاستعمار الجديد بالمجان لم يكن مثقفوها على إطلاقهم يؤيدون هذا الرأى..

لقد وجدت مدرستان فى ذلك الوقت.

أحدهما قادت الدعوة للتحالف مع الولايات المتحدة واكتساب صداقتها وتجميل صورة الولايات المتحدة على المستوى الصحفى والسياسى، وقد كانت (أخبار اليوم) من أصحاب هذه المدرسة.

أما المدرسة الأخرى فقد كان أحمد بهاء الدين من بين أبنائها، قادت دعوة الاعتماد على القوى الذاتية لاسترداد الحقوق العربية ومقاومة النفوذ

الأمريكي الجديد في مصر والتحذير من الاعتماد المطلق على الولايات المتحده الامريكية والتأكيد على دعم التوجه العربي لمصر وتعزيز الصداقة العربية – السوفيتية والتصدى رغم الظروف القاسية في عامى ١٩٧٤ – ١٩٧٥ لحملات اليمين المصرى في الهجوم على عبد الناصر والتجربة الاشتراكية في الستينيات

ورغم ان احمد بها الدين كان قريب الصلة من انور السادات ، خاصة في منتصف السبعينات ، يمكن القول انه كان اقرب الي التيار اليساري العريض الذي كان يلتزم بالقضايا العربية في الصراع ضد الاستعمار الامريكي بشكله الجديد وبصفة عامة من اسرائل وامريكا.

وفي هذا الاطار يمكن تصور موقف احمد بهاء الدين حينئذ

تحدد موقفه في الفترة بين هزيمة ٦٧ ونصر اكتوبر ٧٣ في استمرارية الهجوم علي الاستعمار الامريكي واداته اسرائيل ولم يلبث عقب سياسة الانفتاح ان تردد هنيهة في حيرة من النظام وما لبث ان عاود موقفه الاول المناقض لامريكا التي راحت تعمق تيار الانفتاح..

في الفترة الاولي راح يهاجم امريكا التي لا تقوم بأي ضغط علي اسرائيل كما يزعم ممثلوها ، وما يحدث في العالم العربي من هزائم ونكسات انما يحدث لمصلحة امريكا ، وامريكا هي التي تقوم بتصعيد الموقف بين اسرائيل والوطن العربي بسبب الاسلحة التي ترسلها لاسرائيل فتعمل علي تشجيعها (١٩/٣/١٩٧١) ، مدركاً ان ما يطلبه المعسكر الغربي وفي مقدمته الاستعمار الامريكي هو ان يستسلم العالم العربي كاملاً امام

القـــوة المسلحـــة ، القـــوة الاســـرائيليـــة الامـــريكيـــة المسلحـــة ، (المصـــور ١٩٧١/٣/٢٦).

وهو يتـخـذ نفس الموقف إبان مـبـادرة روجـرز ، فـيـحـذر في سلسـة من المقالات من الخطر الاميـركي مـتـهـمـاً امريكا – صـراحـة – بالتـواطؤ مع اسرائيل بل ان امريكا تستمرئ اللعبـة التي تلعبها معها وهي لعبة الانتظار (١٩٧٢/٥/١٤) ، مرددا في الوقت نفسه تبعية اسرائيل الخالصة لامريكا بالقـدر الذي تمثل فـيـه – كـمـا جـاء في عنوان مـقـالتـه في الاهرام -١٩٧٢/٣/١٢ – (حاملة طائرات غير قابلة للغرق) للاستعمار الامريكي.

ويؤكـد مـا ثبت ان ردده مـرات من قـبل – خـلال وثيـقـة – مـوقـف رؤسـاء امريكا من اليـهـود وتأثير هؤلاء في الانتـخـابات الامـيـركـيـة حـيـث يسعي كل رئيس امـريكي مـرشح او بعـد نجـاحـه في الانخـابات الي اسـتـرضـاء دولة اسرائيل بأي شكل (١٩٧٢/٨/١٣).

وقد استمر احمد بهاء الدين مرددا هذا العداء للاستعمار الامريكي واداته (اسرائيل) في فترة السبعينات ، خاصة عقب حرب اكتوبر ٧٣ مؤكداً ان هدف الغـرب هو الاسـتـيـلاء علي امـوال العـرب وبتـرولـهم ومـوقـعـهـم الاستراتيجي مستشهداً بامريكيين خبراء وسياسيين حول ذلك مستعيداً دور المخابرات الامريكية في ذلك كله (١٩٧٤/١/٢٨).

يختلط الموقف المناوئ للاستعمار الامريكي بفترة الحيرة في منتصف السبعينات، في هذه الفترة التي بدا فيها توجه السادات الي امريكا توجها مؤكداً ، وخاصة ، أنه كان بالقرب من الرئيس السادات ، يكتب له خطبه

وقرارته وتكليفه الوزاري (كما فعل مع وزارة د. حجازي).

كذلك اعتقاده بانه يسهم خلال (محاوراته ..) مع السادات في بلورة القرار السياسي ، فقد اتسمت نظرة بهاء الدين بحيرة مؤكدة طرح فيها أسئلة كثيرة عن طبيعة هذا التوجه ، ومع ذلك ، فاننا لا نستطيع اغفال انه كان معارضا لسياسة الانفتاح الاقتصادي.

لم يستطع ان يخفي دهشته ، حين كان يسأل هل ما يحدث هو خطة محسوبة ،وان هذا جزء من الثمن السياسي المطلوب دفعه للولايات المتحدة الامريكية حتي تساعد علي فك الحبل من حول عنق مصر وأي حاكم مصري ، بالضغط علي اسرائيل؟ ام ان الأمر أبسط، (محاوراتي مع السادات ، دار الهلال ، ص ٩٠).

ويمضي في هذه الحيرة مدركاً ان علاقة السادات بامريكا تأخذ من رصيد علاقته ببعض الدول العربية ، ومع ذلك ، كان يجهل ما يدور في عقل السادات أزاء امريكا ، خاصة ، ان حدود الكاتب –رغم مكانته قرب السلطان– لم تسمح له بالنفاذ الي عقل السادات ، مما كان يكثف في داخله طبقات من الحيرة لا يجد لها تفسيراً.

ومع هذه الحيرة من المفيد أن نؤكد أنه لم يفقد إحساسه قط بخطورة الغرب الامريكي أبداً ، كان يردد دائما أن اسرائيل تعتمد بشكل مستمر علي العدو الأمريكي لتجد لديه قبولاً مؤكدا.

أيضاً كان واعيا –كما سجل في ،محاوراته، فيما بعد– لتكنيك الولايات المتحدة الامريكية التي كانت تعري السادات مرة و(تستعطفه) مرة أخري ،

ثم تدفع به للتنازل دون أن يدري حتي تورطه تماما.

وحين احس بهاء الدين بخطورة تورط السادات مع الأمريكان ، قال في محاوراته التي كتبها فيما بعد عبارة لا تخلو من معني ، قال:«واتخذت قرارا غريباً هو: ألا أري السادات بعد ذلك» (محاوراتي، ص ١٦١ - ١٧١).

ومع ذلك، فلم يتوقف بهاء الدين طيلة السبعينات عن التحذير من الأمريكيين، متسائلاً دائما ماذا نستطيع أن ندخر من عناصر القوة العسكرية والتماسك والاحتمال والمخيلة السياسية لمواجهة هذه القوي.

مضيفاً الي ذلك تكرار الدعوة التي كان اكثر أبناء جيله ترديداً لها ، وهي التنبية للفجوة الحضارية التي بيننا وبين عدونا سواء العدو الغربي أو أداته إسرائيل .

كما لم يكف عن ترديد أننا يجى أن نحتاط للروس أو الأمريكان ليقفوا دائما خارج حدودنا، وقد وضع الأولويات عنده عند حدود هذا الهدف، إذ كتب ، أكثر من مرة ، وبأكثر من طريقة هذه الفقرة :

«المهمة الأولي : الإجماع علي رفض أي وجود لقوة عسكرية ضاربة ، سوفيتية او أمريكية ، علي أي أرض عربية .. مهما كانت الاسباب ..

فإن ثبت وجود شئ من هذا ، فمن المهم حصره ، والضغط عليه ، حتي ينحسر تماما .. ولا يسمح بفكرة الاستعانة بقوة خارجية كعنصر في أي صراع داخلي عربى مهما كان». (الاهرام ٢/٧/١٩٧٨).

بما يشير إلى أنه تنبه، منذ فترة مبكرة، إلى ما سوف يحدث فى نهاية التسعينات، حين يحدث كل ذلك مرة واحدة، ويجد الوطن العربى نفسه فى تكتلات ضد بعضه البعض وفى صفوف الاستعمار الجديد والقديم (أمريكا وحلفائها) ضد الإرادة العربية.

ويكون على بهاء الدين أن يستكمل (فائض) التفرق العربى، وصعود الاستعمار الأمريكى إلى أقصاه فى حقبة الثمانينات..

وهى حقبة الوعى العربى وترديه

فلنصل إلى الفصل الأخير فى حياة أحمد بهاء فى الثمانينات .

(٥)

وإذا بدا أن الاستعمار (الأمريكى) الجديد يقف خلف إسرائيل منذ نكبة ١٩٤٨، فقد وصل هذا الموقف إلى أقصاه فى نهاية التسعينات، حين ركزت الولايات المتحدة مواقفها المناوئة للعرب فى تشجيع هجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين واشعال أزمة الخليج والإفادة منها.

فى هذا العقد – الثمانينات – برهنت الولايات المتحدة على تأييدها الخالص لإسرائيل فى كثير من المواقف منذ تشجيع الغزو الإسرائيلى لبيروت، وقبله ضرب المفاعل الذرى فى العراق ١٩٨١ وبعده قصف ليبيا، وضرب مقر سكن رئيس ليبيا واغتيال عدد كبير من القيادات الفلسطينية.

فمن المؤكد أن الاستعمار الأمريكى لم يكن بعيداً عن كل هذه المواقف

سواء بالاشتراك فيها بشكل مباشر، أو من خلال إسرائيل.

وقد استطاع أحمد بهاء الدين رصد كل هذه الأحداث وتسجيلها كما فعل الجبرتي. وهذا المؤرخ كان أثيراً لديه واستخدم اسمه لأكثر من مرة .

وهذا الرصد نجده في الفترة الأخيرة قبل مرضه (في يوميات الأهرام التي استمرت بين يناير ١٩٨٢ (عام قصف القوات الأمريكية البحرية لمدينة بيروت في عملية الحصار، وفبراير ٩٠ (عام قصف القوات البحرية لمدينة بيروت في عملية الحصار، وفبراير ٩٠ (عام استنفار الولايات المتحدة لحلفائها لاستكمال، فيما بعد، عملية «عاصفة الصحراء») .

وعلى هذا النحو راح يسجل مواقف هذا الاستعمار الذي لم يعد جديداً الآن، وإنما أصبح تقليدياً سافراً.

ولأن الأحداث والمواقف تحتاج إلى حيز لا يتسع مداه الآن، فسوف نتنفي موقفين لنرى كيف تعامل معهما قلم الكاتب وعقله وهما:

- الموقف في لبنان
- الموقف من هجرة اليهود السوفييت.

أما الموقف الأول فقد ردد فيه أن موقف أمريكا ما زال يحسب لإسرائيل حينئذ، ويعمل لها، سواء إبان الغزو الإسرائيلي للبنان أو تورط أ مريكا نفسها في هذا البلد الغربي.

وقد رصد للموقف الأمريكي إبان الغزو الإسرائيلي متعجباً أن تطالب أمريكا انسحاب السوريين والفلسطينيين دون أن تشير إلى ضرورة أن

تنسحب إسرائيل، ويسأل «هل إسرائيل هى المفوضة لتنفيذ هذه المهمة؟» (يوميات ٨٢/٧/٢٧)، وحين يلاحظ أن أمريكا تتحدث عن معاقبة روسيا لغزوها بولندا دون أن تشير إلى ما ترتكبه إسرائيل فى بيروت من الغزو والقتل والتدمير (٨٢/٨/٢)، بل يلاحظ موقف أمريكا نفسها، فى الذى يتم فيه حادث نسف مبنى قيادة القوات الأمريكية فى بيروت يعيد استنكاره لوجودها. متطرقاً إلى وجود أمريكا الغريب فى نيكاراجوا، يسأل: ماذا تفعل أمريكا هناك.

على أن الكاتب لا يكتفى بالرصد والهجوم على الاستعمار الأمريكى. بل جاوز ذلك إلى تحسب هذا المصير الأمريكى المعدد فى لبنان، يقول:

«لبنان لن تخسر أكثر مما خسرت. وكذلك الفلسطينيون، وكذلك العرب جميعاً. الدور الآن فى الخسارة الجسيمة.. على أمريكا..

وقعت أمريكا فعلاً فى رمال الشرق الأوسط المتحركة، والتى تزعزعها باستمرار سياسات إسرائيل.. وسارت كرامة أمريكا فى الميزان». (يوميات ١٩٨٢/١٢/٢٩).

هذا هو الموقف الأول، ويمكن أن نستطرد فيه كثيراً، لولا أنه يقترب ويتشابك مع عدة خطوط أخرى تؤدى إلى كوارث نهاية الثمانينات، فقد تداخل مع خط هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل.

ورغم أن الموقف من هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل موضوع فصل خاص، نتمهل فيه كثيراً عند هذه القضية، فسوف

نكتفى منه الآن، برصد موقف الولايات المتحدة الأمريكية، لنرى جانباً، من رؤية أحمد بهاء الدين لهذا الموقف.

والظاهرة الأساسية هنا أن بهاء الدين يعاود الرأى الذى لاحظه منذ بداية الخمسينات، وهو أن بذور تأييد إسرائيل فى الاستراتيجية الأمريكية منذ فترة مبكرة استنبتت ثماراً كانت عميقة والجذور فى البنية الأمريكية لا المصالح الأمريكية فقط.

وهذا الموقف الأمريكى هو ما راح يكشف عنه من آن لآخر، من أن (الجذور) الصهيونية فى الحياة السياسية الأمريكية أقوى من رجحان كفة هذا الرئيس الأمريكى أو ذاك، أو رغبة هذا الرئيس الأمريكى أو غيره، فالرئيس الأمريكى أياً كان سيكون مكبلاً بالارتباطات الإسرائيلية - الأمريكية الاستراتيجية التى تشابكت مستعرضاً تسع شخصيات عرفت الرئاسة الأمريكية و مبرهناً من خلالها على هذا الرأى. (المساء٥/١١/ ٨٤).

وعن ذلك راح يطلق تعبيرات دالة على سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط، فأمريكا تقوم فى مشكلة الشرق الأوسط بدور (الناقد الفنى) ببراعة يحسدها عليها أعظم النقاد فى العالم، وأحياناً تقوم بدور المذيع والمعلق التليفزيونى فى مباريات التنس أو كرة القرم.. فهى تمدح اللعبة الجيدة وأحياناً تنتقد اللعبة الخشنة أو السيئة.. معطية كل طرف حقه من اللوم أو الثناء. ولا شأن لها بما هو أكثر من ذلك.

كما أن أمريكا لا تقوم بهذا الدور إلا فى الشرق الأوسط أى إلا إذا تعلق

الأمر بإسرائيل، معدداً عمليات التدخل فى شئون الدول الأخرى وسوابق الغزو وإرسال الأساطيل إلى غير ذلك. (يوميات ١٣ / ١١/ ١٩٨٩).

وهذا الموقف ترجم له مرة أخرى بتعبير (الحياد المطلق) وهو حياد بين قوم اغتصبوا الأرض وجثموا عليها. وقوم ألقى بهم فى البحر أو الصحراء. (١/١١/١٩٨٩).

وتستمر هذه التنويعات فى يومياته مصوراً الاستعمار الأمريكى حتى تستفحل قضية هجرة اليهود السوفييت، وهنا يجد نفسه غارقاً إلى أذنيه للتنبه إلى خطورة هذه الهجرة، حارقاً ما تبقى من جهد نفسى وجسدى حول بيان لإدانة هذا الفعل.

إن شهرى يناير وفبراير كانا أكثر شهور الكاتب التى شهدت إعياء شديداً وإجهاداً عصبياً بالغاً، صور فيهما الموقفا لأمريكى تصويراً دالاً..

فما يحدث يسمى (جريمة العصر) وهى إحدى جرائم العصر بكل المعايير.

وقد تركز لوم بهاء الدين للأمريكيين خاصة على المساعدات التى تبذل لإسرائيل رغم تدفق هذه الهجرة، فهى مساعدات يصعب حصرها، كما تسمح باستخدامها فى توطين اليهود الروس فى الضفة الغربية بما يصعب تصديق ذلك، فهى تدخل إسرائيل من النوافذ والأبواب ومن تحت عقب الباب، ومن المال العام والخاص..

ولا يلبث أن يعود لأكثر من مرة لهذه المساعدات الخارجية الأمريكية، ورغم أن الكاتب يتحدث بعجب عن إعلان أمريكا المستمر للدفاع عن

حقوق الإنسان، فهو يجزم أنها ما زالت - فى قضايا العرب - تكيل بمكيالين..

وعلى هذا يبرهن على أن ثمة خطاً متصلاً بين نكبات العرب جميعاً بين ١٩٤٨ / ١٩٩٠ والموقف الأمريكى، وهو خط ما زال يمتد فى اتجاه أفقى، يرفض أن يتوقف.

فهو لا يتأثر بتغيير هذا الرئيس أو ذاك، أو تعديل قناعات هذا القطر أو ذلك..

وهو ما زال يتلمس وسائله فى (النقطة الرابعة) أو فى (صندوق النقد الدولى)، و(الديون).. وما إلى ذلك..

والأكثر من هذا أنه كشف النقاب عن وجهه أخيراً، فلم يعد يعنيه أن يستخدم وسائل اقتصادية إلا بالقدر الذى تعمل فيه الآلة الرأسمالية الغربية، أما الوسائل العسكرية، فقد كشفت عن وجهها الحقيقى..

وهو ما لم يخطئه كاتب مثل أحمد بهاء الدين.

(٦)

وهنا نصل إلى عدة استنتاجات أخيرة:

- يلاحظ أن أحمد بهاء فى الخمسينات والستينات تعامل مع الاستعمار الأمريكى فى إطار دولى وإطار محلى، وكلاهما - الدولى والعربى - يسعى إلى التركيز على خطر هذا الاستعمار

سواء تعلق الأمر بمصر أو بأى قطر من أقطار آسيا أو إفريقيا أو أمريكا اللاتينية، فى حين أنه حدث انقطاع عام فى فهم هذا الدور، إذ عاد للتعامل مع هذا الاستعمار فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى فى فترة السبعينات بوجه خاص.

وقد كان ذلك طابع توجهات مصر السادات.

- وتبعاً لتطور الدور الأمريكى السلبى، انعكس فى القومية العربية،

فالخطر الأريكى حاضر فى الستينات لكنه غير فعال فى التوجه العام.

وهو السبعينات فصاعداً حاضر بما يكفى للتأثير فى وحدة الصف العربى، بل لعب دوراً هائلاً فى ضرب الوعى القومى وتنشيطه.

- وهو ما انعكس - كذلك - فى قضية فلسطين، فهو فى الخمسينات والستينات يحاول التأكيد على الدور الإسرائيلى ومساعدته، فى حين أنه يضيف - فيما بعد -السيطرة على المقدرات العربية مستعيناً بإسرائيل..

ومن هنا، ظهر أكثر من قبل أن العدو الحقيقى للأمة العربية هو الاستعمار الأمريكى وليس إسرائيل،

فأمريكا هى التى تكيل بمكيالين.

وأمريكا هى التى تمول إسرائيل بترسانات الأسلحة.

وأمـــريكا هى التى ترفض الاعـــتـــراف بمنظمـــة التـــحـــرير الفلسطينية.. وما إلى ذلك.

– والملاحظة التالية تلخص فى أن (كل) القضايا التى واجهها كاتب مثل أحمد بهاء الدين منذ الخمسينات هى هى لم تتغير.

وهو يعكس افتقاد الوعى العربى بقدر تأكيد هذا الاستعمار لسيطرته وتطويرها عبر استراتيجية علمية متوالية..

– وقد كان من الآثار الكثيرة التى انتهت إليها تجربة الاستعمار، وصـول الإجـهـاد الذهنى والجـسـدى عند الكاتب العربى إلى أقصاه.

وهو ما انتهى إليه أحمد بهاء الدين – بالفعل – مع هجرة اليهود السوفييت لإسرائيل بمباركة أمريكا وضغطها.

إن الإمبراطورية القديمة والجديدة تسعى للسيطرة على المنطقة العربية، وهو ما لاحظه وعمل له بهاء الدين منذ (النقطة الرابعة) ودعا فى مقدمة كتابه أن يلاحظه المثقفون ويعملون له، وبذلك، يصبح التصدى لهذا الخطر مستمراً لم يتغير وإن تغيرت أساليبه وتدهورت وسائل المقاومة العربية.

وهو ما انعكس بالسلب على بهاء الدين الذى سقط مريضاً..

فلنتمهل أكثر عند هذه الهجرة (جريمة العصر) قبل أن نحاول التعرف على فترة السقوط.

الفصل السادس

جريمة العصر

أولاً

اليهود السوفييت

«أليس لهذا الخبث من آخر»
(أحمد بهاء الدين)
«إن ما يرتكبه المستكبرون
فى صفحة من صفحات التاريخ،
سوف ينقلب عليهم ذات يوم
فى صفحة أخرى
من صفحاته الكثيرة»
بيان (جريمة العصر)

«جريمة العصر» هو التعبير الذى أطلقه أحمد بهاءالدين على الهجرة الصهيونية من الاتحاد السوفييتى إلى إسرائيل لتشغل الأرض المحتلة خاصة الأرض العربية التى احتلت عام ١٩٦٧ كالضفة الغربية.

وقبل أن نتمهل عند ملابسات هذه الهجرة وظروفها عبر (يوميات) الكاتب، ثمة إشارات لابد من التوقف عندها..

الإشارة الأولى أن هول هذا الحدث على وجدان كاتب مرهف مثل بهاء الدين، عرف ركاماً كثيفاً من المآسى العربية فى نصف القرن الأخير، وانغمس فيها مشاركاً فى عديد من كتاباته ومناصبه الفكرية..

هذا الحدث كان لابد أن يصل إلى أعماقه، ويفجر فيه بركاناً عاتياً جهد

الكاتب طويلاً أن يخفيه تحت العقل لمواجهة الخرافات التى كانت تمسك بتلابيب الوعى العربى،

وعلى ذلك، فما كاد يواجه هذه الجريمة الجديدة طيلة يناير وأغلب أيام فبراير من عام ١٩٩٠، حتى نال الإجهاد العصبى منه كثيراً، وانعكس هذا كله فى نزيف مفاجئ فى المخ، نقل بعدها إلى أكثر من قسم للعناية المركزة، وانتهى به الأمر فى مستشفيات عربية وغربية إلى فقد جزء كبير من التحكم فى أعضائه، وتركيزه الذهنى.

وهو ما سنتمهل عنده أكثر فى الفصل التالى.

لم يكن بهاء الدين بعيداً عن الهم العربى، ولم يكن ليستطيع أن يكون بعيداً، فتداخل الخاص بالقومى.

فلم تعد جريمة العصر هى فقدان فلسطين فى النكبة الأولى ١٩٤٨، أو النكبات والهزائم التالية التى راح فيها أجزاء أخرى من الأقطار العربى، كما لم تعد جريمة العصر هى تواطؤ العالم كله ضد (الحق) العربى ممثلاً فى هذه الهجرة الأخيرة..

وإنما أضيف إلى هذه الجرائم جريمة أخرى، تمثلت فى سقوط الكاتب العربى،ولم يهجر القلم أو الدعوة للمواجهة المستمرة.

لقد شهدت الفترة الأخيرة من شهر فبراير عام الهجرة اليهودية إلى الأرض المحتلة حول الشعلة العالمية إلى شئ أشبه بنار أخذت تأكل بعضها لهول ما انعكس فيها من واقع درامى حزين..

أما الإشارة الأخرى – فى نفس السياق – أن بهاء الدين تميز عن غيره من كتاب ذلك الزمان، بالدعوة المستمرة لمواجهة إسرائيل بالتفوق الحضارى.

إن هذه الجريمة لا تعود إلى الغفلة بقدر ما تعود إلى التخلف الشديد.

وهو ما انعكس فى الجريمة الأولى – قيام إسرائيل فى المنطقة العربية.

ثم ما ترتب على ذلك من جرائم أخرى.

كان آخرها الآن (نقل حوالى نصف مليون يهودى إلى إسرائيل ليشغلوا الضفة الغربية بالكامل، ويتم بناء على ذلك طرد الفلسطينيين من جهة، ومضاعفة قوة إسرائيل من جهة أخرى. (الأهرام ٢٧ يناسر ١٩٩٠).

إن ما يحدث حينئذ من تطاول الدول الكبرى علينا وخداعها لنا – الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا.. إلخ – إنما يعود إلى افتقادنا إلى الحس العلمى الذى يجب أن نتعامل به مع غيرنا..

وهو ما انعكس منذ فترة مبكرة من موقفه فى قضية الصراع العربى – الإسرائيلى.

فمن يراجع كتاباته فى عديد من المنابر الصحفية أو الفكرية منذ نهاية الأربعينات حتى اليوم لا يخطئ حقيقة، هامة، هى: أن هزائمنا عنده إنما ترتبط أساساً بما أسماه (الفجوة الحضارية) بيننا وبين الغرب.

وإسرائيل إنما هى جزء من الغرب..

وإسرائيل إنما تقوم وتبارك من قبل الغرب..

وعلى هذا النحو، فإننا نستطيع أن نلاحظ أن كتاباته – وبوجه خاص السنوات الثلاث التي أعقبت هزيمة ٦٧ – لا تركز فقط على المواجهة العسكرية، وإنما في المقام الأول على هذه (الفجوة) الحضارية.

فالمسألة لم تتحدد الآن في الكثرة أو القلة، ولكن في التفوق الحضاري.

وقد لاحظ حاضروا معرض الكتاب في شتاء ١٩٩٠ – في يناير – أحمد بهاء الدين وقد خصص محاضرته عن الفارق الحضاري في الأساس الأول، وراح يكرر – لأكثر من مرة – أن الجندي العربي الذي حارب في ١٩٦٧، و١٩٧٣ فلاح.. مستوى وعيه الثقافي والحضاري أقل من الجندي الإسرائيلي، ولن تحل مشكلتنا مع إسرائيل – عسكرياً – طالما بقيت هذه الفجوة الحضارية، إن التقدم الحقيقي لا يحدث إلا باستخدام العلم والعقل والحر.

بيد أن هذا المفهوم لم يغفل نظرة الغرب لنا أو خداعه لمقدراتنا حين يلهج الكثير من سياسية الآن بالدعوة إلى (حقوق الإنسان)، ويقولون إنه من أجل حقوق الإنسان سمح الاتحاد السوفييتي بهجرة يهود من أوكرانيا أو موسكو إلى الضفة الغربية، أو القدس، ومن أجل حقوق الإنسان المتذرع بها تسعى الولايات المتحدة لتأكيد ذلك خلال الضغط على الاتحاد السوفييتي ومنح الأموال لإسرائيل لتحويل الهجرة إلى واقع.

وهو ما يصل بنا إلى ملابسات القضية وظروفها.

(٢)

لقد بدأت (جريمة العصر) بعد أن سمح الاتحاد السوفييتى بهذه الهجرة، وشارك فيها بوجوه شتى أطراف أخرى كثيرة..

ولهذا قصة لابد من الإشارة إليها.

كانت قد بدأت رحلة اليهود السوفييت إلى إسرائيل بعد أن سمح الاتحاد السوفييتى بهذه الهجرة، وشارك فى هذا الرئيس الأمريكى بوش.

والواقع أن الدور الأمريكى كان واضحاً وراء هذه الهجرة.

بل سعت الولايات المتحدة إلى استخدام القضية للتشهير بالسياسة السوفييتية واتهامها بانتهاك حقوق الإنسان، وزاد ذلك خاصة بعد مجئ جورباتشوف إلى الحكم.

وتحت هذه الضغوط اضطرت موسكو إلى منح اليهود - بالفعل - حق مغادرة الأرض السوفييتية بشكل منظم منذ البداية، ثم عادت فى مطلع عام ١٩٩٠ لتسقط كافة الحواجز أمام الهجرة ،فظهرت موجات اليهود المغادرين للأراضى السوفييتية أكثر من ذى قبل، وزادت..

وقد راحت وكالات الأنباء والصحف فى العالم كله تشير إلى هذه الظاهرة الجديدة مما انعكس فى وجدان الإنسان العربى بشكل محزن، وقد كان المثقفون أكثر من تأثر بهذا، وراحوا يوزعون اتهاماتهم ذات اليمين وذات الشمال، وخاصة مع تزايد هذه الموجات. ففى الوقت الذى أقدمت فيه موسكو على إطلاق حرية السفر لليهود انطلاقاً من روح العلانية

والتفكير الجديد غادر الاتحاد السوفييتى فى عـام ١٩٨٩ حـوالى ١٠٢ ألف شخص، أى ٣,٥ مرة أكثر من عام ١٩٨٨، بل إننا فى الأسابيع الأولى من عام ١٩٩٠ بلغ عدد المهاجرين ٨ آلاف شخص، فى حين كان عددهم فى العام السابق يصل إلى ١٢,٨٠٠ شخص.

كـانت هذه الأسـابيع – من بدايات عـام ١٩٩٠ – هى الأسـابيع التى شهدت موجات الهجرة اليهودية وهى تتصاعد.

وهى الأسابيع التى شهدت موجات الألم والإجهاد العصبى تتفاعل فى أعماق أحمد بهاء الدين وتتصاعد إلى أقصاها؛ إلى النقطة التى سقط فيها مريضاً، غير قادر على الفعل النفسى أو الجسدى..

ولنعد مرة أخرى إلى ظاهرة الهجرة كما ترددت فى هذه الفترة..

لقد بادرت الولايات المتحدة الأمريكية التى أسهمت فى زيادة حدة الهجرة إلى إسرائيل، بغلق الأبواب أمام اليهود المهاجرين إليها من موطنهم الأول، وتم ذلك بفرض حصار على النازحين إليها لحساب السفر لإسرائيل.

فإذا كان اليهودى فى السابق يلقى، بمجرد مغادرته الاتحاد السوفييتى، صفة لاجئ، وهذا يعنى حوالى سبعة آلاف دولار إضافة إلى توفير السكن والمساعدات الأخرى، فإن عليه الآن أن يثبت مبررات تخوفه من أنه ببقائه فى الاتحاد السوفيتى سيعرض نفسه لخطر المطاردة، وهو ما ينعكس على إسرائيل، فبعد هذه النقلة الأمريكية الموفقة، يمكنها الآن أن تكون على ثقة بأن اليهود الذين يغادرون موسكون بتأشيرة إسرائيلية لن يفضلوا عليها أى مكان آخر فى أمريكا.

وعلى هذا النحو، ففى حين كانت الأصوات الإسرائيلية – خاصة القوى اليمينية – تثير غضب البلاد العربية، كان الموقف السوفييتى والأمريكى يثير الحفيظة العربية.

خاصة أن موقف الكثير من القوى اليمينية فى دول غرب أوروبا، وفى مقدمتها بريطانيا – كانت لا تخفى شماتتها فى الأقطار العربية بشكل سافر..

وقد كان أكثر ما يثير الوجدان العربى أن هذه الهجرة كانت تصب فى الأرض العربية المحتلة، فى وقت كان اسحق شامير لا يتردد فى القول أن هذه الهجرة إنما تكرس لتكوين إسرائيل الكبرى، مما كان يثير التوتر فى المنطقة كلها..

ورغم التصريحات التى خرجت فى الفترة الأخيرة من الاتحاد السوفييتى بما يؤكد حرص الاتحاد السوفييتى على رفضه لسياسة إسكان اليهود المهاجرين فى الأرض التى تحتلها إسرائيل، فمن الملاحظ أن جميع المثقفين العرب، وفى مقدمتهم المثقفون اليساريون، كانوا يبدون غضبهم الجارف من هذه السياسة، التى لا تشارك فيها قوى الإمبريالية الأمريكية فقط، وإنما القوى السوفيتية الصديقة فى المقام الأول..

ويتحدد هذا الغضب عند دعوى حقوق الإنسان التى يتذرع بها الآن جميع الأطراف، ولا يقصدون منها إلا حقوق الإنسان اليهودى، لا العربى..

وهو ما عبر عنه أحسن تعبير مثقف مثل أحمد بهاء الدين..

(٣)

يتحدد لوم أحمد بهاء الدين، منذ البداية، على العالم كله وليس الاتحاد السوفييتى فقط، فى قضية (حقوق الإنسان)، وقد كنا - نحن - كأقطار عربية كثيرة - نتسابق لنهاجم ما سميناه مع الغرب انعدام حقوق الإنسان فى روسيا، وكان ذلك بقصد لوم الذات قبل لوم الآخرين.

غير أن بهاء الدين لا يلبث أن يقول صراحة بمسئولية الاتحاد السوفييتى ويترك مساحة (اليوميات) لأكثر من مرة لتأكيد ذلك، فالاتحاد السوفييتى ليس بريئاً من ذلك، صحيح أنه لم يساوم لصالحه فى ذلك، غير أن هذا لا يقلل من مسئوليته، إذ راح يخلط بين حقوق الإنسان، وهجرة هذا الإنسان إلى أرض أخرى تغتال فيها الحقوق.

«إن الاتحاد السوفييتى مسئول مسئولية كاملة عن هذه الجريمة النكراء والتى ترتكب فى حق الشعب الفلسطينى المغلوب على أمره». (يوميات ١ فبراير ١٩٩٠).

إن روسيا تقول إنها ضد توطين مهاجرين منها إلى الضفة الغربية وأنها - وهنا يشدد الكاتب بسخرية لاذعة - «وقد اعتنقت المفهوم الأمريكى لحقوق الإنسان لم تعد تملك شيئاً، ولكنها ضد توطينهم بالضفة الغربية.. (و) المهاجرون الروس هل سترسل روسيا جنوداً يراقبون من يسكن فى الضفة الغربية رأساً؟ ومن يسكن فى إسرائيل مكان مهاجر سابق يذهب للضفة الغربية.. كلام فارغ». (٣ فبراير).

غير أن الهجوم الأكبر تركز ضد الولايات المتحدة الأمريكية، فبعد ترديد

وكالات الأنباء مسئولية أمريكا فى هذه الهجرة وخطورتها، فإن واشنطن تذيع على لسان المتحدث الرسمى للبيت الأبيض أن أمريكا لا توافق على توطين المهاجرين اليهود فى الضفة الغربية بعد ضغطها لسنوات على روسيا للسماح بهذه الهجرة تحت شعار حقوق الإنسان.

إن أحمد بهاء يعقب على إعلان واشنطن أنها ترفض أن تنفق مساعداتها لإسرائيل على المشروع، فيقول:

«الذى رفضته أمريكا تحديدًا أن تعتمد ميزانية جديدة لهذا الغرض بالذات.

أما الحديث عن عدم استخدام المساعدات الأمريكية الهائلة لإسرائيل فى هذا المجال، فهو حديث مضحك حقًا..

إن أنواع المساعدات الأمريكية متعددة ومتنوعة بدرجة يصعب حصرها.

سلاح ومال ومشروعات وشراء من إسرائيل وأبواب خاصة بها لتبيع فى أمريكا ، وإعفاءات من الضرائب، إلى آخره،

فهى مساعدات تدخل إلى إسرائيل من الأبواب ومن الشبابيك ومن عقب الباب ومن كل مدخل،

ومهما قيل فى تخصيص هذا المال لذلك الغرض، فكيف يمكن الرقابة.. وهل سيوجد حارس أمريكى على كل منفذ للصرف فى إسرائيل؟..

وإذا كانت أمريكا تساعد إسرائيل بالسلاح والطعام والتجارة والمنح والقروض والتبرعات الخاصة.. أليس منطقيا وطبيعيا أن تحول إسرائيل من هذا كله ما تنفقه تحت عشرات المسميات على إسكان اليهود الجدد فى الضفة الغربية ؟.

....

أليس لهذا الخبث السياسى من آخر؟ (٢٨ يناير ١٩٩٠).

وهو يصل من ذلك كله أن الدولتين الكبار فى حالة تواطؤ أكيد، بحجة حقوق الإنسان، وهذا التعبير (حقوق الإنسان) إنما يحمل فى هذا العصر دلالة مغايرة لما نعرفه عنه، فهو يعكس وضع حقوق الإنسان اليهودى فى مرتبة مقدمة، وحقوق الإنسان الفلسطينى فى مرتبة متدنية، فهو استخدام لحقوق الإنسان كسلاح ضد حقوق الإنسان.

وكما أنه لم يبرىء الروس أو الأمريكيين من ذلك. كذلك لم يبرئ الإنجليز إذ كانت تاتشر فى هذا الوقت تعلن عن معارضتها لتوطين اليهود السوفييت فى الأراضى المحتلة، وتغرينا لهجة الغضب والسخرية المرة من رئيسة وزراء بريطانيا أن نجتزئ هنا هذه الفقرة الطويلة فى يوميته الأخيرة.

يقول:

«يجب أن نوجه الشكر إلى مسز تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا، فهى بوصفها رئيسة وزراء انجلترا أولا، وبوصفها

خليفة لورد «بلفور» صاحب الوعد المشهور بإقامة «وطن قومى» لليهود فى فلسطين، وليس دولة، وإن كان «وايزمان الأول» زعيم الحركة الصهيونية وقتها حين قال له أنصاره إنهم يريدون دولة وليس مجرد وطن قومى، قال إن كل لبيب يجب أن يقرأ «وطن قومى» على أنها دولة فى الوقت المناسب.

ولأنها رئيسة وزراء انجلترا التى قامت - أى انجلترا - لا تاتشر - قامت بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، حتى سلمت فلسطين لليهود..

بكل هذه الصفات، والحيثيات، يجب أن نشكر مسز تاتشر لأنها بكل هذه الصفات والحيثيات رأت أن الأمر زاد عن حده، لأنها أعربت عن معارضتها لتوطين اليهود السوفييت فى الأراضى المحتلة، وقالت إن الغرب عمل جاهدًا من أجل تحقيق هجرة اليهود السوفييت من الاتحاد السوفييتى، ولكنه سيكون من غير العدل إلى حد بعيد أن تتحقق حرية اليهود السوفييت على حساب حقوق الفلسطينيين».. (٢٢ فبراير ١٩٩٠).

لم يتوقف الكاتب عند الإدانة وكشف المواقف، وإنما بدا أكثر إيجابية حين حاول أن يزجر الكاتب المصرى (الجالس القرفصاء) لينهض، ويجاوز التعبير النقدى إلى التعبير الفعلى..

وهنا تصاعد هذا التعبير رويداً رويداً..

لقد راح - عبر يومياته - يدعو المثقفين إلى تدعيم الانتفاضة بمبالغ كبيرة تشد من أزر أصحابها..

وراح يشير بأسى شديد إلى ما يحدث فى لبنان كانعكاس محزن لهذا الواقع العربى الذى أدى- ضمن ما أدى - إلى هذه الهجرة..

وراح يعيد - لأكثر من مرة - أن ما يحدث الآن من الهجرة لا يزيد من قوة إسرائيل وحسب بقدر ما يزيد من عنجهيتها، ومن ثم، عدم استقرار المنطقة، بل وينسف أى أمل فى المستقبل للاستقرار، فما يحدث الآن، من فهم حقوق الإنسان من جانب واحد إنما يدفع بالمنطقة إلى حالة من الفوضى يصعب التنبؤ بها بما ستؤدى إليه، وهو ما يجب معه ألا نضعف أو نسكت عن الكفاح مهما كانوا مستكبرين ومهما كنا مستضعفين.

بيد أن التعبير وصل إلى أقصاه، حين انطلق الكاتب المصرى - بالفعل - ليحول التعبير إلى واقع عملى شديد الوعى بما يحدث، مترجماً ذلك الواقع إلى «الوعى الممكن»، فانطلق يدعو المثقفين إلى اتخاذ موقف عملى أكثر من اللوم والشّجب، فشغل منذ منتصف فبراير وربما قبل ذلك بقليل بصيغة (بيان) دعا إليه القوى الوطنية، ويسجل جميع الوطنيين المخلصين مواقفهم من هذه الهجرة.

وبالفعل انتهت جهوده الحثيثة إلى صيغة (لبيان) اختار له عنوان (جريمة العصر فى ضمير التاريخ وفى طيات المستقبل) واستجاب له أحد المواطنين العرب فى الكويت، فقام بدفع تكاليف نشره (كبيان) فى جريدة

(الأخبار) فى ٢٥ فبراير.

ويلاحظ على هذا (البيان) أنه وقع عليه عدد كبير جداً من الوطنيين المصريين ومن شتى التيارات الفكرية .. والحزبية.

كما انتمى هؤلاء إلى شتى المؤسسات الرسمية وغير الرسمية فى الدولة..

كذلك، يلاحظ أنه انتمى إليه عديداً من المثقفين من شتى الأجيال التى عرفتها مصر منذ الأربعينات حتى اليوم..

لقد استطاع أن يؤلف أحمد بهاء الدين بين صلاح حافظ ومأمون الهضيبى، كما استطاع أن يؤلف بين أحمد حمروش وثروت أباظة..

وقد كان من الغريب أن نقرأ مثل هذه الأسماء متجاورة فى (بيان) واحد، وعلى سبيل المثال : إبراهيم بدران، إبراهيم سعد الدين، السيد يس، الفريد فرج، جلال أمين، حلمى التونى، سعيد سنبل، سناء البيسى، عادل إمام، عادل حسين، فاتن حمامة، فيليب جلاب، كمال الطويل، ليلى تكلا، محمد إبراهيم كامل، محمود السعدنى، ميلاد حنا، يوسف إدريس..

وتتعدد الأسماء لتصل إلى قرابة تسعين اسماً، تتباين الانتماءات وتتعدد، لكنها تتحدد عند (الموقف) الواحد..

وهو موقف وصل بأحمد بهاء الدين إلى حالة من الإعياء الشديد إلى درجة السقوط فى صراع مع المرض الطويل..

ومن الصواب أن ننشر هنا (البيان) كاملاً مدبجاً (بتصحيح) بعض

العبارات بخط أحمد بهاء الدين نفسه،

تقول صيغة البيان:

جريمة العصر
فى ضمير التاريخ وفى طيات المستقبل

نحن أبناء الأمة العربية فى طليعة المنادين بحقوق الإنسان، ليس لأن حقوق الإنسان جاءت، أول ما جاءت،

فى بلادنا عبر الأديان السماوية فحسب، ولكن لأن المظلومين هم عادة أول

المطالبين بحقوق الإنسان وأخلصهم، ونحن فى هذا العصر مظلومون.

إن من أول حقوق الإنسان حقه فى أن يرحل إلى حيث يريد، وأن يعيش حيث يريد،

وما تاريخ الدنيا إلى هجرات عمرت أرجاء الأرض، مكتشفة قارات جديدة بأكملها، ولقد كانت

الهجرة دائماً عفوية اختيارية غير منظمة، خالية من أى نية غزو أو عدوان، ولكن تهجير

مـئـات الألوف من اليـهـود السـوفـيـيت لا يندرج فى هذا الإطار، فـهـذه أول مـرة فى التـاريخ يتم التـهـجـير بتـواطؤ دولى، وعلى يد الأقـوياء، واغـتـصـاب لأرض الآخـرين، وعدوانًا ومحوًا لحقوق

الإنسان الفلسطينى فى أرضه الأصلية، فحق الإنسان لم يقترن أبدًا بإجراءت ترغمه على

الذهاب إلى مكان معين، وليس سرًا أن المهاجر اليهودى السوفييتى يريد أن يذهب أساسًا

إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها من دول الغرب، بينما كافة الإجراءات اتخذت

لكى ترغم المهـاجـرين على الذهاب رأسًا من الاتحـاد السوفييتى إلى إسرائيل، دون توقف فى

مكان يقررون فيه بملء حريتهم إلى أين يريدون الذاهب، كما كان يحدث من قبل.

إنها عملية غزو متكاملة أركان الغزو، وإذا كانت أسلحة القتال لم تستخدم فيها، فإن

المستخدم فيها هو أسلحة القدرات المادية الطاغية الأخرى من مال غزير وطائرات كثيرة

وسطوة دولية بغير حدود، هدفها الأساسى طرد العرب من

أراض لهم، لا تصل مساحتها إلى

واحد من المئة من أراضى الدولتين الأكبر، يسكنها ثلاثة ملايين مواطن، وذلك فى عملية

إجبارية تفرض عليهم من دولتين بهما أكثر من خمسمائة مليون مواطن، لاقتلاعهم اقتلاعاً

ومحوهم محوًا، ولانتزاع أرض مقدسة، ولد فيها أنبياء من شتى الأديان، من ذاكرة البشرية

جمعاء، استنادًا إلى أسطورة فى غياهب التاريخ عن وعد بين اله وبين شعب مختار، منحه بمقتضاه قلب الدنيا، ما بين النيل و الفرات، وإلى كذبة غاشمة عن «أرض بلا سكان».

والأخطر من هذا كله أن هذا يجرى فى إطار من الدجل السياسى على مستوى فريد من

حكام العالم المتجبرين وتحت عنوان حقوق الإنسان.

إن الترجمة الصحيحة والوحيدة لحقوق

الإنسان فى هذه القضية هى الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة على أرضه، وحق اليهودى السوفيتى فى أن يهاجر إلى حيث يشاء.

وما هذا البيان إلا لتسجيل الجريمة فى ضمير التاريخ،

ولتأكيد أن ما يرتكبه المستكبرون فى حق المستضعفين فى صفحة من صفحات التاريخ سوف ينقلب عليهم ذات يوم فى صفحة أخرى من صفحاته الكثيرة.

* * *

والبيان لا يحتاج إلى تعليق..

فإذا جاز لنا أن نعيد النظر إليه، فى ظروف عصره، لرأينا أنه يتحدث عن هجرة اليهود من أوكرانيا إلى القدس حيث (المستضعفين) أمام هذا الغزو الكامل لنا، فى عالم كان واقعه يشى بما سوف نصل فيه فى نيران (عاصفة الصحراء).

البيان يتحدث عن (المستضعفين)، بيد أنه لا يخفى - ضمناً - حالة أولئك المتخاذلين فى هذا الشتات العربى التعس.

وهو ما دفع ثمناً له فادحاً صحياً وعصبياً..

ثانياً

جريمة العصر

«بهاء..
ما الذى منعك أن تقاوم
طارئ المرض الذى ألم بك ؟»
(محمد حسنين هيكل)
«دفعت ثمناً صحياً وعصبياً»
«بأى وجه نلقى العالم..
وبأى وجه نقاوم التآمر علينا»

«دفعت ثمنَ صحياً وعصبياً..»

هذه هى الحالة التى وجد نفسه فيها عشية اقتراف (جريمة العصر) إبان هجرة اليهود السوفييت إلى الأراضى العربية.

لقد كان أحمد بهاء الدين نموذجاً فريداً للمثقف العربى الذى لا يستطيع وجدانه تحمل وطأة الحاضر القاسى، أو يفهم طبيعة هذه العلاقة فسقط صريع المرض، لم يستطع أن يصدق هول ما يحدث حوله إبان تبدل التحالفات الدولية وتغيير كثير من المواقف العالمية، فسقط فى الفترة الأخيرة من الثمانينات أسير القلق الدائم وأعراض المرض وأطياق الكآبة، ولم يجد طريقاً واحدة للخلاص مما هو فيه فى وجود واقع عربى ردئ.

لم يعثر على راحة أو طمأنينة فى وجود عدو خارجى يعمل حثيثاً لتنفيذ

مخططه الاستيطانى، وداخلى لا يريد التنبه إلى ما يحدثه حوله:

«كيف والصحف لا تتحدث إلا عن قتال بيروت وقتال فى طرابلس ولبنان، وقتال فى حماة بسوريا، وقتال بين العراق وإيران.. وقتال على الحدود الجزائرية المغربية». (يوميات ٦ مارس١٩٨٣).

ولم يكن من المصادفة أن يصاب أحمد بهاء الدين بضغط عال عقب انفصال الوحدة بين سوريا ومصر ١٩٦١.

أو يصاب بمرض السكر عقب هزيمة ١٩٦٧.

أو يصاب بنزيف المخ وبفقدان الوعى إبان جريمة هجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين، وقبل الأحداث الدامية فى الخليج قبل غزو العراق للكويت بعدة أشهرفقط . فبراير ١٩٩٠.

لقد اختفى الخاص فى العام، أو تداخلت الذات فى قضية الهم العربى بحيث كان من الصعب التفرقة بينهما.

وأصبح الشعور الذاتى والحس القومى لديه أشبه بنظرية الأوانى المستطرقة، إذ يتساوى السائل فى الطرفين بقدر واحد وفى وقت واحد.

ونستطيع فى ضوء ذلك مراجعة مواقفه القومية كلها إبان عقد الستينات - عقدالهزائم - مروراً بعقد التمزق العربى فى الثمانينات وصولاً إلى عقد المحاور الزائفة والأحلام الخائبة فى الثمانينات..

فلنتمهل أكثر عند انعكاس هذا الواقع على وجدان المثقف العربى قبل أن نعود إلى آثاره المباشرة.

(٢)

كانت الخلافات الأيديولوجية قائمة بين الأقطار العربية، ولم تنته المبادرات الوهمية.

وكانت الخلافات بين النخب السياسية كامنة، ولم تنفها سياسة (تبويس اللحى) بين الحكام.

ثم كانت الخلافات بين الثروة والثورة دائمة لا ينفيها الخطر الخارجى المتربص بالجميع.

ولم ينقص هذا المشهد سياسة الدول الغربية التى لم تتوقف عن إلقاء المياه فى طاحونة الخلافات، أوخلق الحدود واستثمارها فى عصر ما بعد الاستعمار التقليدى، لا يختلف فى هذا إنجليز عبدالكريم قاسم فى عام ١٩٦١ أو أمريكان صدام حسين فى عام ١٩٩٠.

كان المثقف العربى يحيا كل هذه التناقضات حائراً.

فقد تعدى الأمر الخلاف التقليدى - كما كرر ملاحظته - من مرحلة التمزق السياسى إلى التمزق المسلح.

وأصبحنا نستبدل سياسة قطع العلاقات بسياسة قطع الأمل من حوار قائم على التفاهم إلى حوار قائم على قطاع الرقاب.

لقد استمر هذا الواقع العربى لنصف قرن أو يزيد.

وأصبح المثقف العربى (تشخيصاً) لهذا الواقع وتعبيراً عنه..

مر المثقف العربى بفترات طويلة حاول فيها التغيير والإصلاح،

مر بمرحلة فقدان الأمل إلى فقدان الوعى إلى القصور الذاتى..

ونستطيع أن نراجع مصائر المثقفين فى النصف قرن الأخير لنرى - بسرعة - كيف تحول المثقف العربى من متمرد إلى متردد إلى مبرر وضحية فى نهاية الأمر..

الجيل السابق من المثقفين العرب سقط - فى أغلبه - فى أحابيل الأمراض العصرية، وليس المرض العضوى غير وسيلة للتعبير عن موقف.
إن محمد مندور يسقط بنوبة قلبية ولم يكن قد تعدى الخامسة والخمسين.

وأنور المعداوى بانفجار فى المخ وموت مبكر ولم يكمل الخامسة والأربعين.

ورمسيس يونان لقى مصيره فجأة بعد معاناة طويلة لإثبات الذات.

ومحمد الخفيف وفؤاد كامل سقطا بنوبات القلب.

ثم جاء الجيل التالى لنرى تحول أمراض العصر إلى علل ذهنية:

نقل إسماعيل المهدى من المعتقل إلى مستشفى العقلية ، إلى القبر،

وشوهد نجيب سرور ينظم المرور فى إحدى إشارات مدينة الإسكندرية.

ومثل هذا المصير لقى صلاح جاهين ويوسف إدريس ومحمود دياب

وصلاح عبدالصبور.

بدت النهايات عضوية أونفسية، غير أن الخلل العقلي – في الغالب – هو الذي حدد المصير الطبيعي لهم.

ونفتح عين العدسة إلى نهاياتها لنعاود مصائر مثقفين عرب كثيرين في الأقطار العربية لم تختلف نهاياتهم عن هذه النهايات وإن اتخذت أحياناً شكلاً نفسياً أو عضوياً:

غسان كنفاني بمرض السكر، وتيسير سبول بهزيمة ٦٧،

وخليل حاوي الذي رفض رؤية الدبابات الإسرائيلية في شوارع بيروت، فآثر أن يلقى مصيره بيده هو.

ثم جاء دور ناجي العلي وعزيز جاسم. وغيرهما..

ويبدو أن ثمة علاقة أكيدة بين نهاية كل من ناجي العلي وأحمد بهاء الدين، إذ أن الأحداث تشير إلى أن الأول قتل في إحدى شوارع لندن، في حين أن أحد التقارير الطبية الصادرة في لندن تقول غير ذلك: إن ناجي العلي مات بسكتة قلبية، قبل أن تصل الرصاصة إلى الرأس وهي تتجه إلى الدماغ بأعشار قليلة من الثانية، إذا ما قسمت الثانية إلى مائة عشر.. أمن ناجي العلي، فيما يبدو، فإنه اختار هذا المصير..

هل رفض ناجي العيش في هذا الواقع العربي وهزله؟

نجيب عن هذا السؤال حين نصل إلى أحمد بهاء الدين..

تشير التقارير الطبية إلى أن أحمد بهاء الدين وصل في نقطة معينة من

تهرؤ هذا الواقع العربى ورداءته إلى اختيار عدم الوعى».

لقد فقد الوعى تماماً والسبب كان - بشهادة طبيب القلب المعالج له د/ محمد عطية. نزيف فى المخ، انتهى به إلى حالة من شلل فى الحركة وخاصة في جانبه الأيسر.

لقد كان ذلك فى الظاهر مرجعه إلى الإرهاق العصبى والنفسى الشديدين إبان ارتفاع المد العالى لهجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين إبان تفكك الاتحاد السوفييتى فى نهاية الثمانينات،

أما حقيقته، فقد كان يحمل آلاماً مبرحة - إكلينيكية ونفسية - لسنوات طويلة خلت من قبل..

وهنا، يعاود السؤال مرة أخرى على شكل إجابة:

هل رفض بهاء العيش فى هذا الواقع العربى وهزله؟

فلنحاول الاقتراب أكثر من هذا السؤال / الإجابة.

(٣)

فى الحقبة الأخيرة من الثمانينات كان السهم الأحمر يصل إلى غايته بهجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين.

كان اليسار العريض منذ فترة مبكرة فى مصر يضع آمالاً عريضة على الاتحاد السوفييتى فى مواجهة خطر الاستعمار الغربى - والأمريكى بوجه خاص - إذ كان يمثل فى الحرب الباردة القوى المناصرة لحركات العالم

الثالث.

كذلك كان موقف الاتحاد السوفييتى على المستوى الاقتصادى هاماً لإنجاز الكثير من المشروعات الصناعية والإنمائية.

وهو ما اتفق حوله القوميون العرب واليسار بجميع فئاتهم.

غير أن مضى الأحداث فى نهاية الثمانينات أشار إلى تخلخل هذا الدور وتراجعه.

وقد كان أحمد بهاء الدين مرتبطاً، وإن يكن بشكل غير مباشر، بالقومية العربية وحزب البعث السورى فى فترة من الفترات، وهو ما اتسق مع موقفه من الاتحاد السوفييتى المؤيد لكثير من الحريات فى الوطن العربى..

وبقدر ما كان دور الاتحاد السوفييتى باعثاً على الثورة ضد الغرب الاستعمارى بقدر ما كانت صدمته فى تخليه عن هذا الدور، إذ رضخ للولايات المتحدة الأمريكية فى عملية تسهيل هجرة اليهود السوفييت لإقامة «إسرائيل الكبرى»، مما أطلق معه بهاء الدين على بشاعة الظاهرة (جريمة العصر)...

وقد انعكس موقف بهاء الدين – ضمن شريحة من القوميين العرب – فى هذا الغضب وتلك الحيرة التى واجه بها هذه الهجرة، فى حين كان غائباً عما يجرى ضده، وهو ما عبر عنه بجملة ترددت كثيراً فى كتاباته فى الشهر الذى سقط فيه، كان يقول دائماً:

بأى وجه نلقى العالم وبأى وجه نقاوم التآمر علينا. (ى ٥/٢/١٩٩٠).

ولأنه لم يستطع تصديق ما يجرى لضراوته، سقط مريضاً...

كان الموقف – بتراكماته الطويلة السابقة – أعلى من منطقه..

وهنا، يأتى دور التفسير الطبى.

ويتعدد شهود العيان لهذه الفترة الأخيرة.

يفسر د. عطية – طبيبه الخاص – ما جرى بأنه يعود إلى الإنفعالات النفسية الحادة والمستمرة التى عرفها بهاء الدين لسنوات طويلة،

لقد أفرزت مواداً منشطة فى الجهاز السمبثاوى Sympathotic، فمع تقلصات هذا العصب، وتوتره المستمر مع توالى الأحداث العنيفة والانفعالات المتوالية حدثت تفاقمات سلبية فى الشرايين التاجية، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بهاء الدين كان مصاباً – منذ الستينات – بارتفاع حاد فى الضغط والسكر، يسهل تفسير الحالة التى انتهى إليها، وهى حالة نزيف المخ المفاجئ فى ظهر أحد أيام الجمع الحزينة – ٢٣ فبراير ١٩٩٠ – وأصبحنا أمام تفسير إكلينكى محدد هو انفجار فى شرايين المخ مع تصاعد ارتفاع الضغط وأخطار السكر، وانعكس ذلك كله فى الكلام والتفكير والوعى. (محضر نقاش مع د. محمد عطية ١٩٩٢/٧/١٣).

تؤكد ذلك سكرتيرة مكتبه فى اليوم السابق مباشرة – الخميس – بأنه وقد عرفنا فيه خفوت الصوت والهدوء الشديد، لم يعد كذلك ، فقد بدا التوتر لديه ينعكس فى لفتاته وحركاته وصوته المرتفع.

سألته: لماذا أنت كذلك؟

فأجاب (مراوغاً): «لأن زياد ابنى مسافر اليوم».

كان الإرهاق المستمر ليوقع على البيان أكبر عدد من المثقفين والمسئولين المصريين، قد وصل إلى مداه، وكان الكثير من أولئك يصمتون فى تأدب حتى يقرأ لهم البيان - غالباً ما يكون فى التليفون - ثم يبدأون فى المراوغة كيلا يوقعون.

اصطدام المثقف فى كثير من أصدقائه وزملائه، أو بالأحرى اصطدامه بمواقفهم الغريبة عليه.

ذهب بهاء الدين فى هذا اليوم - مسرعاً - إلى لقاء كان محدداً سلفاً مع السفير الأمريكى، ليعود إلى منزله مجهداً، ليصبح فى اليوم التالى وقدنال منه الإعياء مداه..

وهنا تبدأ شهادة زوجته.

لقد لاحظت - تؤكد - أن الشهر الأخير كان أسوأ شهر فى حياته على الإطلاق.

كان دائم التفكير فى البيان.

دائب السؤال عن أصدقائه.

دائم التوتر لكتابة يومياته حول (جريمة العصر) وهو من صك لأول مرة هذا المصطلح.

كنت أراقبه وهو يعمل بجد ودأب وهو يحمل ثقل أمراض كثيرة:

- ارتفاع الضغط

- زيادة نسبة السكر

- القصور فى الدورة الدموية

- جلطة فى القلب (يشير ملفه الطبى أيضاً إلى ضعف القلب)

- التهابات رؤية.

ويشير طبيبه المصرى ونظيره الإنجليزى بعد نزيف المخ إلى أنه لم يعد ليستطيع التحكم فى أعضائه أو تركيزه الذهنى أو وعيه بشكل عام، فسقط فى غيبوبة لم يخرجه منها أحد خارج الذات.

يقول طبيب القلب. كان أحمد بهاء الدين أكثر مرضاى هدوءاً، لكنه - على العكس من مظهره الخارجى - كان بركاناً داخلياً بفعل الأحداث العربية المؤسية التى كنا نعيشها جميعاً.

ونعود إلى شهادة الزوجة صبيحة الجمعة الحزين:

استيقظنا صباحاً على صوته المتهدج وهو يعانى من حرارة مرتفعة جداً عن القدر الطبيعى، صحب ذلك ارتفاع مخيف فى الضغط واضطرابات فى القلب،

اعتقدنا جميعاً أنها نزلة (برد) اتصلت بأحد أقسام الطوارئ بالمستشفى، جاء طبيب اختصاصى لا يعرف بهاء، بعد الكشف عليه اعتقد هو أيضاً أنه مصاب بنزلة برد، كانت حالته الصحية تتصل بحالته النفسية السيئة طيلة الشهر الأخير، بناء على تشخيصه غير الصحيح قام بحقنه ضد البرد، ساعد ذلك فى الوصول بحالة الضغط إلى أقصاها واقترن بنزيف المخ.

نظرت إلى وجهه، أدركت - في حالة الإغماء وبوادر الشلل الذى ظهر على وجهه - أن ثمة أمر غير طبيعي يمر به، استدعيت أكثر من صديق له، نقلناه إلى المستشفى، انتقل إلى أكثر من مستشفى فى القاهرة وخارجها ولم تتحسن حالته، لم يعد يتحرك كثيراً، فقد القدرة على الحركة والوعى.

هل رفض العيش فى هذا العالم فراح إلى هذا المصير؟

تكمل شقيقته:

لم أر بهاء بهذا الغضب وتلك العصبية إلا هذا الشهر الذى سبق إصابته، كان دائم الحديث عن (الجريمة، جريمة العصر)، وكان المجهود المضنى الذى يبذله مرسوماً على خطوط وجهه، لم يكن ليطيق أن يتحدث أحد معه خارج هذا الموضوع، كان دائم الشرود، والصمت، والشكوى من أقرب أصدقائه الذين - كما ردد - رفضوا التوقيع على البيان الذى يدين الموقف السوفييتى والأمريكى والإسرائيلى.. كان حزيناً جداً من الخارج والداخل، من أعدائه وأصدقائه.

يفسر الموقف أكثر اختصاص عالم النفس - د. مصرى حنورة - يضيف:

هناك عامل ينسحب على المثقفين والمفكرين هو ما عرف فى الدراسات الإبداعية - الحديثة باسم الحساسية للمشكلات أو رؤية المشكلات.

بمعنى أن المفكر المبدع هو الذى يستطيع أن يرى العيوب الموجودة حوله، وهو لا يراها فحسب بل إنه يحاول أن يتعمق فى داخلها بشكل أو بآخر، وهو مطالب دائماً بأن يحاول أن يقدمها إلى من يهمه الأمر، سواء

كان قارئاً أو زميلاً أو مسئولاً بالشكل الذى يلفت النظر ويسلط الأضواء ويركز الانتباه، بحيث يكون من السهل على من يتلقى أن يحس نفس الإحساس، وهو موقف ناقد أو على الأقل موقف يحمل رأياً ووجهة نظر.. والقيام بهذا الدور يصحبه انفعال. حيث اتضح لنا فى كثير من الدراسات التجريبية حول الأداء الإبداعى أن أحد أهم العوامل المؤثرة فى مسيرة فعل الإبداع هو البعد الوجدانى بانفعالاته ودوافعه وتهويماته وعشقه و رفضه وقبوله.. إلخ. بحيث أن المبدع فى لحظة الكتابة يكون واقعاً تحت تأثير قوى متباينة، بل بعض المبدعين والمثقفين ذكروا أنهم لا يستطيعون الخلاص من لحظة الانفعال الحادة لفترات طويلة.

وينطبق هذا على أحمد بهاء الدين، فمن المعروف أنه كان شديد الإخلاص للقضايا العربية، إذ يتعرض للدفاع عنها بجدية بالغة وصرامة وانفعال ، فحين يتعرض لقضية من هذه القضايا كان يتعرض لها بكليته، إذ كان مخلصاً شديد الإخلاص لهذا النوع من القضايا.

وقد كانت مسألة هجرة اليهود – تحديداً – من القضايا التى أصابته بالهلع والذعر الشديدين، إذ كان ذلك قد أورثه ألماً نفسياً مرجعه أنه كان يعتقد بأن الاتحاد السوفييتى (سابقاً) لا يمكن أن يضحى بصداقة الفلسطينيين، بل العرب قاطبة، وهو الأمر الذى كان سيجعله حذراً فى السماح لليهود السوفييت بالهجرة لفلسطين، وبالتالى، حين سمحت ظروف دولية كثيرة لهذه الهجرة اهتز بهاء من أعماقه، وزاد من هذه الحالة موقف الكثيرين حوله، وقد أدى هذا الاهتزاز فى الإطار المرحلى المنظم لسلوكه الموجه لأفكاره، وبذلك سقط صريع القضية العربية وأصحابها.

(محضر نقاش مع د. مصرى حنورة رئيس قسم علم النفس بجامعة المنيا)

واختار أن يفقد الوعى خيراً من العيش فى هذا الحاضر العربى الردئ.

(٤)

تشخيص حالة بهاء الدين، إذن، لا تعود فقط إلى حرية هجرة اليهود السوفييت فحسب، وإنما «فضلاً عن غضبه من المثقفين حوله» ... من أبعد نقطة وعى لمس خلالها حجم الأخطار التى تحيق بالمشروع العربى إبان تحرره من ربقة الاستعمار فى النصف الأول من هذا القرن، خاصة فى أربعيناته، وقد تمثلت تراكماته الآن فى (جريمة العصر) – هجرة اليهود السوفييت – حيث الخطر الغربى – اليهودى يحدث بأمة يغفل أبناؤها عن السلاح الحضارى والاقتصادى فى المعركة.

لقد عاش المثقف العربى هنا لحظات ألم كثيرة طيلة هذه الفترة التى امتدت إلى ما قبل نصف قرن من الزمان، ومن ثم، فإن آثار دواعى الهزيمة المتكررة على الوجدان المثقف أسلمه إلى حالة من عدم التصديق، أسلمته إلى هذا الشعور بهول ما يحدث، فمر وقت طويل – كما يقول – قبل أن يجتاح نفسى ذلك الحزن العميق الأسود، (المساء ٥/١٠/١٩٨٣)، وهو الحزن المتراكم الثقيل الذى عرفه ولم يستطع أن يستوعبه فراح فى إغماءة طويلة قبل عدة أشهر من حرب الخليج الثانية ٩٠/٩١، وكأنه آثر اللاشعور – هذه الغيبوبة، كيلا يحيا الغيبوبة الخارجية الدامية حوله.

لم يكن ليختلف الأمر كثيراً أن يعلم شيئاً أو أشياء عن هذه الكارثة، فقد

كانت بداياتها بحكم حاسة التنبؤ التى تمتع بها تتراءى فى مخيلته فى بداية الستينات حين سعى عراق قاسم إلى التهديد بالغزو للكويت، لكن حجم الكارثة وقسوتها هو ما كان يخشاه، لقد قال بهاء الدين قبل ذلك بقرابة ثلاثين عاماً (أخبار اليوم ١٥/٧/١٩٦١)، كلام مثل هذا..

كتب يقول:

«إن المواطنين العرب فى هذه البلاد الشاسعة - الخليج، سوف يواجهون كثيراً من الامتحانات القاسية، أو سوف يصادفون أنواعاً كثيرة من البلبلة، ولذلك،، من المهم إبقاء حقيقة أن القومية العربية فكرة لا تقبل منطق الضم.. ولا تقيد نفسها بالمعاهدات والقرارات التاريخية الدولية».

أى حس عروبى حى عبر عنه هذا المثقف العربى من هذا الوقت البعيد.

ويحكى محمد حسنين هيكل أنه فى أحد الزيارات الأخيرة لأحمد بهاء الدين، وقد حملون أمام التليفزيون إبان أزمة الخليج، وحاول أن يفسر ما يحدث حوله مهمهماً (هو فيه إيه) وحين أبلغون فى جملة واحدة تفاصيل ما حدث قال منفعلاً «ليه.. ليه» ثم تنساب دموعه. وظل السؤال حائراً على لسانه، والدموع جارية من عينيه. (يوميات هذا الزمان، محمد حسنين هيكل).

وقبل أن يترك هيكل بهاء راح يسأل بأسى:

«بهاء، ما الذى منعك أن تقاوم طارئ المرض الذين ألم بك ؟».

وكانت الإجابة التى تتمثل فى (حالة) بهاء الدين، هى أنه رفض واقع هذا الحاضر العربى، وعرف ما سوف يتمخض عنه، ولذلك، فقد آثر هذا المصير الذى انتهى إليه، الغياب عن الزمن العربى.

وهو غياب اختاره – كناجى العلى من قبله – بمحض إرادته.

* * *

وظل غائباً عن الوعى من شتاء ١٩٩٠ حتى رحل وسكن الجسد تماماً فى صيف ١٩٩٦.

وثـــــائـق

١ - شهادة أحمد بهاء الدين.

٢ - خطاب أحمد بهاء الدين إلى أنور السادات.

٣ - حكم محكمة ضد أحمد بهاء فى ٢٦/٤/١٩٨٣.

٤- رسالة جبهة النضال الفلسطينى.

٥ - صورة من بيان جريمة العصر.

١ - شهادة أحمد بهاء الدين

** يلاحظ أن ثورة ١٩٥٢ فى أول قيامـها اهتـمت بالعـمال والفلاحين أكثر من المثقفين.. لماذا؟

- علاقة الثورة بالمثقفين حكاية محزنة ومؤلمة..

فـحين قـامت الثـورة، ومنذ الأيام الأولى، حـاولت الاتـصـال بالمثقفين، غير أن المناخ كان مشوباً بالضباب، وهو ما أفسد ذلك الاتـصـال، ويمكن أن ألخص هذا الواقع الجـديد بأمـرين اثنين:

الأمر الأول:

كان جـمهور المثـقـفين، وأنا منهم، لا يعرف أحـداً من أولئك الضباط الجدد الذين قاموا بالثورة..

كنا نلتقى بعديد من الضباط فى اجتماعاتنا قبل الثورة.

ولـم يكن ليطرأ علـى ذهنـى فـى هذا الـوقت المبـكر - طيلة الأربعينات - أن أولئك الضـباط يمكن أن يكونوا فاعلين فيما بعد..

لم أكن - قبل الثورة - أطرح حتى هذا السؤال:

من هؤلاء؟

وكان تفسير ذلك، هو أنه كان من الصعب على الإنسان أن يسهل قيادة بسهولة لأناس لا يعرف تاريخهم..

وقد كان الاستنتاج الأرجح حين قاموا بالثورة، هو، التفسير الوحيد أن أولئك الضباط هم «كولونيلات» مثل أولئك المعروفين في أمريكا اللاتينية، وكانوا كثيرين في ذلك الوقت، وكانت وجوههم المعروفة لنا حينئذ تتمثل - في الشرق - في حسني الزعيم والحناوي والشيشكلي.. وغيرهم..

وكان البعض الآخر منا يرى أن الضباط الجدد ليسوا ضباط - زيادة في التأكيد - جاءت بهم أمريكا التي كانت تتأهب لمثل ذلك الدور.

كانت تحوطنا - كمثقفين - الشكوك في حين لاحظنا أن حولهم يتقرب عدد كبير من الوصوليين والانتهازيين، واليمينيين.

لقد التفت حول الثورة أول قيامها أعداد كبيرة من الشخصيات السياسية القديمة ومن المثقفين الذين لا يتمتعون - في الغالب - بسمعة طيبة..

لقد تهيأ المثقف المؤيد. الانتهازي، إلى لعب دوره في أول لحظة..

وباختصار، عرف الضباط - لأول مرة - أردأ أنواع الساسة

والمثقفين،

يسعى بعضهم إلى الحصول على المراكز، والبعض الآخر على المال، والبعض الثالث على تصفية حسابات قديمة .. إلخ.

لقد كان رد فعل الضباط الجدد منطقياً حين سألوا:

من هؤلاء؟

هل هم المثقفين بالفعل؟

وماذا يفعلون؟

وهو يقترب بنا من الأمر الآخر.

الأمر الآخر: فإنك لو عدت إلى السنوات الأولى بعد قيام الثورة، قبل أن يتأكد الجانب الاجتماعى، ستجد أن أقطاب اليمين المصرى كانوا هم الذين يؤيدون الثورة..

وقد كانوا أكثر الغلاة – فى الظاهر – فى التحيز لها.

أما نحن المسمون بالتقدميين، المثقفين التقدميين..كنا نطالب بإطلاق الحرية وإطلاق يد الأحزاب وتهيأة المناخ للديموقراطية إلى غير ذلك، وهو ما تجده فى عديد من صحف هذه الفترة، ويمكن العود إلى (روزاليوسف) على سبيل المثال لترى إلى أى حد كانت مطالبنا مباشرة.

أما فى الجانب الآخر، فقد كان اليمين (رجال الملك وبعض

السياسيين والمثقفين والصحفيين.. إلخ) تصوروا أن الثورة جاءت بعد أن فشل الملك فى قمع الحركة الوطنية وتلجيمها (لاحظ أن الثورة جاءت بعد فترتين هامتين: من الحرب العالمية إلى عام ١٩٥٠، ومن عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٢ حين قامت الثورة) .. إذ أن هذه الفترة شهدت فوراناً هائلاً.

لقد كانوا غير معترضين على النظام القديم عقائدياً، وإنما معترضين عليه من أنه فاشل وضعيف وسئ، وجاء الحكم العسكرى ليقبض بيد من حديد على كل شئ، تصوروا أن عبدالناصر (أوليجاركيا) سهل القيادة فأيدوه بكل شدة ..

أما بالنسبة لنا، نحن العديد من المثقفين التقدميين، فقد سعوا إلى تقديم البلاغات ضدنا، ويتهموننا بالتهمة الشائعة السيئة حينئذ من أننا (شيوعيين) ..

أنا – على سبيل المثال – غير شيوعى، وليس لى علاقة بالشيوعية، ومع ذلك، لم يفقدوا حماسهم ضدى، إذ كانت التهمة هى الشئ الذى يهددونا به، وفى الوقت نفسه يكسبون – كما يتصورون – ود الرجال الجدد..

الأكثر من هذا كانوا يحرضون رجال الثورة على ألا يعود البرلمان، كان الغالبية فيهم أعداء الوفد الرسميين.

المثقف الخطأ

هؤلاء هم من أحاط بالثورة، ومثلوا الوجه الخطأ للمثقف..

** تقصد جماعة عبدالرازق السنهورى وسليمان حافظ.. وغيرهم؟

- بالطبع، هؤلاء وغيرهم، ولا أريد تحديد أسماء أكثر، ولمن يريد أن يتعرف على عديد من هذه الأسماء يمكن العود - على سبيل المثال فقط - إلى جريدة (أخبار اليوم) ليرى مصطفى أمين ومدرسته وأبناء اليمين جميعهم.

كانوا يتصورون أن الثورة جاءت لتقمع الناس لكونها ثورة عسكرية، وقد زاد هذا سلوك الثورة عنفاً فى الفترة الأولى خاصة بعد إعدام خميس والبقرى.

وإذن، أحيط بالثورة المثقف الخطأ، هذا المثقف الذى استطاع خداعها ثم الانقلاب عليها، ليسهم فى إخراج الثورة من المسار الثورى الحقيقى.

وبدون الدخول فى ممارسات كثيرة معروفة الآن، فإن الثورة لم تتفق منذ البداية مع المثقفين الذين أيدوها والتقت معهم فى فترة تالية.

وأستطيع أن أقول إن ذلك كله أسهم فى ابتعاد الثورة عن المثقفين المعروفين، المفكرين خاصة، المهمومين بقضايا الوطن، وكان من مظاهر هذا الابتعاد، الاقتراب أكثر من المثقفين التكنوقراط.

لقد بدا أن الانفتاح الكبير مؤكداً بعد التعاون مع الكوادر

العملية من أساتذة الجامعة بوجه خاص.

وأنت تعلم أن المثقف الذى ينتمي للتكنوقراط لا تكون لديه ملكة الفهم والمعارضة والنضج الفكرى مثل غيره.

قبل الثورة كان طريق الاشتغال بالسياسة (بالوزارات) ينبع أساساً من السياسيين (كبار الملاك / المحاميين.. إلخ).

بعد الثورة، لاحظنا التعاون التام مع نوع جديد من المثقفين الفنيين من أمثال عبدالمنعم القيسونى ومصطفى خليل وحجازى..وغيرهم.

لقد استعانت الثورة بأولئك الأخيرين لأنهم غير مسيسين و تتوفر فيهم الكفاءة فيما يريدون من أجله، فى الوقت نفسه، متقبلين العمل مع النظام..

ومع ذلك، يمكن أن نستدرك هنا لنقول إن الثورة بدورها الاجتماعى الذى توفر لجمال عبدالناصر، كانت ترى جيداً ما هى الفئة الغالبية، التى يجب أن ترفع عنها الظالم.

ولأن هذه الفئة، فى ذلك الوقت، لم يكن من بينها الكثير من المثقفين، فقد كان لابد أن نعرف فئات كثيرة من العمال والفلاحين يحتلون المواقع والمراكز، فى حين كان المثقفون بعيداً إلى حد ما عن حركة التغيير.

كان عبدالناصر يرى أن القاعدة العريضة الممثلة فى

المجالس النيابية وفى عديد من المؤسسات يجب أن تكون من العمال والفلاحين

** لنقترب منك أكثر، هل كتبت بعض خطب عبدالناصر وأدبياته؟

- لا

** فـهل كـان وضع (تصـور للعـمل الوطنى) الذى أنجب (الميثاق) هو تكليف من عبدالناصر؟

أنا وعبدالحكيم عامر

أذكر فى ذلك، أن الرئيس جمال عبدالناصر كلف عدد من أقرب الناس إليه بأن يتصلوا بأسماء معينة وضع هو أسمائهم، ثم الالتقاء وجهاً لوجه مع أسماء أخرى - هم هذه المرة من المثقفين - لسؤالهم عن أفكارهم فى هذا الموضوع.

وسوف أضرب مثالاً بحالتى الشخصية التى أعرف أنها (كحالة) تكررت عدة مرات.

كان أول من اتصل بى السيد كمال الدين حسين وقد كان فى ذلك الوقت مسئولاً عن الاتحاد الاشتراكى.

استدعانى (وكان معى كل من إحسان عبدالقدوس وكمال الحناوى) وكان هذا الأخير حينئذ مسئولاً بصحيفة.

وأخبرني مع غيري أن القيادة السياسية تعتز بانتسابكم إلى العمل الوطني.

وسألنا عن أفكارنا العامة.

ثم أعطانا فكرة عما يريد من قضايا قومية.

غير أن ذلك في الواقع كان مجرد استدعاء للأفكار أكثر منه إعطاء رأي.

كانت تطرح أمامنا الأسئلة التي في أذهانهم، ثم يتلقون عنها إجابات مطلوبة، وقد تقابلنا نحن الثلاثة (كمجموعة) عند كمال الدين حسين في أكثر من مرة تطرح أمامنا القضايا وتناقش وندلي بآراء ووجهات نظر..

الاتصال الآخر الذي جرى معي في نفس الفترة هو التقائي بعبدالحكيم عامر، للمرة الأولى كما هو الحال بالنسبة لكمال الدين حسين..

طلبني عبدالحكيم عامر في بيته، ذهبت.. ولأول مرة أدخل بيت هذه الشخصية في حياتي.

وهناك وجدت عدداً كبيراً من الناس، أذكر منهم شقيقه حسن عامر والسيد عباس رضوان والسيد كمال رفعت.

وطرح عبدالحكيم علي، وعلى الموجودين، هذه القضية.

إننا -من العسكريين طبعاً- بصدد إعداد ميثاق، وهذا الميثاق

يحتج فكر واع جديد، وهذا الفكر لن يكون إلا بحصيلة الأفكار العامة التى يمكن أن نجريها هنا الآن، و أمامه..

ظللنا نتناقش لساعات طويلة إلى بعد منتصف الليل..

وقد تكرر استدعاء عبدالحكيم عامر لى - مع آخرين من المثقفين - فى نفس المكان.

أحياناً كنت أجده بمفرده وأنا معه وجهاً لوجه.

وأحياناً أخرى أجد معه أخيه حسن عامر الذى كان يكتفى بالسماع دون المشاركة..

وكنت فى كل مرة أتحدث طويلاً، وأقترح أفكاراً كثيرة..

لا أستطيع أن أذكر الأن ما اقترحته فى ذلك الوقت، ولكننى أذكر جيداً أننى استمعت فى هذا المكان، لأول مرة. حكاية نسبة الـ ٥٠٪ من المجالس الشعبية للفلاحين والعمال..

الـ ٥٠٪

وهذه النسبة اتخذت منى جهداً كبيراً ومناقشات واسعة، فقد فوجئت بها، وكانت غريبة عنى تماماً.

قال عبدالحكيم فى إحدى المرات التى اشتد فيها الحوار أن هذه الفكرة مطروحة لأن الثورة هاتخلص ذات يوم، وسوف تكون هناك انتخابات عادية بمعزل عن النظام السائد.

فما هو الضمان لبقاء البرلمان.

بمعنى آخر – ظل عبدالحكيم يتحدث طول الليل – لو جرت الانتخابات بالقوى الانتخابية المعروفة فى البلد التى تريد الدولة تغييرها، فإنه يمكن أن يأتى برلمان جديد ولا يلغى الإصلاح الزراع.

ففى غيبة هذه النسبة يمكن أن يتصدر عدة قرارات تلغى الثورة الاجتماعية.

فالضمان فى هذه الحالة أن تكون هناك نسبة كبيرة من العمال والفلاحين، وهم من المستفيدين الحقيقيين من قوانين الثورة الاجتماعية..

وأذكر، فى هذه الفترة.. أننى استمعت طويلاً.

ثم عارضت طويلاً هذا الاقتراح وبشدة..

كان هذا الاقتراح بالذات قد أخذ منا جلسات طويلة.

بصراح أقول ذلك الآن بعد هذه الحقبة الطويلة، وبعد التغييرات التى انتهت بنا إلى عصر مبارك.

أقول الآن أننى تشككت فى دوافع رجال الثورة حول ذلك، قلت:

– لا تؤاخذنى، لدى رد فعل خاص، وبصراحة، فإن العمال والفلاحين ليسوا مهيئين ليكونوا أعضاء فى المجالس

التشريعية، وبكل صراحة، فإن القابلين للرد والمناقشة والفهم هم الذين على درجة من التعليم.

ومن الثقة بالنفس والاستقلال والوعى.. إلخ، أما أى حكومة تأتى وتحاول أن تحشد ما تشاء من العمال والفلاحين فى المجالس النيابية، فإن هؤلاء سيستخدمون كرباج على ظهور المثقفين.

بصراحة أقل لك، كنت متشكك بشدة.

وقد ضربت لهم أمثلة على ذلك، فإنه من السهل – فى هذا الحالة – أجد أى إنسان ديماجوجى يقف ليخطب فى مجموعة من العمال والفلاحين (وقد رأينا ذلك بالفعل لسنوات فى الاتحاد القومى)، فيجر هؤلاء إلى مواقف صعبة..

لم يكن لدينا العمال والفلاحين كما هم الآن..

رد الفعل الأول لدى كان هو أن إعطاء هذه النسبة لهذه الفئة، يمثل كرباجاً على ظهور المتعلمين والمثقفين الذين لهم دور.

الميثاق والأحكام الجاهزة

على أية حال، تجادلنا كثيراً حول هذا الموضوع، ولم

يشعرني عبدالحكيم عامر أن ذلك قرار نهائى، ويجب أن أعترف أنا أيضاً، أننا تناقشنا كثيراً حول هذا القرار، لكن، حين ألقى الرئيس عبدالناصر قراره فى ذلك الخصوص، كان كل شئ قد انتهى.

إن الطريقة التى كتبت بها الميثاق كانت حصيلة لعديد من الأحكام والآراء التى سبقت اتخاذ القرار، وعرفت فيما يشبه اليقين، أن عبدالناصر كان قد اتفق مع عدد ليس بقليل من أعضاء مجلس الثورة من الدرجة الأولى بالاتصال بعدد من المثقفين، كل مسئول سياسى يتصل بعدد كبير من المثقفين فى مصر، وأستطيع القول من واقع هذه التجربة، ومن رصد التحركات فيها وردود الأفعال، أن من أسهم فى أفكار الميثاق والإعداد له قرابة (٥٠٠) خمسمائة من المثقفين المصريين، كل منهم قال رأية بالإيجاب أو بالسلب، وكل منهم تم التعامل مع فكره بديموقراطية..

كانوا يجتمعون ويجمعوا كل الأفكار، ويتم تسجيلها، كانت لجنة كبيرة من السياسيين يحركهم عبدالناصر تتولى هذا العمل، ومن المؤكد أن أى من المسئولين لم يكتب الميثاق، ولم يطلب عبدالناصر من أحد أن يكتب الميثاق وحده، أو من وحى فكره وحده، بل بتعدد كبير من المثقفين بواسطة مجلس قيادة الثورة – كما ذكرت –.

وأسـتطيع أن أقـول فى نهـاية الأمـر، إن كل مـا دار عن – وحول – كتابة الميثاق كان بين يدى جمال عبدالناصر، وقد تبلورت جميعاً فى أفكار الرئيس بعد أن استمع إلى المثقفين والسياسيين، ثم قام عبدالناصر بالإضافة والانتقاء، ثم وضع ذلك كله بين يدى محمد حسنين هيكل ليصيغ الصياغة الأخيرة ..

لم تكن الأفكار عشوائية.

لكنها كانت أحكاماً جاهزة حصيلة فترة طويلة من العمل السرى، والمناقشات المستفيضة ..

** ما هو السر وراء قبولكم لرئاسة تحرير مجلة (صباح الخير) فى يناير ١٩٥٦ لأول مرة؟

– إذا كان يقصد بهذا – كما يردد البعض – بإيعاز من جمال عبدالناصر، فإننى أستطيع القول الآن أن ذلك غير صحيح ..

إن توليتى لصباح الخير لم يكن له علاقة بأية جماعة أو تنظيم ..

ببساطة، السيدة روزاليوسف صاحبة المجلة كانت لديها «رخصة» منذ فترة طويلة، كانت تأمل إصدارها يومية، غير أن هذه الآمال تحطمت مع الوقت، ففكرت أن تكون صباح الخير (صباحية) وتصدر.

وحين عملت فى روزاليوسف، وكنت قد التقيت بها وتعرفنا على أفكار بعضنا البعض، فعرضت علىّ أن أقوم بتولى هذه المجلة على اعتبار أننى شاب، وعلى اعتبار أن تصورها كان لابد أن تكون (صباح الخير) مجلة للشباب تخاطب الشباب.

وأذكر أن إحسان عبدالقدوس عارض هذا بشدة.

لماذا؟

لأن كل مجالات الشباب كان محكوماً عليها بالفشل، فليس لها مادة إعلانية، (حتى الآن ليست لدينا مجلة للشباب)، وقال إحسان إنه غير مسئول عنها، فإنها - كما أكد - سوف تؤثر على مستقبل (روز اليوسف) كمجلة.. ترددت كثيراً بالتالى..

ولكن تحت إلحاح كبير من السيدة روزاليوسف قبلت.

على أن يعمل مشروع (ماكيت) قبل أن نقرر إصدار المجلة واستمرارها..

وبذلك (فصباح الخير) لم يكن - كما تردد - لها علاقة بالسياسة.

** المنظمات السياسية فى مصر عبدالناصر... هل كانت فى الأصل تقوم بهدف استقطاب المثقفين؟

- هذا صحيح...

ومع ذلك، لابد أن أضيف هنا - أننا، كلنا، لم نكن لنقبل ذلك

بحـمـاسـة شديدة، لأنني (وأنا هنا أتحدث عن نفسي فقط) كنت متحمساً للتنظيم الشعبي فقط، (لا الحربي)

وهناك فرق كبير بين هذا وذاك.

الحزب يختار أعضاؤه، لكن حين نقول أن يصبح كل موطن منتسباً في هذا الحزب، فهو لا يصبح كذلك، أقصد لا يصبح حزبياً.

وحين نعرف أن تنظيم شعبي ضخم يقدم فيه كل الناس، فإن في ذلك ببساطة أو تبسيط للأمور يتصل إلى حد السذاجة، لقد أعلن أن ٦ مليون مواطن كتبوا استمارات للاتحاد القومي في يوم واحد.

كيف يكون ٦ مليون أعضاء في بلد لا يزيد سكانه عن ٢٠ مليون فقط؟ كيف يكون ثلث الشعب أعضاء؟ الطريقة غير صحيحة

لم يحتملونا

كان المثقف أمام هذا كله متحمساً..

وكان في أحيان أخرى، بعد أن يتخذ فعلاً عملياً بالانتساب لهذا الحزب، سرعان ما كان يكتشف أن صوته ضائعاً، فيعود إلى عدم التحمس..

المهم فى ذلك أننا داخل هذه التنظيمات كنا نجد العنصر العسكرى الذى أفرزته الثورة يتولى مسئوليات التنظيم.

أنا، على المستوى الشخصى، كنت أجد العنصر من الضباط الأحرار الضباط معى فى نفس التنظيم.

مع ذلك، لم أجد فى ذلك عيباً.

كنت أرى أن ذلك حقاً له، فهو قام بالثورة، وعرض نفسه لأخطار، إذن فهو أحق من غيره ليصبح سياسياً مشاركاً، غير أن الذى حدث أننا كنا نجد فى نفس التنظيم أو اللجنة التى ننتمى نحن لها - معشر المثقفين - كنا نجد شريحة كبيرة ليس لها علاقة بالثورة قط.

كانوا من شريحة أخرى صعب علينا الاتفاق معهم..

وهنا نعود لسؤالك فى الاستقطاب: ما هو الاستقطاب؟

كان يتم دعوة أحد المثقفين فى لجنة من لجان الاتحاد الاشتراكى - على سبيل المثال - ولم يكن يفرض عليها شيئاً، من يريد أن يستمر بهذه الشروط كان يستمر، ومن كان لا يقبل، لا يقبل، ولهذا، فإن المثقفين من مسئولين إلى حد كبير فى هذا أيضاً.

ولكى أوضح رأيى أكثر سأضرب مثالاً بنفسى، لقد حضرت العديد من هذه التنظيمات، لكننى لا ألبث كل مرة أن أحتج

وأصطدم وأخرج.. إلخ.

حين أنشأ التنظيم الطليعى دعيت، فجأة، إلى أعلى مستوى، وقــد كنت أحس بالامــتنان لذلك، فــأنا لم أكن فى دهاليــز السلطة.

المهم، مـا كـادت تمضى عدة اجـتمـاعـات حـتى أسـقط ثلاثة من المثقفين، وقد كانوا من أكبر الأسماء المعروفة فى ذلك الوقت كنت أنا أحدهم.

قيل لنا فى بداية الاجتماعات أن التنظيم هام، وسوف يتناول كل القضايا فى جو من الحرية.

اكتشفنا أن لقائنا الأول كان فى مـجلس الوزراء، تكلمنا نحن الثلاثة بصـراحـة شديدة (كنت أنا وإبراهيم الشربينى وفتحى فودة).

وأشهد للاثنين الآخرين بشجاعة كبيرة خاصة الأخير منهم..

المهم بعد ثلاث أو أربع ساعات لم يحتملونا..

وكانت النتيجة أننا أسقطنا..

وعرفنا ذلك حين استمرت الاجتماعات بعد ذلك فى حين لم ندع مرة واحدة وتم تجاهل أسمائنا تماماً.

** لماذا لم يقبض عليك بعد أحـداث ١٩٦٨ على أثر بيان نقـابة الصـحـفيين الذى أعلنتـه و قـد كنت نقـيباً للصـحـفيين،

خاصة أنه وشى بك عند جمال عبدالناصر؟

«ملاحظة: على أثر مظاهرات الطلبة والعمال التى تمت فى النصف الثانى من فبراير ١٩٦٨، عقد مجلس نقابة الصحفيين جلسة ظهر يوم ٢٨ فبراير لمناقشة هذه الأحداث، وأصدر المجلس برئاسة أحمد بهاء الدين مذكرة بيان طالب فيه بعدة مطالب من النظام، فبعد أن ركز على شرعية المظاهرات طالب بالإسراع فى حساب المسئولين عن النكسة ٦٧، كما طالب بإعادة بناء التنظيم السياسى، وتوسيع قاعدة الديموقراطية والمشاركة فى اتخاذ القرار والإسراع بإصدار القوانين المنظمة للحريات... وما إلى ذلك، فى وقت كانت السلطة التنفيذية تعانى من ارتباك كبير خاصة فى الجبهة الداخلية فى حين كان العدو الصهيونى يقف فى سيناء بعد احتلالها.. وهو ما يعود الى جرأة النقيب وحنكته التى لم تفقده شجاعة التعبير عن نقابة الصحفيين فى ذلك الوقت العصيب..»

مخه كده

- بداية، كنت أعرف أن هناك مرات أعرف بعضها ولا أعرف بعضها الآخر، كان يعرض فيها على جمال عبدالناصر اتخاذ قرار ضدى...

أذكر أنه قدم أكثر من قرار لعزلى من رئاسة التحرير..

وأكثر من مرة طولب القبض علىّ صراحة..

وأكثر من مرة طولب بضرورة اتخاذ قرار ضدى بإيقافى أو منعى من الكتابة

كان هذا كله فى السنوات الأولى من الثورة ٥٢/٥٣/١٩٥٤..

فى هذه الفترة التى كانت المعانى العامة لم تتحدد بعد بالنسبة إلى النظام الجديد..

وقد كان يبلغنى دائماً، تعليق مصدره عبدالناصر نفسه، ففى كل مرة أكون مهدد بالعزل أو القبض علىّ أو التوقف عن الكتابة، فإن عبدالناصر كان يرفض قائلاً:

– رأيه كده.. مخه كده..

كان يعرف عبدالناصر أن هناك صحفيين كثيرين المعروفين لهم علاقات مشبوهة بالنظام.

وكنا نحن نعرفهم فى الوسط الصحفى.

وكان يعرف أيضاً أن الخطر الأكبر يأتى من هؤلاء، كما يأتى من أولئك المنظمين فى تنظيم، أما من يكتب رأيه، فقط، فلم يكن له خطورة إتخاذ قرار ضده.

وهو ما يدفعنى للتوقف هنا هنيهة لتأكيد أمر هام، أعتقده، بتجاربى بالنسبة لعلاقة المثقفين بالنظام....

فى الفترة الناصرية لم تكن المشكلة قط هى إبداء الرأى..

ولم يكن يتخذ قرار عنيف ضد من يهتم بإبداء رأيه، وغاية ما كان يفعله ضده، هو، المنع عن الكتابة (وخلاص)..

وأستطيع أن أوكد، أنه لم يقبض قط على صحفى، أو كاتب فى ذلك الوقت له رأى فقط، أو يعبر عن رأيه بمعزل عن أى انتماء حركى آخر..

كان من يقبض عليه دائماً يتهم بأن له نشاط غير صحفى.

كان من يقبض عليه دائماً كان يكتشف أنه عضو خلية سياسية، وحين يتم ذلك الكشف، يكون من الطبيعى أن يتم القبض على من فيها من الصحفيين.

كانت القضية الخطر دائماً هى النشاطات غير الصحفية..

** إذا كان الأمر كذلك: بماذا تعلل عزل فكرى أباظة عن دار الهلال بشكل عنيف ومخزى فى حين لم ينتم إلى تنظيم سياسى أو جماعة معادية، ولم يعد إلى منصبه قط، اللهم إلا حين استكتب اعتذاراً رسمياً؟

- أنا لا أدافع عن المثقفين، غير أننى أتحدث عن الشكل العام.

وبالنسبة إلى فكرى أباظة، فهناك أشياء كثيرة لا أحب أن أذكرها.

المثقف والخمر

هل أزيدك، حسن (وهنا انخفض صوت بهاء الدين إلى درجة الهمس).

ثم أضاف:

إن فكرى أباظة فى هذا الوقت الحرج من تاريخ الثورة كان طاعناً فى السن، وكانت له علاقة حميمة بالخم.

المثقف والخمر دائماً.

أنا كرئيس تحرير فى نفس الدار الذى عمل فيها كنت أجده دائماً يكتب أشياء غريبة.

أشياء لا يكتبها مسئول وفى منصب حساس..

على أية حال، فالمهم أن رأيه هذا جاء فى وقت كانت البلاد العربية – فى أغلب أقطارها – تهاجم مصر، وتتسقط أى موقف أو خبر ضده.

والذى حدث بالضبط، أنه اعتقد خارج مصر وداخلها أن فكرى أباظة قد عرف أنه مسئولاً فى الدولة ويتحدث باسمها،.. أن لديه تفويض بذلك..

وعلى أية حال، تظل هذه حالة خاصة..

** وإذن، فى هذا السياق، دعنى أعود إلى سؤال سابق لك.. ولم تكن أجابته كافية... لماذا لم يقبض عليك إذن عام

١٩٦٨؟

- الإجابة، كما أسلفت، لأننى لم أكن عضواً فى تنظيم، ولكن كان لى رأى فقط،، فلماذا يقبض علىّ إذن؟

عود إلى عبدالناصر

ويهمنى قبل أن ننهى هذا الحديث أن أشير إلى موقف خاص، أو حكاية أكدها لى سامى الدروبى وهو صديق قديم، وكان صديقاً شخصياً لجمال عبدالناصر.

«يفصل لى بهاء الدين فى استطراد طويل كيف أن العلاقة بين الدروبى وعبدالناصر توثقت ووصلت إلى درجة حميمة، وحين وصل عبدالناصر إلى يوغوسلافيا فى أحد زياراته بعد الانفصال عام ١٩٦١، وفى الاستقبال الرسمى راح يصيح بصوت عال بالعربية فجأة:

- يحيا جمال عبدالناصر.

وحين سأل عبدالناصر عن صاحب الصوت جاءته الإجابة أن:

- هذا الدروبى، سفير سوريا فى يوغوسلافيا.

المهم أن عبدالناصر أخبر الدروبى، بعد بيان نقابة الصحفيين، بشئ من العتاب.

وقد كان يعلم مدى الصداقة بينى وبين الدروبى:

- كنت غير متوقع من صاحبك هذا، بهاء يعمل كدا؟

سأل سامي الدروبى:

- عمل إيه يا ريس؟

أجاب عبدالناصر بسرعة:

- البيان اللى خرج به، كان طعنة خنجر فى ليلة مظلمة..

- قال الدروبى وكأنه لا يعلم ما حدث..

- بهاء لا يعمل كده..

شرح عبدالناصر طويلاً له ملابسات ما حدث طيلة شهرى فبراير ومارس ١٩٦٨، ثم قال بحزن شديد:

كلمنا كل النقابات ألا يعملوا اضطرابات، أو يخرجوا بمظاهرات أو أى شئ يؤثر على أدائنا ضد المظاهرات.

ومع ذلك، راح هو وأصدر هذا البيان..

عاد الدروبى للقول:

- أذكر أن البيان، بكل ما جاء، لم يكن أكثر مما صدر فيما بعد باسم (بيان ٣٠ مارس).

جاء صوت عبدالناصر:

- هو ما كنش عارف اللى احنا عارفينه..

ويعود صوت بهاء ليقول بهدوء وكأنه متأثرا مما حدث:

- طلع إن الدولة كانت تنظر إلى الحدث بمنطق آخر.

كان معنى أن تستمر المظاهرات وتكثر الاضطرابات، أن يصل كل هذا إلى نتيجة، أن تقع الدولة كلها فى أيد أجنبية، وكان ذلك معناه - وهو ما عرفت تفصيلاته فيما بعد - أن يسقط نظام الحكم..

كان الصراع معروف فى ذلك الوقت بين عبد الناصر والقوى المضادة له..

لقد كان الخلاف المحتد بين الثورة وأعدائها (كما أسهب عبدالناصر فى ظروف هذه الفترة) معناه أن ينزل الجيش بعد إصدار قرار بذلك ويطلق النار فى المليان لقمع الفتنة.

وقد تصادف أن هذا البيان - بيان مجلس النقابة - أعلن فى هذه الليلة، حيث كان الجيش على وشك أن ينزل وينهى الفتنة، لولا أن عبدالناصر رفض هذه الفكرة، وذهب فى اليوم التالى إلى الشعب وألقى خطابه المعروف.

وقد تبنى كل المطالب التى طالبنا بها فى هذا البيان..

لقد قال عبدالناصر إنه قُدِمَت إلىّ مذكرة حينئذ للقبض على بهاء الدين، ولكننى رفضت، قلت لهم إن بيان النقابة سئ، أنا أعرف.

لكن أن أعرفـ أكثر أنه (مخه كده).

فهو لا يعمل مع أى تنظيم وليس وراءه اى شئ مريب.

ولم تكن هناك شـبـهـة أننى أتعـاون مع أى من العناصـر المريبة..

طلب الدروبى من عبدالناصر أن يبلغنى بذلك، مضيفاً:

- قل لبهاء لماذا تفعل ذلك فى مثل هذه الليلة.

وطبعاً - يضيف بهاء بأسى

- فلم يكن فى ذهنى أى شئ من هذا.

خطاب أحمد بهاء الدين ... للسادات

أقـدم إلى سيادتكم أطيب التحـيـة، ثم أحب أن أعـتـرف بـأننى أحـاول أن أكـتـب هذا الخطاب إلى سـيـادتكم وهو مـا سـاورنى مـراراً وأنا كـالسـائر فى الظلام، ذلك أننى بكل إخـلاص لا أعـرف بالضـبط مـا هى الشكوك المتـعلقـة بى والتى علىّ أن أحاول إيضاحها.

إن ما أكتبه من مقالات، مسئوليتى عنه واضحة، و من العدل أن أتحمل نتائج هذه المسئولية، وليس لدى دفاع مجمل عنها بواجـه عام، بما يمكن أن يكون فيـهـا من خطأ أو صواب، إلا أننى أكتبـهـا من صميم القلب، وبكل صفاء نية وصدق رغبة فى المسـاهـمـة فى الخـدمـة العـامـة. وفى إطار الركب الذى تقـودونه فـى أصـعب وأقسى الظروف وطوال عـشـرين عـامـاً من الكتـابة المتـصلة، كـان لابد أن يكون فـيـمـا أكـتب مـا هو خطأ، ومـا هو صـواب، ومـا هو مـوفق ومـا يجـانبـه التـوفـيق، ولكن الذى أؤكده أننى ممن يكدون الذهن فيما يكتبون، وإن مـا أكـتـبـه أحـاول قـدر جـهـدى أن يكون فى طابـع الدراسـة والتأمل والاقتراح. وليس طابع التعليقات العابرة، وفى ذهنى

دائماً أننى أننى حسن النية فيما أقول لأننى لا أجد أى خلاف بين ما أؤمن به من منطلقات أساسية للسياسة العامة للبلاد، وحين يكون لى رأى آخر فى بعض التفاصيل لا أكتمه عن المسئولين الذين أستطيع أن أتصل بهم، معتقداً أن هذا هو الأسلوب الصحيح للإخلاص فى الخدمة العامة، كما حدث على سبيل المثال، بعد قرار قطع العلاقات السياسية مع الأردن إذ قابلت السيد حافظ إسماعيل وشرحت له وجهة نظرى كاملة لأن هذا هو أسلوب الصدق والإخلاص فى العمل.

وفى نفس الوقت، عندما طلب منى المهندس السيد مرعى، رغم إرادتى أن أذهب وأمثل الاتحاد الاشتراكى فى مؤتمر بيروت للقوى المناصرة للثورة الفلسطينية، وكان لى رأى خاص فيه، وقال لى إن المعلومات لديه أن سيكون منبراً للتهجم على مصر ورئيسها. ذهبت بمفردى إلى المؤتمر العاصف، وكان دورى أن لا يمس أحد مصر أو رئيسها بكلمة وهذا ما حدث، وحين عدت شكرنى المهندس سيد مرعى، بناء على ما تلقاه من معلومات على ما قمت به من مجهود فى جو متحيز وعاصف..

أما غير ما أكتبه وأقوله، فقد كان قرار نقلى من دار الهلال مفاجأة لى، كنت شاعراً ببداية حملة البلاغات والدسائس من أناس مشكلتى معهم أننى بحكم عملى أعرف عنهم رسمياً

وبالأدلـة مـا يشـينهم، وهـم بالتـالى لا يطيـقـون وجـودى فى الساحة، فهم فى حالة تعقب دائم لى ظناً منهم أننى قد أشهر بهم أو أتعقبهم وهو ما لم أفعله قط.

ووقـتـهـا اتصلت بالسيد فـوزى عبدالحـافظ، وطلبت مـوعداً من سيـادتكم فلم أتلق أى رد حـتى قـرار النقل، والتـزمت الصـمت وكنت راغـباً فى ترك مسئـولية رئاسة مؤسسة، وقد سبق أن عبـرت لسيادتكم عن ذلك واعتـريت مـوافـقـة سيادتكم على عـملى فى الأهرام إكراماً لى ومن يومـها لم أشغل نفسى بغير عملى المحدود.

وقد سمعت مؤخراً أن التقرير الذى كان مقدماً عنى إلى لجنة النظام ينطوى على مـعلومـات لا أعـرف هل هى حـقـاً فـيـه أم لا : سمعت أن فيه أننى كنت مـستشاراً صـحفياً لعلى صبرى! والأستاذ هيكل يعلم أن عـلاقتى كانت سيئة مع اثنين بالتحديد : على صبرى، وسامى شرف.

الأول لأنه طلب منى مرة أن أعـمل معه عـضـواً فى الأمـانة العامـة للاتحاد الاشـتـراكى فـرفـضت. ولأنـه طلب منى مـرة أخـرى أن أتولى إدمـاج دار الهلال والجـمـهورية تحت إشرافه فرفضت، وكـان دائم التنديد بى، لأنـنى صديق للأستـاذ هيكل الذى كان يعتبره خصماً لدوداً.

وسـمـعت أن فـيـه أننـى قـابلت على صـبـرى ليلة عزلـه أو ليلة

اعتقاله ساعتين، وهذا ما لم يحدث قط، ولكن الذى حدث أنه بعد سنوات من الانقطاع ذهبت فى رحلة صحفية إلى سوريا فى أوائل الحديث عن الوحدة الثلاثية، وأنا متهم بمبادئى الوحدوية وعدت فكتبت مقالاً منشوراً فى المصور عن سوريا، ومحبذاً مشروع الاتحاد الثلاثى فاتصل بى السيد محمد فائق، وقال لى إن على صبرى يريد أن يرانى ليسمع منى عن أحوال سوريا.

وحدد لي موعداً ذهبت فيه إلى الاتحاد الاشتراكى، وكان مدير مكتبه يومها السيد عبدالمجيد شديد، وفى هذا اللقاء بدأه بالتهكم على بما سماه مرضى السورى المزمن، ثم سألنى عما رأيت وأنا خالى الذهن تماماً من أى خلفية أخرى، وكان هذا هو اللقاء الوحيد، وكان قبل موضوع الخلاف بزمن.

أما سامى شرف فقد فوجئت به قبل سنوات من عزله يطلب منى تليفونياً فصل محرر فى روز اليوسف اسمه محمود ذهنى لأنه «يشنع عليه»، واعتذرت له عن ذلك قائلاً: إنه يمكن أن يرسل لى مذكرة أحقق فيها معه، أما أن أفصله دون إبداء أسباب، وكان الفصل صادراً منى فهذا يضعنى أمام سائر المحررين فى موضع مريب ومن يومها كانت القطيعة والمحاربة.

وحين كنت نقيباً طلب منى عن طريق السيد على خشبة

فصل عدد من الصحفيين من النقابة لتطهيرها فرفضت، ثم جاءت أحداث ١٩٦٨، وكتب سامي شرف ضدى تقريراً للرئيس الراحل ينتهى إلى طلب القبض علىّ، ولم يحدث هذا ولكن الرئيس الراحل أرسل لى سامى الدروبى حاملاً عتابة، وقد قرأ على فقرات من تقرير سامى شرف.

وأنا آسف أن أذكر هنا اسم محمود العالم لأنهم قرروا جعله الصحفى الذى يدفعونه للصدارة. وتجسم هذا فى انتخابات اللجنة المركزية إذ طلب منى الأستاذ هيكل نقلاً عن الرئيس الراحل أن أرشح نفسى بعد بيان ٣٠ مارس فقلت له إنهم سيمنعوننى من دخول اللجنة المركزية وشرحت، ويوم انتخاب اللجنة المركزية وزعت القوائم السرية وفيها اسهم محمود العالم، الصحفى المطلوب دخوله ونبه على الناخبين بعدم انتخابى، وأشرف على العملية عياناً بياناً سعد زايد وكان معى يومها الدكتور مراد غالب الذى رأى هذا معى بعينيه، أما التنظيم السياسى فقد وضعت فيه فى لجنة القاهرة الرئيسية وبعد جلستين تجرأ فيها اثنان على المناقشة والاعتراض، أنا والدكتور إبراهيم الشربينى، أسقطنا من اللجنة ولم نعد نحضرها، وبين المسئولين الحاليين شهود على.

يومها قاطعت التنظيم، لقد وقعت حرب ٥ يونيو واتصل بى محمد فائق من جديد طالباً أن أشرف على التنظيم السياسى فى الصحافة كلها أنا وأحمد فؤاد، فرفضت بصراحة أولاً

لعدم موافقتى على الطريقة وثانياً لأننى قلت له أن أحمد فؤاد غريب عن الصحافة، حتى القلائل الذى اختارهم فى دار الهلال لم نرد عليهم واحد، وجمدنا نشاطه، وطلبت أن يتولاهم مصطفى بهجت بدوى شكلياً، ولم أعد أحضر ولا غيرى هذه الاجتماعات.

وفى خلال الفترة الأخيرة منذ ذهابى للأهرام، تفرغت للبحث فى قضايا تهمنى، إسرائيل والصراع العربى الإسرائيلى، وسائل الإفادة من رأى المال العربى فى مصر، وإعادة تخطيط مصر، ومشروع إعادة بناء القرية المصرية، ولم أشترك لا فى اجتماع ولا وقعت على بيان أو عريضة، معتذراً بأننى لا صلة لى بحكم طبيعتى بالعمل الجماهيرى، ومقتنعاً أن ما تبقى لى من وقت للإنتاج سوف أنفقه فى تأليف بعض الكتب عن القضايا الشاملة الأساسية التى تواجه المجتمع المصرى والعربى بوجه عام. وكان هذا وما زال أملى وطموحى الحقيقى.

وبعد فصل الصحفيين، حاولت نقابات عربية كثيرة أن تدعو لاجتماع اتحاد الصحفيين العرب الذى أرساه لاستغلال الموقف، ويعرف الدكتور حاتم الذى أعلمته بالأمر الجهود التى بذلتها لإحباط هذا كله، منعاً للاستغلال، آخر الأمر على عاتقى حتى هاجمتنى بعض الصحف فى لبنان والكويت، لهذا السبب..

السيد الرئيس:

الواقع أننى مـضطر أن أعـود إلى القـول بأننى عـاجـز عن الكتـابة لأننى حـقـيقـة لا أعـرف تماماًماذا علىّ أن أوضحه، وإننى قـابل تماماً أن يقـابلنى أى مـسئـول تثـقـون فى تجـرده ويواجـهـنى بأى شئ وسـوف أعـتـرف بأى خطأ لا أدريه، وأوضح أى قـضيـة تحتـاج إلى إيضاح، ولا أعـفى نفـسى من مسئولية هذا أو ذاك، وأنا لا أطلب شيئاً وإذا كانت هناك أسباب تقتضى إنهاء عملى الصحفى، فليس لى طلب أكثر من صيغة تحـفظ لى كـرامـتى، تمكننـى من أن أجـد فى الوقت المناسب عملاً مناسباً يجعلنى قادراً على تحمل مسئولية حياتى وحياة الذين يعتمدون علىّ فى حياتهم.

ولسيادتكم أطيب التحية وأخلص الشكر..

أحمد بهاء الدين

(توقيع)

بسم الله الرحمن الرحيم

محكمة عابدين

حكم

باسم الشعب

محكمة عابدين – بجلستها العلنية المنعقدة في يوم الثلاثاء الموافق٢٦/٤/١٩٨٣

برئاسة السيد الأستاذ / محمد درويش رئيس المحمكة

وحضور الأستاذ / شريف حشمت وكيل النيابة

وبحضور السيد / أحمد المنشاوى أمين السر

وأصدر الحكم الآتى بيانه فى قضية النيابة العمومية رقم ٤٢٠٦ لسنة ٨٢ جنح بولاق المقيدة برقم ٥٢٢٥ لسنة ٨٢ جنح عابدين.

ضد

١ – أحمد بهاء الدين شحاته، وشهرته أحمد بهاء الدين

٢ – إبراهيم نافع بصفته رئيس تحرير جريدة الأهرام

٣ – عبدالله عبدالبارى بصفته رئيساً لمجلس إدارة جريدة الأهرام

المحكمـــــــــــة

بعـد الإطلاع على الأوراق وسـمـاع المرافـعـة ورأى النيـابة العامة:

حيث أن الوقائع – على ما بين من سائر الأوراق – تتحصل فى أن المدعى بالحق امدنى الصحـفى أحـمـد زين العـابدين المحـرر بجريدة الأخبـار ومدير تحريرها ورئيس مجلة اللواء الإسـلامـى أقـام الدعـوى رقم ٤٢٠٦ لسنة ٨٢ جنح بولاق – المحالة إلى محكمة عابدين لنظرها مع الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ١٩٨٢ جنح عابدين – المقيدة برقم ٥٢٢٥ لسنة ٨٢ جنح عـابدين ضد الصحـفى أحـمد بهاء الدين عبدالعال شحـاته، وشهرته أحمد بهاء الدين، والصحـفى إبراهيم نافع بصفته رئيساً لتحرير جريدة الأهرام، والصحفى عبدالله عبدالبارى (المسئول عن الحقوق المدنية) بصفته رئيساً لمجلس إدارة جريدة الأهرام بصحيفة أعلنت إليهم فى ١٣/١٠/١٩٨٢ طلباً للحكم بمعاقبة الأول والثانى جنائياً عملاً بالمواد ١٩٥ – ٣٠٢ – ٣٠٣ – ٣٠٦ – ٣٠٧ من قانون العقوبات، والتزامـهـمـا بالتضامن مع المسئول بالحقوق المدنية عبدالله عبدالبارى بصفتـه أن يؤديا للمـدعى عليه بالحق المدنى على سـبيل التعويض المؤقت مبلغ ١٠١ جنيهاً ، والمصروفات والأتعاب مع النفـاذ لأنهـمـا فى يومى ٢، ٣ /٨/١٩٨٢ بدائرة بولاق، المتـهم الأول نشر بجريدة الأهرام مـقـالين يومى ٢/٨ – ٣/٨/٨٢ فى عمود يوميات تضمنا وقائع قذف وسب علنى

فى حق المدعى بالحق المدنى وأسند إليه تلميحاً وتصريحاً عن سوء قصد وبإحدى الطرق العلنية المبينة فى المادة ١٧١ عن طريق النشر فى مقاليه سالفى البيان وقائع لو صحت لاستوجبت معاقبته جنائياً أو احتقاره عند أهل وطنه وقراءه.

٢ – والمتهم الثانى سمح بنشر هذه الوقائع فى جريدة الأهرام حال كونه رئيس تحريرها والمسئول عما ينشر فيها عملا بالمادة ١٩٥ عقوبات. وقال شارحاً لدعواه إنه يكتب – إلى جانب إدارته لتحرير جريدة الأخبار ورئاسته لتحرير مجلة اللواء الإسلامى – مقالاً يومياً فى جريدة الأخبار تحت عمود «بلا مشاكل» كما يكتب المتهم الأول مقالاً يومياً فى جريدة الأهرام فى عمود يوميات، وما إن هل على الأمة الإسلامية شهر رمضان المعظم سنة ١٤٠٢ هجرية (يونيو/ يوليو ١٩٨٢ حتى شارك كثير من الكتاب فى إحياء ذكراه ، وقد آثر المتهم الأول أن أشارك فى إحياء هذه المناسبة – وهو كاتب مقرو يحظى كل ما يكتبه باهتمام القراء عامة والمثقفين خاصة – فاختار لعموده اليومى فى جريدة الأهرام (يوميات) عنواناً فرعياً أسماه «رمضانيات» وعرض فيه لثلاث من القضايا الكبرى المعاصرة فى الفكر الإسلامى، وهى قضية التراث، وقضية الشورى، وقضية الحكم الدينى فى الإسلام وجميعها قضايا تثير بطبيعتها كثير من الجدل والخلاف وتحظى قبل غيرها باهتمام الكثرين من مفكرى العالم وعلى الأخص، العلماء المسلمين وتفجر

الصراع الفكرى بين علماء المسلمين وكتابهم ومفكريهم، فأزرهم فريق منهم وفريق خالفه و ثار على نهجه حتى وصل الصراع إلى ذورته عندما فجر المتهم الأول مسألة غيبية هى فضل ليلة القدر وخيرتها وتعرض لروايات التراث فيها وهاجم بعضها فى سخرية، وانزلق قلمه فوصف بعض رأى أولئك من علماء التراث بالعبارة التالية .. «وكأن الله - غفر لنا - يقيم أوكازيوناً . العبادة فيه بسعر الجملة، أسهل وأرخص، وكان ذلك فى عدد الأهرام الصادر فى ٨٢/٧/١٧ وإذ استفسرت المدعى هذه العبارة - لما استشعره فيها من مساس بالعقيدة الدينية لدى المسلمين - واستفزته للرد عليها فنشر فى جريدة الأخبار فى اليوم التالى ٨٢/٧/١٨ فى عموده بلا مشاكل مقالاً قال فيه «أعود مرة أخرى إلى الكاتب الذى يتحدث عن الإسلام فى الفترة الأخيرة حديث المجدد فيه، المصلح الذى يريد إصلاحاً فى الأرض، يأتى فضيلة الكاتب ليقول عن ليلة القدر أنها دخل عليها أشياء كثيرة ربما للزيادة فى جلالها، ولكن هذا لا يعجبه .. ثم يمضى الكاتب فى سخرية تكشف عما فى الصدور، أن العلماء قالوا إن قيام ليلة القدر يساوى عبادة ألف شهر ويتساءل فى سخرية .. هل الله يقم أوكازيوناً كل ليلة قدر، هكذا وفى رمضان .. ويضيف المدعى أنه لم ينسب إلى المتهم - كاتب المقال المذكور شيئاً لم يقله فهو عندما قال إن الأخير تساءل فى سخرية هل الله يقيم أوكازيوناً كل ليلة قدر

كـان ينقل نفس عبارته، «وكـأن الله يقيم أوكـازيونا». ذلك أن لفظ كأن في هذه العبارة لا يحمل إلا معنى التساؤل الساخر الذي ذكره المدعي في مقاله، إلا أنه فوجئ بالمتهم الأول ينشر مقالين في جريدة الأهرام يومي ٢/٨، ٣/٨/٨٢ في عموده اليومي تحت باب يوميات، خرج فيها على حدود النقد المباح حين بدأهما بعبارة «أخيراً ضبطنا الصحفي الدجال متلبساً بالتزوير وإنهال على المدعي المدني يكيل له الاتهامات وعبارات القذف والسباب العلني بأن نعته بأنه صحفي مزور ودجال خائن لمهنته الصحافة ومزور محترف واتهمه بأنه حرف كلامه المنشور في جريدة الأهرام ونسب إليه ما لم يقله كما سبق أن حرف كلام رئيس الدولة السابق الذي أعد طلباً لفصله من نقابة الصحفيين لولا تدخله – المتهم الأول – شخصياً لدى الرئيس السابق لوقف طلب الفصل، كما وصفه بأنه لا يجيد غير أسلوب التهريج الصحفي الذي لم يتعلم غيره، واتهمه بأنه يسئ إلى شرف المهنة ولا يستطيع بنفسه وإنما يستطيع بغيره... وما إلى ذلك من عبارات القذف والسب العلني، التي تضمنتها المقالتين المذكورتين على نحو يتوافر معه في حقه أركان جرائم القذف والسب العلني المؤثمة بمواد الاتهام، كما يعد المتهم الثاني فاعلاً أصلياً مع المتهم الأول في ارتكاب تلك الجرائم بحكم مسئوليته الافتراضية عملاً بالمادة ١٩٥ عقوبات إذ سمح للمتهم الأول بنشرها في الجريدة التي يرأس الثاني

تحريرها، ونظراً لأن المدعى بالحق المدنى قد أصابته أضرار مادية وأدبية من جراء عمل المتهمين الأول والثانى غير المشروع وهو ما يقدر مؤقتاً بمبلغ ١٠١ جنيه، كما تتحقق مسئولية المدعى عليه الثالث بصفته عن تعويض هذا الضرر بحكم رئاسته وإشرافه للمتهمين الأول والثانى استناداً إلى أحكام مسئولية المتبرع عن أعمال التابع ومن ثم - وبعد أن حصل المدعى بالحق المدنى على إذن نقابة الصحفيين باختصام المتهمين - أقام دعواه للحكم له بطلباته واختصم ممثل النيابة العامة بصفته لتحريك الدعوى الجنائية قبل المتهمين الأول والثانى وقدم تأييداً لها حافظتى مستندات طويت الأولى على إذن نقابة الصحفيين المؤرخ ٨٢/٨/١٦ باختصام المتهم الأول وإذنها المؤرخ ٨٢/١١/١٦. باختصام المتهم الثانى والمسئول بالحقوق المدنية بصفته. وطويت الحافظة الثانية على مقالة المتهم الأول المنشورة بجريدة الأهرام يوم ٨٢/٧/٢٧ فى شأن تفسيره لسورة ليلة القدر، ومقالة المدعى المدنى المنشورة فى جريدة الأخبار يوم تعليقاً على مقالة المتهم الأول سالفة الذكر، ومقالتى المتهم المؤرختين ٨٢/٨/٢، ٨٢/٨/٣ المتضمنتين لعبارات القذف والسبق العلنى المقول بها. وإذ تداولت الدعوى على النحو المبين بمحاضر جلساتها أمام محكمة بولاق، وحضر وكيل المتهم ودفع بعدم قبول الدعوى الجنائية لعدم سبقها بشكوى من المجنى عليه لشخصه أو من وكيله الخاص، خاصة وأنه

لم يوقع على صحيفة افتتاح الدعوى حتى تعتبر الصحيفة بمثـابة شكوى، وتغنى عنهـا، وقـدم أربـع حـوافظ مـسـتندات طويت الأولى على صورة من التوكيل الصادر له من المتهم الأول وطويت الثـانيـة على عـشـرون نسـخـة من المقـالات المنشـورة والتى تحكى قـصـة الصـراع بين طرفـا التـداعى. وطويت الثـالثـة على تجـمـيع من بعض المقـالات المقـدمـة بالحـافظة الثـانيـة يكشف عن مـواضع التـزوير المقـبل به وطويت الرابعة على بعض مـقالات تؤيد وجـهـة نظر المتـهم الأول وفكره فى قـضـيـة الشـورى والتـراث الإسـلامى وطلب إثبات بيانات التـوكيل الخاص بالحاضر عن المدعى المدنى فـتـبين أن توكـيله برقم ٦١٠ لسنة ٨٢ رسـمى عـام جنوب القاهرة صادر بتاريخ ٨٢/١١/١٣ وقدم الحاضر عن المتهم الثـانى والمسئول بالحق المدنى مـذكـرة شارحـة للدفع بعدم قبول الدعوى بشقيها لعدم سبقها بشكوى وطلب الحاضرون جـمـيـعاً إحـالة الدعـوى إلى مـحكمـة عـابدين لنظرهـا مع الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ٨٢ جنح عـابدين المرفوعة من ذات الخـصـوم. وأحـيلت الدعـوى إلى هذه المحكمـة وصـار قـيـدها برقم ٥٢٢٥ لسنة ٨٢ جنح عـابدين وبجلسـة ٨٣/٣/٨ حـضـر المدعى المدنـى بشـخـصـه ومـعـه مـحـام قـدم حـافظة مـستندات طويت على صورة رسمية من شكواه المقدمة إلى نيابة بولاق فى ٨٢/٨/١٠ من ذات الواقعة والتى قيدت برقم ٢٠٩ لسنة ٨٢ وأقر بأن موكله سبق أن وقع على أصل صحيفة افتتاح

الدعوى واعترض الحاضرون عن المتهم الاول ودفع بأن توقيع المدعى المدنى على أصل الصحيفة محشر بالإضافة بعد إعلانها وقدم صورتها المعلنة للمضاهاة فتبين خلوها من توقيع المدعى المدنى على خلاف الأصل، وبالجلسة الختامية طلب الحاضرون حجز الدعوى للحكم مع الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ٨٢ مع التصريح لهم بتقديم مذكرات فى الدفع والموضوع، فقررت المحكمة حجزها للحكم بجلسة ٨٣/٤/١٦، وصرحت بتقديم مذكرات لمن يشاء فى أربعة أسابيع ، وخلال الفترة المحددة أودع وكيل المدعى بالحق المدنى مذكرة رد فيها على الدفع بعدم قبول الدعوى بإيراد حكم حديث لمحكمة النقض صدر فى الطعن رقم ١٤٩٥ لسنة ٤٥ قضائية السنة ٢٧ جلسة ١٩٧٦/٣/٢٩، جاء فيه أن الدفع بعدم قبول الدعوى لأن محامى المدعى بالحق المدنى قدم صحيفة الإدعاء المباشر دون أن يصدر له توكيل خاص منه ليس بصائب، ذلك أن المادة الثالثة من قانون الإجراءات لا تشترط ذلك إلا فى حالة الشكوى، ولا ينسحب حكمها للإدعاء المباشر، وبالإضافة إلى ذلك فإن المدعى المدنى تقدم بشكوى فى الميعاد ووقع صحيفة الإدعاء المباشر وهى المعول عليها، وردد ما جاء فى صحيفة دعواه بالنسبة للموضوع وصمم على الطلبات، كما اودع وكيل المتهم الأول مذكرة بدفاعه تضمنت شرحاً لأوجه دفاعه الخاص، بعدم قبول الدعوى وتمسك بحرفية نص المادة ٣ أ.ج التى

استـوجـبت تقـديم الشكوى من المجنـى عليـه أو من وكـيله الخـاص دون أعـمـال حكم النفس لأن حكم النص أولـى بالتطبـيق وأضـاف إلى الدفع دفعاً آخـر بعدم قـبول الدعـوى لرفعها قبل الا وان بمقوله أنه إن صح أن المجنى عليه تقدم بشكواه إلى نيـابـة بولاق فـى ٨٢/٨/١٠ وقـيـدت برقم ٢٠٩ لسنة ٨٢ – وإن كـان ذلك على خـلاف الوارد بالصـورة المقدمـة ضـمن حـافظة المدعي الثـابت أنها مقيدة برقم ٢٠٩ لسنة ٨٢ على افتراض أنه خطأ مادى فإنه كان يتعين على المجنى عليـه أن يتريث فى إقامـة دعـواه إلى أن يصدر قرار النيابة العامة فى الشكوى سواء بالحفظ وقيدها بدفتر الشكاوى أم بتـقـديمهـا إلى المحـاكـمـة . أمـا أن يتـعـجل ويرفع دعـواه المبـاشـرة قـبل صـدور قـرار النيـابة العـامـة فى الشكوى فـإن دعـواه تكون غير مقبولـة لأن شرط قبول الادعـاء المباشر ألا يكون الأمـر قـد اتصل بسلطة التـحـقـيق ولم يبت فـيـه بعـد . ثم عرض إلى الموضوع وطلب البراءة، ورفض الدعوى المدنية تأسـيـساً على أن المتـهـم تعـرض لحـملة من الافـتـراءات والأكاذيب تغيت اغتيال شخصيته ومركزه كصحفى وكاتب ومـفكر له مكانتـه، فـاضطر إلى الدفـاع عن نفـسـه وعن شـخـصـيـتـه الأدبيـة وهو حق مـقـرر له عـمـلاً بالمادة ٦٠ عقـوبات، وكانت وسيلته إلى الدفاع عن نفسه هو استـخدام حق الرد على مـا نشـر ضـده من أكـاذيب عن طريق نشـر تصحيح لما نشره عنه جريدة المدعى بالحق المدنى وطبيعى

والحال كذلك أن يكون الرد بذات الأسلوب الذى اتخذه ضده – فلم يكن مقبولاً أن يقول للمدعى المدنى (جرحنى لحظك) فاضطر اضطراراً لا خيار له فيه إلى أن يعرى المدعى بالحق المدنى ويكشف أغراضه ومآربه وأن يفضح التزوير المحترف الذى باشره ضده وتوسده، فيما كاله إليه بما وقعه به.

كما أودع الحاضر عن المتهم الثانى والمسئول عن الحقوق المدنية بصفته مذكرة تمسك فيها بالدفع بعدم قبول الدعوى وبعدم الإعتداء بالشكوى المقدمة بحافظة المدعى لصوريتها وتقديمها بعد انقضاء الثلاثة شهور المقررة بالمادة ٣ أ.ج وإن أعطيت تاريخاً سابقاً عليها لينقذ بها دعواه من عدم القبول وعرض للموضوع وطلب براءة المتهم الثانى. ورفض الدعوى المدنية استناداً إلى أن المتهم الأول لم يرتكب خطأ وإنما كان يدافع عن نفسه، ويكشف التزوير الواقع على مقاله وانضم فى ذلك دفاع المتهم الأول وطلب احتياطياً إعادة الدعوى إلى المرافعة لضم أصل الشكوى رقم ٢٠٩ لسنة ٨٢ إدارى بولاق.

وحين أنه عن الدفع بعدم قبول الدعوى بشقيها لعدم سبقها بشكوى من المجنى عليه أو من وكيله الخاص فمردود بأنه من المقرر فى قضاء النقض الجنائى – الذى تتبعه هذه المحكمة وتأخذ به – أن اشتراط تقديم الشكوى من المجنى عليه أو من وكيله الخاص فى الفترة المحددة بالمادة الثالثة من قانون الإجراءات الجنائية عن الجرائم المبينة بها. ومن

بينهـا جـريمة القـذف والسب العلنى المقـامـة عنهـا الدعـاوى المطروحة، هو فى حقيقته قيد وارد على حرية النيابة العامة فى استعمال الدعوى الجنائية ولا يمس حق المدعى بالجقوق المدنية أو من ينوب عنه - بأى صورة من الصور فى حدود القـواعـد العـامـة - فى أن يحـرك الدعـاوى أمـام مـحكمـة الموضـوع مـباشـرة عن طريق الدعـوى المباشـرة فى خـلال الثـلاثة أشـهـر التى نص عليـهـا القـانون - ولو بدون شكوى سابقة - لأن الادعاء المباشر هو بمثـابة شكوى (نقص جنائى ٦/٢/٥٦ الطعن رقم ١١٩٦ لسنة ٢٥ قـضـائيـة مـجـمـوعـة الأحـكام س ٧ ص ١٣٨، نـقص جنـائـى ٢١/٤/١٩٨٠ الطعن رقم ٢٣٨٦ لسنة ٤٩ قـضـائيـة مـجـمـوعـة الأحكام س ٣١، ض٥٤٤).

وحـيث إنـه عن الدفع بعدم قـبول الدعوى لعدم توقيعـهـا من وكيل المـدعى الخاص خلال الثلاثة شـهـور المقررة فـمردود بدوره بأن قضاء النقص قد استقر على أن ما يثيره المدعى عليـه من عـدم قـبـول الدعـوى لأن مـحـامى المدعى بالحق المدنى قدم صحيفة الإدعاء المباشر دون أن يصدر له توكيل خـاص منه ليس بصـائب، ذلك أن المادة الثـالثـة من قـانون الإجـراءات الجنائيـة لا تشـتـرط ذلك إلا فـى حـالة تقـديم الشكوى، ولا ينسحب حكمـهـا على الإدعـاء المبـاشـر (نقص جنائـى ٦/٤/١٩٧٠) مـجـمـوعـة الأحكام س ٢١ ق القـاعـدة رقم ١٣١ ص ٥٥٢، نـقص ٢٩/٣/١٩٧٦ الطعن رقم ١٤٩٥

لسنة ٤٥ قضائية س ٣٧ ص ٣٦٩ . يضاف إلى ذلك أن المدعي بالحق المدنى باشر دعواه بنفسه ووقع أصل الصحيفة إلى جانب محاميه وقدمها إلى المحكمة فى الميعاد.

وحيث أنه عن الدفع بعدم قبول الدعوى لرفعها قبل الأوان بمقولة أن المدعي المدنى تسرع فى رفع دعواه ولم ينتظر قرار النيابة العامة فيها ومن شروط قبول الإدعاء المباشر إلا يكون الأمر قد اتصل بسلطة التحقيق ولم تبت فيه فمردود بدوره بأن قيد الشكوى، برغم إدارى وحفظها بدفتر الشكاوى الإدارية هو فى حقيقته تصرف فى الشكوى من قبل جهة التحقيق يملك مقدم الشكوى بعد إقامة دعواه بالطريق المباشر. ومن ثم تضحى جميع الدفوع الخاصة بعدم قبول الدعوى – المبداه من وكلاء المتهمين والمسئول بالحقوق المدنية غير مستندة إلى سببها من صحيح القانون متعين القضاء برفضها.

وحيث أن المحكمة إذ تعرض لموضوع الدعوى وقد أحاطت بمقالات المتهم المنوه عنها بصحيفة الدعوى والعبارات الواردة بها – المقول بخروجها عن حدود النقد المباح إلى القذف والسب العلنى فى حق المدعى المدنى، ورد المتهم على ذلك وما تضمنته مذكرة دفاعه من أنه استعمل حقه فى الرد وكان فى مجال الدفاع عن شخصيته الأدبية والمعنوية.. لا يفوتها أن تشير فى عجالة إلى ما سبق أن وضحته تفصيلاً فى الحكم الصادر فى الدعوى رقم ٣٢٦٤ لسنة ٨٢ جنح

عابدين المنظورة مع هذه الدعوى بين ذات الخصوم من أن حرية الرأى مكفولة طبقاً للمادة ٤٧ من الدستور الدائم وإن لكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول والكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير فى حدود القانون، وإن القانون قد بين حدود النقد المباح منها وغير المباح. و تطلب لكى يكون النقد مباحاً:

١ - أن يرد على واقعة ثابتة أو مسلمة إذ لا يبيح حق النقد التصدى إلى الوقائع المستورة بقصد كشفها.

٢ - و أن يتمثل النقد فى صورة رأى أو تعليق على عمل أو واقعة صدرت من المجنى عليه هى وعاء النقد.

٣ - وأن يكون التصرف أو الواقعة وعاء النقد ذات أهمية اجتماعية بحيث يؤدى انتقادها إلى تحقيق مصلحة عامة.

٤ - وأن يلتزم الناقد العبارة الملائمة والألفاظ المناسبة للنقد على النحو الذى يطلب من الناس احتماله أخذاً بمعيار الرجل العادى - وسقنا فى ذلك أمثلة من قضاء النقض الجنائى التى انتهى إلى أنه: «وإن كان للإنسان أن يشتد فى نقد أعمال أخصامه ويقسو عليهم ما شاء إلا أن ذلك كله يجب ألا يتعدى حد النقد المباح، فإذا خرج بذلك إلى حد الطعن والتشهير والتجريح فقد حقت عليه كلمة القانون ولا يبرر عمله أن يكون خصومه قد سبقوه فى صحفهم إلى استجابة حرمات القانون».

٥ - وأن يتوافر لدى الناقد حسن النية بأن يلتزم حدود الغرض الذى أبيح من أجله حق النقد وهو تحقيق المصلحة العامة غير مستند إلى «هوى أو مدفوع بباعث شخصى».

وحيث أنه بتطبيق المبادئ سالفة البيان على واقعات الدعوى يتبين أن المتهم الأول حين كتب مقاليه المنشورين بجريدة الأهرام يومى ٣,٢ /٨٢/٨ تحت عامود يوميات، قد خرج على حدود النقد المباح إلى حد الطعن والتشهير والتجريح لشخص المدعى بالحق المدنى إذ نعته بأنه صحفى مزور ودجال، ولم يكتف بذلك بل نقب فى ماضيه وكشف مستور حياته بأن اتهمه بأنه معتاد التزوير (مزور محترف) سبق له أن زور كلام رئيس الدولة الذى رأى فصله من نقابة الصحفيين لولا تدخل - المتهم - كاتب المقالة للعفو عنه. والإبقاء عليه فى جريدته وما إلى ذلك من الألفاظ والعبارات الجارحة التى لا تخدم رأياً ولا قضية والتى وجهها المجنى عليه وهو عالم بمدلولها ووقعها فى نفوس العامة من القراء على نحو يظهر القصد الجنائى لديه من أنه استهدف المجنى عليه النيل من شرفه واعتباره على نحو يوفر فى حقه أركان جريمتى القذف والسب العلنى المؤثمين بالمواد ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٦ - ٣٠٧ من قانون العقوبات مما يتعين معه والحال كذلك معاقبته جنائياً بمواد الاتهام للثبوت عملاً بالمادة ٢/٣٠٤أ ج.

ولا ينال من هذا إلا القضاء ما دفع به المتهم الأول من أنه

كان فى مـجال الدفاع عن نفسه مستخدماً فى ذلك حقاً من حـقـوق الشـريعـة الإسـلامـيـة عـمـلاً بالمادة ٦٠ من قـانون العـقوبات لأن ذلك مردود بأن شروط استخدام حق الدفـاع الشرعى كمانع من العقاب يتطلب أن يكون ثمة اعتداء وشيك الوقـوع على نفس المدافع أو مـاله أونفس الغـيـر ولم يكن لإرادة المدافع دخل فـى حدوثه ولا فى قدرته منعه بطريقـة أخـرى، فليس من بين أسـبـاب الدفـاع مـا يسـمى بـاغـتـيـال الشخصية المعنوية والحال أن ألفاظ السباب وقعت بالفعل من الطرف الآخـر والرد عليـها بمثلها ليس درءاً لهـا وإنما هو من قبيل الانتقام وهو ما يقره القانون. كما لا ينال من هذا القضاء مـا دفع به المتـهم من أ نـه اسـتـعـمل حق الرد على المدعى بالحق المدنى عما كاله له من ألفاظ السباب والقذف ووقائع التزوير التى أفرد لها دعوى مستقلة فى الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ٨٢ جنح عـابدين المنظورة مع هذه الدعـوى لأن ذلك مـردود بأن ما بدر من المتهم لا يبرره أن يكون خصمه قد سبقه فى صـحيفته إلى استباحة حـرمات القانون فى هذا البـاب وكان أحرى به أن يتمثل قول رسول الله (صلعم) فى الحديث الشريف: «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» فلا يرد العيب عيباً.

وحيث جرى نص المادة ١٩٥ من قـانون العقوبات على أنه مع عدم الإخلال بالمسئولية الجنائية بالنسبة لمؤلف الكتاب أو واضع الرسم أو غـيـر ذلك من طرق التـمـثـيل يعـاقب رئيس

تحرير الجريدة أو المحرر المسئول عن قسمها الذى حصل فيه النشر إذا لم لكن ثمة رئيس تحرير بصفته فاعلاً أصلياً للجرائم التى ترتكب بواسطة صحيفته، ومع ذلك يقف من المسئولية الجنائية إذ أثبت أن النشر حصل دون علمه وقدم منذ بدء التحقيق كل ما لديه من المعلومات والأوراق للمساعدة على معرفة المسئول عما نشر، وإذا أرشد فى أثناء التحقيق عن مرتكب الجريمة وقدم كل ما لديه من المعلومات والأوراق لإثبات مسئوليته وأثبت فوق ذلك أنه لو لم يقم بالنشر لعرض نفسه لخسارة وظيفته فى الجريدة أو لضرر جسيم آخر ومن ثم فمسئولية رئيس التحرير عما ينشر فى جريدته مسئولية مفترضة مبناها صفته ووظيفته فى الجريدة فهى تلازمه متى ثبت أنه يباشر عادة وبصورة عامة دوره فى الإشراف، ولو صادف أنه لم يشرف بالفعل على إصدار هذا العدد أو ذاك من إعداد الجريدة ولا يزمع هذه المسئولية عن عاتقه أن يكون قد عهد ببعض اختصاصه لشخص آخر ما دام قد استبقى لنفسه حق الإشراف عليه، ذلك لأن مراد الشارع من تقرير هذه المسئولية المفترضة إنما مردوده فى الواقع هو افتراض علم رئيس التحرير بما تنشره جريدته التى يشرف عليها، فمسئوليته إذن مفترضة نتيجة افتراض هذا العلم ما لم يثبت أن النشر تم بدون علمه أو أنه ما كان يقدر على منع النشر دون فقد وظيفته أو إلحاق خسارة مادية بالجريدة (نقض جنائى ١٧/ ١١/ ١٩٦٤، الطعن رقم ٤٨٢

لسنة ٣٤ ق.ص.٨٦٧ ،نقض ١٩٧٥/٦/٢٣ الطعن رقم ١٧٧ لسنة ٤٥ ، ق.ص ٥٦٧) . إذ كان ذلك وكان مسئولية المتهم الثاني بصفته رئيساً لتحرير جريدة الأهرام ثابتة على النحو السالف بيانه ولم يدفع المتهم عن نفسه بثمة دفع أو دفاع ومن ثم يتعين معاقبته بمواد الاتهام للثبوت عملاً بالمادة ٢/٣٠٤أ.ج.

وحيث أنه عن الدعوى المدنية المقامة بالتبعية للدعوى الجنائية وقد قضى بإدانة المتهمين الأول والثاني لثبوت ارتكابهما للعمل غير المشروع وهو ما يشكل في جانبهما ركن الخطأ في المسئولية التقصيرية المؤسسة عليها دعوى التعويض، وكان ضرر المدعي بالحق المدني ثابت من المساس بشرفه واعتباره والنيل من كرامته بين أهل وطنه ومحبية من قرائه، وقد ارتبط ما أصابه من ضرر بخطأ المتهمين ارتباط السبب بالمسبب على نحو يحقق أركان المسئولية التقصيرية – من خطأ وضرر وعلاقة سببية – في جانب المتهمين وبتعيين والحال كذلك مساءلتهما مدنياً عن جهر الضرر الذى أصاب المدعي بالحق المدني عملاً بالمادة ٢٥١ من قانون الإجراءات الجنائية والمادة ١٦٣ من القانون المدني.

وحيث أنه وقد ثبت مسئولية المتهمين عن الخطأ والضرر على النحو السالف بيانه ومن ثم تتحقق مسئولية رئيس مجلس إدارة جريدة الأهرام بصفته المسئول بالحق المدني

عن أخطاء تابعيه عملاً بالمادة ١٧٤ من القانون المدنى.

وحيث أن المدعي بالحق المدنى قد اكتفى بتقدير التعويض المدنى الجابر لما أصابه من ضرر بمبلغ ١٠١ جنيه على سبيل التعويض المؤقت ومن ثم يتعين القضاء له به.

وحيث أنه عن المصروفات شاملة أتعاب المحاماة فإن المحكمة تلزم بها المتهمين عملاً بالمواد ٣٢٠أ.ج، ١٨٤ مرافعات.

فلهذه الأسباب

حكمت المحكمة حضورياً بالنسبة للمتهم الأول وحضورياً اعتبارياً بالنسبة للمتهم الثانى بتغريم كل منهما مائتى جنيه وإلزمتهما والمسئول بالحقوق المدنية بصفته بأن يؤدوا للمدعى بالحق المدنى - بالتضامن فيما بينهم وعلى سبيل التعويض المؤقت مبلغ ١٠١ جنيهاً. والمصروفات ومائتى قرش مقابل أتعاب المحاماة.

رئيس المحكمة

رسالة جبهة النضال الشعبى الفلسطينى

الاستاذ أحمد بهاء الدين المحترم

لقاهرة

تحية لنضال والثورة وبعد،

اطلعت قيادة جبهة النضال الشعبي الفلسطيني عل مقالكم المنشور في جريدة الاهرام بتاريخ ١٩٦٩/١٢/١ تحت عنوان (بعد قنبلة أثينا) وترجو الجبهة أن تعملوا علي نشر هذه الكلمة المتعلقة بالموضوع في أول عدد يصدر عن الاهرام، تحقيقاً للفائدة المرجوة . وحبذا لو نشرت أيضاً في مجلة المصور.

نود قبل كل شئ تسسجيل النقاط التي نتفق معك عليها «مستخدمين نفس عباراتك الواردة في المقال المشار اليه، ونرددها معك وهي:

١ - الامر الذي يجب ان نقاومه جميعاً في نفوسنا هو، أن يصبح موضوع (المقاومة الفلسطينية) موضوعاً مقدساً لا يجوز التعرض له أو مناقشته) .

٢ - ان من حق المقاومة الفلسطينية أن تتصدي لاسرائيل أينما كانت ومن حق المقاومة الفلسطينية ان تسمع العالم كله

صوتها. بل وأقول – عن عقيدة – اكثر من ذلك : ان من حقها ان تجعل العلم كله مجتمع انساني ... يدفع الثمن .

فاسرائيل هي الدولة الوحيدة التي أقامها المجتمع الدولي بقرار من الامم المتحدة علي أرض شعب آخر وعلي أشلائه . فالمجتمع الدولي كله مسئول وإذا قيل – كم يقال في الخارج – ان المقاومة الفلسطينية تخرج علي قوانين العالم فالسبب هو أن العالم نفسه خرج علي القانون الطبيعي .

٣ – وإذا كانت الحركة الصهيورنية قد استطاعت ان تشعر العالم كله بذنب اضطهاد اليهود ... فلا بد أن يشعر العالم بالذنب الذي ارتكبه ويرتكبه الي الان في حق الشعب الفلسطيني .

ولكن ليسمح لنا الاستاذ الكبير أن نقول بأن ما يرد في باقي المقال المشار اليه متناقض الي حد غير قليل مع النقطتين الثانيه والثالثة السالفتي الذكر . والانطباع العام الذي يخرج به القارئ للمقال ، ان الاستاذ أحمد بها الدين لا يوافق علي التعدي علي اسرائيل اينما كانت . أو أنه يضع لذلك شروطاً حساسة لدرجة ان تلغي الشروط المبدأ . وكنا نفضل ان يكون الاستاذ اكثر صراحة حول هذه النقطة – وهو الذي دعا في أول المقال الي ضرورة حرية المناقشة وابداء الرأي – اذن لكانت مناقشة الرأي أسهل وأدق . يؤيد هذا الاستنتاج ما جاء

في المقال من كلام طويل حول المناقشات التي أوردها الاستاذ مع بعض المقاتلين الفلسطينين ليسوا من المنظمة صاحبة القنبلة الاخيرة علي أي حال – حول هذا النوع من العمليات .

في رأينا أن الموافقة علي أي مبدأ يجب أن تعني ممارسة ما ينطون عليه من أعمال ، مع التسليم بأن أي عمل يقوم به الانسان معرض لان تقع فيه بعض الامور الغير متوقعة ، والا فإن الامر يكون مجرد فكر خيالي ، أو موافقة شكليه .

وبطبيعة الحال يبقي بعد ذلك ان تكون الممارسة مدروسة ومخططة لكي تحقق الغاية الاساسية . وفي رأينا وبقدر ما لمسناه من ردود فعل شعبية عربية او علي المستوي السياسي العالمي أو علي مستوي العدو نفسه فان ردود الفعل التي ترتبت علي حادثة اثينا كانت اجابية اكثر منها سلبية

نود في هذه المناسبة ، أن نطرح بعض الحقائق والمعلومات لتوضيح الامر ، ولتنوير الاستاذ أحمد بها الدين ببعضها ولتذكيره بالبعض الاخر . كما نطرحها لاطلاع الجميع:

١ – إن جبهة النضال الشعبي الفلسطيني ، التي حرص الاستاذ أحمد بها الدين علي عدم ذكر اسمها في كل مقاله ، بشكل مقصود – علي ما يبدو – نشأت مباشرة بعد حرب حزيران سنة ١٩٦٧ داخل الارض المحتلة . ثم امتد تنظيمها

الي الضفة الشرقية والي كثير من الاقطار العربية وغير العربية .

ان جبهة النضال الشعبي بسبب ذلك قد ركزت نشاطاتها – وخاصة العسكري منها – داخل الارض المحتلة قديماً والمحتلة حديثاً . وقامت بعدة عمليات عسكرية كبيرة نذكر منها علي سبيل المثال ما يلي :

* عملية قطع الارسال الاذاعي عن مدينة بيت لحم أثناء حفلاء عيد الميلاد سنة ١٩٦٧ .

* عملية حريق مطار اللد الكبير يوم ١٩٦٨/١٠/٢٤ (وقد نشرت أخبارها في جريدة الاهرام في حينه مع الاشارة الي جبهة النضال الشعبي الفلسطيني .

* معركة (جبال الخليل) يوم ١٩٦٩/٢/٤ (والتي دارت رحاها يوماً كاملاً بين قوات العدو وبين مجموعة من مقاتلي الجبهة كانت تقود جمالاً محملة بالسلاح والعتاد لاعضاء الجبهة في الداخل ، والتي استشهد فيها عدد من أعضاء جبهة النضال الشعبي الفسلطيني وأسر آخرون من بينهم المناضل (نبيل قبلاني) الذي يحاكم الان أما محاكم العدو ، وهو الذي تحدي سلطات الاحتلال أثناء محاكمته بشكل لم يسبق له مثيل. كما ورد في جريدة (الاتحاد) التي تصدر في الارض المحتلة .

* نسف خط سكة الحـديد الذي يربـط القـدس مع يافـا ، يوم ١٩٦٩/٢/١٦ .

* مـعـركـة (جـرون الحـمص) شـمـالي مـدينة بيت لحم يوم ١٩٦٩/٥/١٤ التي دمر فيها للعدو خمس سيارات عسكرية ، وقتل وجرح معظم من فيها ومن بينهم ضابط برتبة ميچور (صاغ) .

* نسف وتدمير ابراج وخطوط كهرباء التوتر العالي شمالي مـيناء ايلات يوم ١٩٦٩/٧/١٧ ، ومـرة أخـري يوم ١٩٦٩/٩/١٣ .

* مـعـركـة (شـتـولا) في الجليل الاعلي يوم ١٩٦٩/١٠/١٥ التي استـمـرت ١٢ سـاعـة ودمـر فـيـها للعدو ثلاث سيـارات عـسكرية وقـتل وجـرح معظم من فـيـهـا ، واستـشـهـد أثـناءها المناضلون لابطـال : رزق علي عـبـد الرحـمـن - وحـسن الجنوب - وحسن حسين كرديه - صارم - وجمعة حـحسن البـتي - ابو الحـسن - من مـقـاتلي جـبـهـة النضـال الشـعـبي الفلسطيني .

٢ - أن جبهة النضال الشعبي الفلسطني قد لا تكون معروفة كثيراً لدي الصحافة لأنها تتجنب الضجيج الاعلامي لنفسها ، ولكنها معروفة تماما لعرب المنطقة المحتلة من فلسطين ، وللمقـاتلين عـمومـاً ، وللعدو الصـهـيوني بالذات - مـعروفـة

باعمالها القتالية وبمناضيلها الذين وقفوا ويقفون اليوم امام المحاكم والتعذيب وفي السجون ، واذا كان الاستاذ احمد بهاء الدين يرغب في تدوين قصة وا اكثر من اروع قصص البطولة والصمود امام التحقيق والتعذيب ، فليسأل عن قصة البطل (عبد المطلب ابو ارمييله) عضو جبهة النضال الشعبي الفلسطيني الذي اتهم بحرق مطار اللد يوم ١٩٦٨/١٠/٢٤ والذي يحتجز الان داخل مستشفي المجانين ، بعد ما اصابه من التعذيب الوحشي أو فليدون اعمال المناضل كمال النمري المهندس المحكوم بالسجن ١٦٣ سنة والموجود حالياً في سجن العدو .

٣ – حبذا لو يطلع الاستاذ أحمد بهاء الدين علي ميثاق جبهة النضال الشعبي الفلسطيني ليتعرف علي تفكير اعضائها وقيادتها والي أن يتحقق ذلك ندون هنا أسطراً من هذا الميثاق تضمنها البلاغ العسكري الذي أصدرته الجبهة حول عملية أثينا الاخيرة .

* من حق الثورة الفلسطينية ومن واجبها ان توجه ضرباتها للصهيونية العالمية اينما وجدت ، في فلسطين او في أية ارض عربية ، أو غير عربية من اجل توسيع ساحة الكفاح وتشتيت قوي العدو .

* جبهة النضال الشعبي الفلسطيني حركة جماهيرية عربية

مستقلة تستمد قوتها من القوة الشعبية العاملة ، الفلسطينية والعربية .

* الثورة الشعبية المسلحة وحرب التحرير الشعبية الطويلة المدي ، وعدم التراجع ، بل التقدم الي ميادين نضالية جديدة هي الاستراتيجية العسكرية التي تعتمدها جبهة النضال الشعبي الفلسطيني .

* قضية الحرية والكفاح ضد المعسكر الامبريالي – الصهيوني – الرجعي قضية واحدة في جميع أنحاء العالم .

* الثروة الفلسطينية العربية حركة تقديم اخلاقية انسانية تقوم ضد كل اشكال الظلم والاستغلال والاحتكار .

* ان العلم هو السلاح الحقيقي للارادة الثورية ، ارادة التغيير التقدمي .. نحن نؤمن بالتخطيط ونرفض الارتجال والمراهقة والمزاودات والعفوية ، فالتخطيط هو الذي يتصدي لرسم حركة التغيير والتقدم في جميع المجالات .

٤ – نؤكد للاستاذ احمد بهاء الدين ان عملية أثينا كانت :

أ – تنفيذا عمليا لما تؤمن به الجبهة من مبادئ واستراتيجية .

ب – كانت العملية مدروسة تماماً وسبقها استطلاع طويل .

جـ – حرصت الجبهة عند وضع لخطة ان لا تؤدي العملية الي قتل أي فرد، وكان هذه الناحية مضمونة فنيا الي حد

بعيد ، وأن وفاة الطفل كانت نتيجة لمصادفة غير متوقعة ، تؤكد ذلك مجمل وقائع العملية ونتائجها .

د – نستغرب أن يعتبر نسف مكتب شركة طيران (العال) في أثينا يوم محاكمة فدائي الجبهة الشعبية في زيورخ مضراً بالمحاكمة من ناحية اعلامية ، وفي رأينا كما هو رأي الكثيرين أن عملية أثينا لفتت أنظار العالم اكثر واكثر الي محاكمة زيورخ ، وعبر عن اصرار شعب فلسطين علي القتال وضرب العدو في كل مكان .

ه – لقد أرسلت جبهة النضال الشعبي الفلطيني برقية تعزية رقيقة الي والدة الطفل المتوفي وزعتها علي الصحافة المحلية والعالمية فور سماعها بوفاة الطفل . نرفق لكم صورة عنها .

ونؤكد للاستاذ احمد بهاء الدين كم اكدنا لوالدة الطفل ان معظم أعضاء جبهة النضال الشعبي الفلسطيني ، شأنهم في ذلك شأن معظم أبناء فلسطين ، قد نكبوا في اهلهم ، فمنهم من فقد والده او والدته او شقيقه او شقيقته او ابنه او ابنته الذين من بينهم اطفال صغار ، نتيجة للعدوان الامبريالي الصهيوني الرجعي وانهم لذلك اكثر من يستشعر بالالم الذي ينتج عن قتل طفل او حرقه وتشويهه بالنابالم او غيره .

ومع ذلك فهم مقاتلون واعون بعيدون عن المغامرة او حب الظهور .

٦ – نرسل مع هذه الكلمة مجموعة من الصور لاطفال من أبناء فلسطين قتلوا او شوهوا ، وبعضها لاطفال من ابناء فلسطين في عمر الزهور يتدربون علي العمل الفدائي ، ويتعرضون للموت او التشويه ، بدلا من ان يكونوا في مدارس آمنة كل ذلك بسبب العدوان الامبريالي الصهيوني .

نرسلها لكم لتعملوا علي نشرها مع هذا المقال ، وعلي المستوي العالمي ان امكن ، لعل الضمير الانساني – الذي يهتز لقتل طفل برئ – ان يهتز ايضاً لمأساة اطفال شعب فلسطين .

٧ – اننا نؤمن ان الامر ، فيما يتعلق باندعاية علي النطاق العالمي يتوقف في الدرجة الاولي ، علي ما نقوم به كعرب ، من شاط اعلامي وان النشاط الاعلامي الصهيوني الامبريالي قادر علي محاصرتنا في عملياتنا داخل الارض المحتلة وتشويهها واستغلالها لصالحه ان لم نقم جميعاً بالنشاط الاعلامي اللازم . وان عملية أثينا الاخيرة تحمل في حد ذاتها ، امكانات الاستفادة منها اعلاميا اكثر من احتمالات سوء الاستغلال ، ان فكرنا وعملنا بروح ثورية تتناسب مع ما يقاسيه شعب فلسطين وما يتعرض له من ويلات وأخطار ، ومعه الشعب العربي بشكل عام .

٨– لقد عمد العدو الصهيوني المحتل مؤخراً علي تطبيق

(العقوبات الجماعية) التي هي في الحقيقة (مذابح جماعية) ضد أهلنا في الوطن المحتل ، فلماذا لا نستغل اهتمام العالم في حادث أثينا لابراز جرائم العدو المحتل .

وأخيراً فاننا نرحب دوماً بمثل هذ النقاش من صحافتنا العربية شريطة ان يصاحبه توضيح اعلامي علي المستوي العالمي ، يمتص ما قد يستغله العدو من أقوال ترد خلال مناقشاتنا ، ونكرر الرجاء بنشر صور اطفالنا الضحايا والمناضلين علي أوسع نطاق ممكن .

ودمتم للنضال ....

١٩٦٩/١٢/٣

قيادة جبهة النضال الشعبي الفلسطيني

جريمة العصر
في ضمير التاريخ وفي طيات المستقبل

نحن أبناء الأمة العربية في طليعة المنادين بحقوق الإنسان، ليس لأن حقوق الإنسان جاءت، أول ما جاءت، في بلادنا عبر الأديان السماوية فحسب، ولكن لأن المظلومين هم عادة أول المطالبين بحقوق الإنسان وأخلصهم. ونحن في هذا العصر مظلومون.

إن من أول حقوق الإنسان حقه في أن يرحل إلى حيث يريد، وأن يعيش حيث يريد. وما تاريخ الدنيا إلا هجرات عمرت أرجاء الأرض، مكتشفة قارات جديدة بأكملها. ولقد كانت الهجرة دائمًا عفوية اختيارية غير منظمة، خالية من أي نية غزو أو عدوان. ولكن تهجير مئات الألوف من اليهود السوفيت لايندرج في هذا الإطار، فهذه أول مرة في التاريخ يتم التهجير بتواطؤ دولي، وعلى يد الأقوياء، واغتصاب لأرض الآخرين، وعدوانا ومحوا لحقوق الإنسان الفلسطيني في أرضه الأصلية. فحق الإنسان لم يقترن أبدا بإجراءات ترغمه على الذهاب إلى مكان معين. وليس سرا أن المهاجر اليهودي السوفيتي يريد أن يذهب أساسا إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها من دول الغرب، بينما كافة الإجراءات اتخذت لكي ترغم المهاجرين على الذهاب رأسا من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل، دون توقف في مكان يقررون فيه بملء حريتهم إلى أين يريدون الذهاب، كما كان يحدث من قبل.

إنها عملية غزو متكاملة أركان الغزو. وإذا كانت أسلحة القتال لم تستخدم فيها، فإن المستخدم فيها هو أسلحة القدرات المادية الطاغية الأخرى، من مال غزير وطائرات كثيرة وسطوة دولية بغير حدود، هدفها الأساسي طرد العرب من أراض لهم، لاتصل مساحتها إلى واحد من المئة من أراضي الدولتين الأكبر، يسكنها ثلاثة ملايين مواطن، وذلك في عملية إجبارية تفرض عليهم من دولتين بهما أكثر من خمسمائة مليون مواطن، لاقتلاعهم اقتلاعا ومحوهم محوا، ولانتزاع أرض مقدسة، ولد فيها أنبياء من شتى الأديان، من ذاكرة البشرية جمعاء، استنادا إلى أسطورة في غياهب التاريخ عن وعد بين الله وبين شعب مختار، منحه بمقتضاه قلب الدنيا، ما بين النيل والفرات، وإلى كذبة غاشمة عن "أرض بلاسكان".

والأخطر من هذا كله أن هذا يجري في إطار من الدجل السياسي على مستوى فريد من حكام العالم المتجبرين وتحت عنوان حقوق الإنسان. إن الترجمة الصحيحة والوحيدة لحقوق الإنسان في هذه القضية هي الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة على أرضه، وحق اليهودي السوفيتي في أن يهاجر إلى حيث يشاء.

وما هذا البيان إلا لتسجيل الجريمة في ضمير التاريخ، ولتأكيد أن ما يخططه الجبابرة المتكبرون في صفحة من صفحات التاريخ سوف ينقلب عليهم ذات يوم في صفحة أخرى من صفحاته الكثيرة.

صورة لبيان «جريمة العصر»، وقد أجرى عليه الأستاذ أحمد بهاء الدين بعض التعديلات بخط يده.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

أ - غير المنشورة:

- دار الكتب المصرية ، محافظ عابدين ، محفظة رقم ٧ من محافظ مجلس الوزراء المصري رقم ٨٤ في جلسة ١٩٤٦/٩/٢٠ .
- محضر اجتماع مجلس نقابة الصحفيين المصريين في ١٩٦٨/٢/٢٨ ، في عام ١٩٦٨ .
- حكم محكمة عابدين ، الجلسة العلنية في ١٩٨٣/٤/٢٦ في قضية النيابة العمومية برقم ٤٢٠٦ .
- خطاب جبهة النضال الشعبي الفلسطيني الي احمد بهاء الدين في ١٩٦٩/١٢/٣.
- الملف الطبي الخاص بتاريخ امراض احمد بهاء الدين وتطور الحالة الصحية له ، بجريدة الاهرام .

ب - المنشورة:

- بيان (جريمة العصر) منشور اخبار اليوم ١٩٩٠/٢/٢٣ .
- خطاب احمد بهاء الدين الي الرئيس انور السادات ١٩٧٣/٤/٥ .

ثانياً: الدوريات والصحف

- أخبار اليوم: ٥٩ . ٦١، ٦٢، ١٩٦٣
- آخر ساعة (أسبوعية) : ٦٢، ١٩٦٣
- الدستور : ١٩٨٩
- رابطة الشباب : ١٩٤٧
- روزاليوسف : (شهرية) ٥٢ ، ٥٦ ، ١٩٧١
- الأهرام : ٦٢، ٦٩، ٧١ ، ٧٢، ٧٤، ١٩٧٨

: (اليوميات) بين ٨١ – ١٩٩٠
- الأهرام المسائى: ١٩٩٢
- المستقبل العربى (شهرية) : ١٩٨٦
- الشباب (شهرية) : ٨٨ ، ١٩٩٠
- العربى (شهرية) : ٧٦ – ١٩٨١
- صباح الخير: ٥٦ – ١٩٨٠
- الشعب : ١٩٨٢
- المصور (شهرية) ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١، ٧٨، ١٩٨٨
- المنتدى، شهرية : ١٩٨٩
- نصف الدنيا. (شهرية) ١٩٩٠

-Foreign Affairs, Autumn1992.

-Foreign Affairs, Spring88.

-Herled Tribune,14/2/1990.

-Unesco, Journal of World.

History, off Pribt. Neuchatel.

Switzerland, VXIV1922 (The Arab Cultural Imagein World

Contexr.

-The Middle East Journal(1960) Cheigne, A. The Use of

History by Modern Arab Writers.14,P

ثالثاً: رسائل جامعية

- حماد إبراهيم، صورة الولايات المتحدة الأمريكية في الصحافة المصرية اليومية – دراسة – مخطوطة مقارنة بين

حقبتي الستينات والسبعينات، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الإعلام، قسم الصحافة بجامعة القاهرة. ١٩٨٦.

رابعاً: قواميس وموسوعات

Crand Larousse,

Encyclpédique,2, Paris1960 p143

خامساً: حوارات شخصية

- السيدة ديزى أحمد بهاء الدين (زوجته)
- السيدة ليلى بهاء الدين (شقيقته)
- د. محمد عطية: طبيب متخصص فى القلب لأحمد بهاء
- د، مصطفى حنورة: تخصص فى علم النفس الإبداعى.
- الفنان: عبدالغنى أبو العينين

سادساً: المؤلفات والدراسات

أ - العربية

أحمد بهاء الدين:

- الاستعمار الأمريكى أو النقطة الرابعة، القاهرة، ١٩٥١
- مبادئ وأشخاص، دار الجمهورية، سلسلة كتب للجميع، القاهرة. العلم ١٩٥٦
- أزمة اتفاقية الوحدة الثلاثية، كتب قومية، القاهرة ١٩٥٩
- إسرائيليات، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة ١٩٦٥
- أفكار معاصرة ،كتاب الهلال، دار من حولها من مناقشات، دار الآداب، بيروت ١٩٦٨
- الثورة الاشتراكية، قضايا ومناقشات، دار القلم، القاهرة ١٩٦٢
- أيام لها تاريخ، دار الشروق، القاهرة ط ٣ ١٥٥١
- ثلاث سنوات (يونيو ٦٧ - يونيو ١٩٧٠)

- قوميتنا فى امتحان جديد، القاهرة، الدار القومية، ١٩٥٩

- شهر فى روسيا، دار النديم، جريدة الصباح، القاهرة، بدون

- أبعاد فى المواجهة العربية الإسرائيلية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢ .

- وتحطمت الأسطورة عند الظهر، دار الشروق ، القاهرة ١٩٧٤

- شرعية السلطة فى العالم العربى، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٤

- محاوراتى مع السادات، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٧

- يوميات هذا الزمان، تقديم محمد حسنين هيكل، الأهرام ١٩٩٢

أحمد عبدالله

- الطلبة والسياسة فى مصر، ترجمة إكرام يوسف، دار سينا، القاهرة، ط ١ / ١٩٩١

باربولسكو، لوك - وكاردينال، فيليب

رأيهم فى الإسلام تعريب ابن منصور العبد الله، دار الساقى، ١٩٨٧، وقد قمت بمراجعة الترجمة على النص الفرنسى فى الفقرات التى استفدت بها وأثبتها، وذلك بالعودة للنص الأصلى بعنوان

مصرى حنورة

- الخلق الفنى، كتابك رقم (٣٢) من السلسلة دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧

- سيكولوجية التذوق الفنى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

مصطفى عبدالغنى:

- عبدالرحمن الشرقاوى متمرداً، دار التعاون، القاهرة ١٩٨٨

- طه حسين والسياسة، دار المستقبل العربى ١٩٨٠

- المثقفون وعبدالناصر، دار سعار الصباح، القاهرة ١٩٩٢

- زكى نجيب محمود، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٢

- المثقفون والخليج (دراسة حالة للمثقفين المصريين) تحت الطبع.

طارق البشرى:

الحركة السياسية فى مصر ٤٥/١٩٥٢، دار الشروق ط٢/١٩٨٣

طه حسين

- مستقبل الثقافة فى مصر، القاهرة، ١٩٣٨

محمد لبيب شقير

- الوحدة الاقتصادية العربية، تجاربها وتوقعاتها، ج١ . مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٦ .

البرت حورانى

- الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩، دار النهار، ترجمة إلى العربية كريم عزقول، بيروت، بدون

ليفين، ز، ١٠

- المكارثية والمثقفون (إعداد وشهادات) ترجمة أحمد حسان، دار ابن خلدون. بيروت ١٩٨٠ .

نازك سابايارد

- الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة الحديثة، مؤسسة نوفل، بيروت ١٩٧٩

ب - الأجنبية

-Eugene R. Black. The Revolution of Great Expectations.

-The Intellectuals A. Constrovesiel Portrait George, B. de Huszor Amirca.1960

سابعاً: ندوات ومحاضرات

- ندوة (الوحدة العربية) بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، وأعاد نشرها في سلسلة المركز في نوفمبر ١٩٨٩

- محاضرة عن الوحدة العربية لأحمد بهاء الدين. فندق ماريوت، الأردن، ديسمبر ١٩٨٩

- ندوة معرض الكتاب الدولي بالقاهرة، يناير ١٩٩٠

- الندوة العلمية لدار الهلال - الذكرى المئوية، ٣ - ١٦ سبتمبر ١٩٩٢

-Contronce International Saciologtcal associations, Canada,1982.

لـ: مصطفى عبدالغنى

١ - مؤرخو الجزيرة العربية: دار الموقف العربى: القاهرة ١٩٨٠

٢ - المؤثرات الفكرية فى الثورة العربية: الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٢

٣ - شهر زاد في الفكر العربى الحديث: الطبعة الأولى . دار الشروق، القاهرة ١٩٨٥

الطبعة الثانية، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٥

٤ - الحصار: مسرح شعرى، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٤

٥ - الخروج من المدينة، مسرح شعرى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٥

٦ - اللاعب: مسرح شعرى، هيئة الكتاب، ١٩٩٦

٧ - الوداع.. ترجمة آخر أشعار أراجون ، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٦

٨ - فى دائرة النقد.. قطاع الآداب بالمركز القومى للفنون التشكيلية، القاهرة ١٩٨٦

٩ - الشرقاوى متمرداً: درار التعاون القاهرة ١٩٨٧

١٠ - اعترافات عبدالرحمن الشرقاوى: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦

١١ - طه حسين والسياسة: دار المستقبل العربى. القاهرة ١٩٨٦

١٢ - تحولات طه حسين: هيئة الكتاب. ١٩٩٠ .

١٣ - طه حسين وثورة يوليو، دار التراث الإسلامى،القاهرة ١٩٨٩

١٤ - المسرح المصرى فى السبعينات (١) هيئة الكتاب،المكتبة

الثقافية، القاهرة ١٩٨٧

١٥ - المسرح المصرى فى الثمانينات: الطبعة الأولى، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٤.

الطبعة الثانية، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٥

١٦ - البنية الشعرية عند فاروق شوشة، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٢

١٧ - المثقفون وعبد الناصر: دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٢

١٨ - زكى نجيب محمود (سلسلة نقاد الأدب) هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٩٢

١٩ - الخروج من التاريخ (دراسة فى مدن الملح لعبدالرحمن منيف) هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٣

٢٠ - نجيب محفوظ الثورة والتصوف، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٣

٢١ - الاتجاه القومى فى الرواية (سلسلة عالم المعرفة) الكويت، ١٩٩٤

٢٢ - نقد الذات فى الرواية الفلسطينية، دار سيناء، القاهرة ١٩٩٤

٢٣ - الجبرتى والغرب (دراسة حضارية مقارنة)، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٥

٢٤ - المثقفون وأزمة الخليج. تحت الطبع، القاهرة ١٩٩٦

٢٥ - عنصر المكان عند أبى سنة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٦

٢٦ - الجات.. والتبعية الثقافية - (تحت الطبع)

٢٧ - نقاد الرواية فى نهاية القرن العشرين فى مصر (تحت الطبع).

١٨ الفريسة والصياد - وثائق اغتيال حسن البنا.